وزارة التربية والتعليم
كتابة الدولة للتعليم العالي
معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - جامعة الجزائر



العدد السابع السنة 1414هـ - 1993م

وزارة التربيّة الوطنية
مديرية التعليم العالي

جامعة الجزائر

معهد التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - جامعة الجزائر



العدد السابع السنة 1414هـ - 1993م

مدير المجلة / مدير المعهد : د. محمد بن عميرة
رئيس هيئة التحرير/ المكلف بإصدار المجلة: د. ناصر الدين سعيدوني
مساعدو كتابة المجلة: تلمساني بن يوسف
د. بوعزة بوضرساية

ملاحظة

لم نثبت أعضاء هيئة التحرير في هذا العدد نظرا للتنظيمات التي سوف تجرى على هيئة التحرير كما نعتذر للقراء عن التأخر في صدور العددين السادس والسابع من هذه المجلة وذلك لظروف خارجة عن نطاقنا وقد تفضل السيد رئيس جامعة الجزائر الدكتور عمر صخري ونائبه المكلف بالبحث العلمي الدكتور طاهر حجار بتقديم يد العون والمساعدة على أصدارهما، فلهما الشكر الجزيل والتحية الخالصة.

مع الأمل في متابعة إصدار أعداد أخرى من هذه المجلة في القريب العاجل.

عن هيئة التحرير: الدكتور ناصر الدين سعيدوني

الإشراف الفني: محمد خليل
التنضيد : مليكة عيسى ابراهيم
الطباعة: الملكية شركة ذات مسؤولية محدودة
للطباعة والإعلام والنشر والتوزيع
39، مزرعة رشيد كوريفة ص.ب. 58 الحراش/الجزائر.

عنوان المراسلة: معهد التاريخ - بوزريعة - جامعة الجزائر

المحتويات

الدراسات

التاريخ القديم

- ثورة فيرموس 11
  د. محمد الهادي حارش
- معاهدة زاما 19
  د. تسعديت رمضان

التاريخ الوسيط :

- ابن خلدون المؤرخ 27
  د. عبد الحميد حاجيات
- قضية ولاية العهد في الخلافة العباسية 36
  د. بشار قويدر
- أحمد بن ادريس البجائي الأيلولي 54
  أحمد ساحي

التاريخ الحديث المعاصر

- المعاهدة الجزائرية الإسبانية 71
  د. ناصر الدين سعيدوني
- المعاهدة الجزائرية البندقية 94
  د. عائشة غطاس
- **صفحات من جهاد شعب الصومال** 109
  محمد حاج عمر

- النوادي الثقافية الجزائرية قبل الحرب العالمية الثانية 124
د. عمار هلال

- محطة في مسار الحركة الوطنية التونسية 141
د. شاوش حباسي

- الجزائر من خلال المنظار الاستعماري 155
د. يحياوي مسعودة

- مذكرة سيدني سميث 167
ترجمة وتعليق د. علي تابمست

تقديم الرسائل:

- النظام الضريبي بالريف القسنطيني 176
قلة القشاعي

- الحاج أحمد باي رجل دولة ومناضل 186
بوعزة بوضرساية

- دولة بني مدرار بسجلماسة 197
شنايت العيفة

- الإصلاحات السيفيرية في بلاد المغرب القديم 206
تسعديت رمضان

- التوسع العسكري المقدوني من خلال حملة الاسكندر الثالث على الشرق 213
إبراهيم بشي

القسم الأجنبي 219

– Les Morisques (Andalous) dans l'Algérois au 16-17 siècles
Dr. Saïdouni Nacereddine

– Chronique de Marcellinus Comes (suite)
Traduction N. Aridj

تقديم العدد السابع

نقدم هذا العدد السابع من مجلة الدراسات التاريخية وكلنا أمل في أن تتكاثف الجهود في مجال البحث التاريخي، لتأكيد مكانة مساهمة الجزائر في مجال التاريخ على المستوى الوطني والدولي. هذه المساهمة التي نتصورها من خلال خصوصية البحث والاهتمام وعالمية النظرة والتصور، بحيث يصبح التنوع غنى، والاختلاف حيوية والتباين تفاعلاً، وبذلك فقط يمكن اعطاء هذه المجلة محتواها الحقيقي وبعدها العلمي...

قد يلاحظ القارئ الكريم في هذه المجلة ظهور أسماء مؤرخين من الجيل الجديد من خلال البحوث والعروض وتقديم الأطروحات ـ وهذا يمثل بالنسبة لمهمة هذه المجلة ـ أملاً وتحدياً في نفس الوقت، أملاً في أن يكون هناك تواصل بين الجيل الأول الذي ظهر منذ الاستقلال إلى غاية الثمانينيات، والجيل الثاني الذي بدأت طلائعه تفرض نفسها مع نهاية الثمانينيات، وسوف تصبح لها مكانة خاصة بفضل التطور واكتساب الخبرة مع نهاية التسعينيات، بحيث تتأكد التقاليد العلمية وتتراكم المعرفة التاريخية التي تمثل أساس الرصيد الحضاري وتشكل لحمة الوصل بين بعد الماضي وآفاق المستقبل...

أما التحدي لظهور هذا الرعيل الجديد من مختصي التاريخ، فهو مدى قدرته على النهوض بمستوى البحث التاريخي في إطار المؤسسة الجامعية المختصة والمتمثلة أساساً في معهد التاريخ... ولعل هذا التحدي تكمن الاستجابة الناجحة له في المزيد من الاتقان والتخصص في إطار المعرفة التاريخية ذات البعد الوطني والنزعة

الإنسانية... وهذا ما يدعونا أكثر إلى تطوير هذه المجلة واستنهاض همم الباحثين في مجال التاريخ أن يساهموا فيها بالجديد من أعمالهم - لأنه بدون رفع مستوى المجلة والرقي بها لن تكون إطاراً سيقطب نشاط المختصين بالتاريخ ولا يمكن خدمة المعرفة التاريخية الحقة بل يتحول الإطار الجامعي بمعهد التاريخ في غياب المساهمة التاريخية المنشودة إلى مدرس للمناهج المقررة، ويتخلى عن مهمته الأساسية وهي الحث لتجديد المعلومات وتكوين المفاهيم المرتبطة بالمنطقات الوطنية المتماشية مع الآفاق العالمية والأبعاد الانسانية للمعرفة التاريخية.

عن هيئة التحرير

د. ناصر الدين سعيدوني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

وعيا منا بأهمية مجلة التاريخ للأساتذة الباحثين من أجل إبراز قدراتهم العلمية ونشر نتائج البحث العلمي ليكون في متناول أكبر عدد ممكن من الباحثين والطلبة المثقفين.

لهذا سنعمل مستقبلا، بحول الله تعالى، على اصدار مجلة معهد التاريخ بكيفية دورية، رغم ما يتطلب من شروط معقدة مرتبطة بعملية النشر. ولما يتطلبه الامر، من وسائل مادية وبشرية وكفاءات وإرادات علمية وسنعول على كل أفراد أسرة معهدنا، لبلوغ هذا الهدف النبيل، واننا لمتأكدون أنهم لن يبخلوا بمجهوداتهم، لأنه لا يخفي على أحد أهمية وفائدة نجاح هذه العملية.

وإنا لمتأكدون بأن أعضاء مجلس البحث العلمي، بصفة خاصة، سيبذلون مجهودات معتبرة لأنهم المسؤولون بالدرجة الأولى على نجاح أو فشل هذه العملية، وهم واعون ولاشك، بهذا ومن هنا فإننا على ثقة أن كل واحد منهم سيضحي بالوقت والجهد حتى لا يحكم عليه التاريخ وسيعمل الطاقم الاداري الحالي كل ما في وسعه على توفير كل الامكانيات التي ستطلب منه وسيرحب بكل المبادرات البناءة، ويتحمل مسئوليته كاملة في هذا المجال الا أنه يعرف تماما أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بتعاون الجميع من أجل خدمة المصلحة العامة.

والله ولي التوفيق

د. محمد بن عميرة

أولا:

التاريخ القديم

ثورة فيرموس
372 ـ 375م

محمد الهادي حارش

صعوبات البحث:

تناول موضوع هذه الثورة من الصعوبة بمكان، ذلك أن المصدر الأساسي لهذه الثورة «أميانوس» [1]، اكتفى بتتبع حملة ثيودوز على إفريقيا دون أن يعير أي إهتمام لخلفيات الثورة وأسبابها، إلا عرضاً، أضف إلى ذلك صعوبة تحديد الكثير من المواقع التي أشار لها هذا المؤرخ، وكذا مواضع الشعوب والقبائل التي ساندت فيرموس [2].

الاطار المكاني:

يمكننا القول عموما أن الإطار المكاني، الذي شغلته هذه الثورة يمتد من جيجل ولمباز شرقا إلى قرطنة «تنس» والشلف غربا وأوزيا ومسيلة جنوبا.

أسباب الثورة:

قبل تتبع أحداث هذه الثورة، وفق رواية أميانوس، نشير إلى أن هذا المؤرخ ومعاصريه لم يترددوا في إلقاء مسؤولية هذه الثورة على الكونت «رومانوس»، الذي يتهمونه بالتسبب في جلب هذه المصاعب للإمبراطورية، وفقا لهؤلاء يكون «رومانوس» قد لجأ إلى سياسة التفرقة بين أبناء الملك «نوبل» على أثر وفاته، فساند «زاماك» ضد «فيرموس» فما كان من هذا الأخير إلا أن اغتال «زاماك»، فكان ذلك سبب القطيعة بين «فيرموس» والامبراطورية، على ما يذكر «أميانوس» [3].

قد تكون هذه الرواية حقيقية على ما يذكر «كانيا» [4]، لكن ألا يحق لنا أن

نتساءل ان لم تكن الأوضاع في إفريقيا مواتية للإنتفاضة، وهو ما يؤكده الصراع الديني، الذي قسم إفريقيا إلى معسكرين معاديين: المعسكر الأول من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرسمية، والمعسكر الثاني من الدوناتيين المنشقين الذين اعتبروا «أعداء الأمبراطورية».

كون معظم الدوناتيين من الأهالي، أعطى لهذا الصراع أيضاً طابعاً عرقياً بالإضافة إلى طابعه الديني، فكان الإنشقاق بالنسبة لهم الفرصة المنتظرة للوقوف ضد عبودية تحملوها عن إكراه، وكانت تغذي في أعماق نفوسهم الأمل في خلع النير يوماً ما على ما يرى صاحب إفريقيا المسيحية [5]، فتحالفوا مع فيرموس لهذا الغرض، كما تحالف فيرموس معهم، ففي الوقت الذي يقدمون له جيشا معتبرا كان في أشد الحاجة إليه، وكذا تجنيدا رائعا للأهالي، كان ضروريا لاستمرار وتدعيم الثورة، قدم لهم هو في شخصه قائدا عسكريا كانوا في أشد الحاجة إليه [6]. وبذلك تجمعت على رأي ونكلر، المطالب الدينية ومطالب الإستقلال، وكذا الثأر الشخصي لإثارة هذا الجزء من إفريقيا [7].

رغم الظروف المواتية للثورة، فإن فيرموس لم يسارع في إعلان الحرب إلا بعد عقد تحالفات مع بعض القبائل الموريطانية، وبعد أن لبس الحلة الارجوانية ووضع التاج على ما يذكر أميانوس [8]، وكان الإستيلاء على قيصرية وحرقها [9] ايذانا ببداية هذه الثورة، ولم يتوقف فيرموس عند هذا الحد، بل استولى على ايكوزيوم (الجزائر) ونهبها [10]، كما حاصر تافزة (تيبازة) دون جدوى، واستولى أتباعه على قرطنة (تنس) وخربوها [11]، وبذلك سيطر على كل المنطقة الشرقية من موريطانيا القيصرية وانتشر الخوف والفزع في صفوف الجيش الروماني الذي يفهم من النصوص المعاصرة انضمام فرق منه إلى صفوف فيرموس [12].

أمام هذه الأوضاع سارع الإمبراطور فلانتيانوس إلى إرسال أحسن قادته إلى إفريقيا، الكونت «ثيودوز»، الذي بادر بعد نزوله بجيجل (سنة 372م) إلى إعلان حالة الطوارىء، فأصدر في هذا الشأن قانونا [13]، سمح بموجبه ـ خلافا للقاعدة ـ لأعضاء، ومكاتب (Officium) مختلف الحكومات المدنية والعسكرية بالدخول في الجيش المحارب. وطالب الموجودون في حالة انتداب مؤقت في فيالق الحدود (Numerus) أو في أية فرقة الإلتحاق بفرقهم، إن كانوا قادرين

على حمل السلاح [14]. كما منع منعا باتا إنتداب ولو جندي واحد من خدمته العسكرية لإدارة الحاكم، وهذا سواء في المزاق أو إقليم طرابلس. وهي الأقاليم الواقعة إلى الشرق من المناطق الثائرة. وهذا بعد أن استلم من الكونت «رومانوس» قيادة العمليات وقبل التوجه إلى سطيفيس (سطيف) التي اتخذ منها قاعدة عملياته خلال كل الحملة [15].

يخبرنا أميانوس [16] أن فيرموس بعد أن علم بقدوم ثيودوز، عمل على ربح الوقت، بأن طلب منه السلم، وهو ما لم يرفضه ثيودوز إعتمادا دائما على رواية أميانوس لكن هذا السلم لم يتم، وانتقل ثيودوز إلى بانشاريا [17] (Panchariana) لتفقد فرق إفريقيا، قبل أن يعود إلى سطيف، من حيث يبدأ الحملة بالتوجه نحو توبوسكتو [18] ((Tupusuctu)) على وادي الساحل (الصومام)، وفي هذه المنطقة يصطدم بتندنس (Tyndens) [19] ومسيسنة (Masinissenses) [20] الذين كانوا تحت قيادة شقيقي فيرموس ما قزازال (Maczezel) | وديوس (Dius) اللذين انهزما، واحتلت ممتلكاتهما، وكذا ممتلكات «ساماك» (Sammac) وبيترا [21] (Le fundus de Petra) وحصن لمفوكتس [22] (Oppidum Lamfoctense) الذي اتخذ منه ثيودوز مخزنا للتموين.

في هذه المنطقة تصدى ثيودوز لهجوم آخر قاده شقيق فيرموس «ماقزازال»، وكانت هزيمة هذا الأخير، على ما يذكر أميانوس [23]، وراء إرسال فيرموس لوفد يطلب السلم، قبل أن يقدم هو شخصيا لذلك، لكن اشتراط ثيودوز إطلاق سراح كل المعتقلين وإعادة مدينة «ايكوزيوم» وكذا تقديم بعض أفراد عائلته كرهائن حال دون تحقيق ذلك [24].

انتقل شيودوز إلى «تافزة» (تيبازة) ومنها إلى قيصرية (شرشال) التي تحولت تقريبا إلى رماد، فترك بها الفرقتين الأولى والثانية لرفع الحطام وحماية المنطقة من هجومات أخرى متوقعة [25].

في هذه الأثناء علم «ثيودوز» أن فيرموس بصدد الأعداد لهجوم جديد، وعلى أثر ذلك أسرع ثيودوز إلى زوكابار» (Zuccabar) «مليانة»، حيث وجد فيلقين تابعين لجيش إفريقيا، كانوا قد انحازوا إلى فيرموس [26]، فأعدم من أعدم،

وعرض الباقي للعذاب، وحتى يحرم فيرموس من إمكانيات تجديد الحرب، استولى على (Funduc calonitia) حيث تحصن المور، ومنها تقدم إلى قلعة تنجيتانوم [27] (Castellum tingitanum) حيث هاجم المازيس (Mazices) في جبال انكورايوس [28] (Ancorarius)، دخل بعدها بلاد (Musories) الذين أعلنوا «أعداء الإمبراطورية» ووصل حتى بلدة أدنس [29] (Addense)، لكن هنا وجد نفسه، كما يذكر أميانوس وسط العديد من القبائل، المستعدة لكل تهور، ذات الكره الواضح «للإسم الروماني» بفضل العمل الذي قامت به كيريا (Cyria) شقيقة فيرموس [30]. فاضطر ثيودوز إلى التراجع نحو تيبازا [31] (Tipata) في فيفري 474، بعد فترة قضاها في أراضي مازوكانوس [32] (Fundus Mazucanus)

قضى ثيودوز فترة طويلة في «تيباتا» على ما يذكر أميانوس، محاولا استغلال هذه الفترة بالدسائس، إذ دس أعوانه في صفوف حلفاء فيرموس محاولين التأثير عليهم بالوعد أحيانا والوعيد أخرى، وهي الأساليب التي يتقنها الرومان [33]، وهو ما جعل بعض القبائل تتخلى عن فيرموس [34] لكن مع ذلك واصل الثورة.

لجأ فيرموس إلى جبال كابراريبانس [35] (Caprarienses) وسط منطقة صخرية صعبة المسالك، بعد أن احتل الرومان معسكره وضربوا المنطقة، وقد حاول ثيودوز اللحاق به، لكن فيرموس تراجع تاركا ثيودوز يتقدم وسط بلاد وعرة وقبائل معادية للإسم الروماني، مثل قبيلة آيت عبان [36]، على ما يذكر أميانوس [37]، وهو ما اضطر ثيودوز إلى التراجع والإنسحاب بعد أن فشل في زحزحة هذه القبائل من مواقعها [38].

وصل ثيودوز في تراجعه إلى بلدة كونتسيس [39] (Civitas Coniensis) حيث حرر بعض الاسرى الرومان، في هذه الأثناء لجأ فيرموس وشقيقه «مازوكا» إلى قبيلة ايزافلانس [40] (Isaflenses) حيث دارت معركة حامية بينه وبين ثيودوز، ضمن فيها التفوق العددي، النصر للرومان، ولم ينج فيرموس من المعركة، على ما يذكر أميانوس، إلا بفضل سرعة جواده [41]، بينما وقع شقيقه أسيرا بعد جروح، وتعرضت المنطقة كلها للنهب [42]، من هناك واصل ثيودوز السير حتى اصطدم بالجبالة (Jubaleni) [43]، الذين صدوه، وتراجع

نحو حصن أوديانس [44] (Castellum audiense)، حيث تلقى خضوع قبيلة يزالنس [45] (Jasalenses) التي تعهدت بتقديم المساعدات العسكرية والمؤونة للرومان [46].

هذه الإنتصارات لم تضع حدا لثورة فيرموس، الذي كان يكفي ظهوره في منطقة ما، لتشتعل الثورة من جديد على ما يذكر أميانوس دائما. وهو ما اضطر ثيودوز إلى إقامة معسكره قرب «قلعة ميديانوم» [47] (Castellum Medianum)، حيث حاول ربح سكانها لكن دون جدوى.

عاد فيرموس إلى قبيلة إيزافلانس، أثناء وجود ثيودوز في برج مجانة، وهو ما دفع هذا الأخير إلى محاولة غزو أراضيهم، حيث دارت معركة كبيرة كان النصر فيها حليف فيرموس، وعندما حاول ثيودوز التراجع تعرض أيضا لضربات قبيلة يزالنس، التي كانت قد تعهدت بتقديم العون للرومان، مما اضطر ثيودوز إلى الإنسحاب نحو سطيف [48].

عاد ثيودور إلى سطيف، بعد أن اجتاز موريطانيا القيصرية لكن دون أن يحقق نتيجة حاسمة، إذ استمرت الحرب، واستمر إرتباط المور الراسخ بفيرموس [49]، وهو الإرتباط الذي كان كافيا لاستمرار الثورة وهو ما يخشاه ثيودوز الذي لجأ إلى سلاح الخيانة بعد عودته لمحاربة قبيلة إيزافلانس، إذ تمكن من إقناع أمير هذه القبيلة إقازن (Igmazen) بضرورة التخلي عن فيرموس، فقاد إقازن قبيلته إلى معارك خاسرة كما ينص على ذلك الإتفاق، تفطن فيرموس إلى اللعبة، بعد فوات الأوان مما دفع به إلى الإنتحار، حتى لا يقع في يد الأعداء [50].

تلك هي نهاية فيرموس، الذي قاد القبائل الإفريقية في حرب دامت أربع سنوات، لم يتمكن خلالها الرومان من دحره في ميدان المعركة، فلجأوا كعادتهم إلى سلاح الخيانة الذي فعل ما عجز السلاح عن فعله.

الجزائر في 12 / 1989/9

الهوامش:

(1) Ammien Marcellin, Hist. Rom., XXIX, 2-55

(2) ومما يزيد في هذه الصعوبة، تعلق الأمر بوضع خريطة.

(3) Ammien Marcellin, Hist. Rom., XXIX, 2-3

(4) Cagnat (E.), Armée Romaine d'Afrique, P. 78.

(5) Cf. Dom. H. Leclercq, l'Afrique chretienne, P. 372.

(6) هذا الإتحاد بين فيرموس والدوناتيين يكشف عنه خاصة القديس أغسطين في بعض نصوصه، أنظر خاصة: Epist, LXXXVII, Contrá lih petiliani, Ii, 83, in parmeniani, 1–10

(7) Cf. Winkler, Precis d'histoire des campagnes d'Afrique de Theodose contre Firmus (372- 375), in R. Tunisienne, t. 15, 1908; P. 137.

(8) Ammien Marcellin, Hist. Rom., XXIX, 3; 48-49; Zosime, IV, 16,

(9) Orose (Paul), Histoire, VII, 33, 5

(10) Symnaque, Epist, I 56.

(11) August, Contra epist. Parmenioni, I. 10, 16 et II, 17, contia Litteras peliliani, II, 83, 184.

(12) Ammien Marcellin, Hist. Rom., XXIX.

(13) Code Theodose, VIII, 7. 12, 13.

(14) Cf. Cagnet (R.), Armée romaine d'Afrique, P. 81

(15) Cf. Dom. H. Leclercq, op.cit, P. 374.

(16) Ammien Marcellin, Hist. Rom. XXIX.

(17) رغم إختلاف المؤرخين في تحديد هذا الموقع غير أن كانيا وونكلر يميلان إلى وجودها على طريق لمباز، أنظر كانيا، المرجع السابق، ص 83، وونكلر، ص 138.

(18) هي مدينة «تكلات» على بعد حوالي 15 كلم إلى الجنوب الغربي من مدينة بجاية الحالية.

(19) يرى بول وبيربريقر أن هذه الشعوب تقطن حاليا مناطق (أفنايين وبني وغليس وآيت عامر «المنطقة المتاخمة لمدينة سيدي عيش». حول هذا الموضوع أنظر:
Poulle, Inscriptions de constantino et la province, in rec. de Constantine, t. 13, 1869, P. 706, et Berbrugger, Epoques militaires de la grande-Kabylie, P. 222.

(20) إمسيسن قبيلة تقطن في المثلث المكوّن من وادي الساحل ورافده الشرقي وادي أقبو، أنظر:
Carette, Etudes sur la Kabylie, P. 374, Tissot, Géographie comparée de l'Afrique, I, P. 452.

(21) تقع ممتلكات «بيترا» في منطقة ملاكو (M'lakou) على بعد 25 كلم إلى الجنوب الغربي من تكلات، وهو ما يدل عليه نقش عثر عليه في هذه المنطقة، ويفهم من النقش أيضاً أنه من انشاء ساماك، أنظر:
Gsell (S.); Inseription d'Ighser amokrane (Kabylie), Comptes rendus de l'Académie des in-seriptiens et belles lettres, 1901, P. 170 et suiv.

(22) موقع لم نتمكن من تحديده، غير أن بول يحاول تحديد ذلك بآثار مسناوا (Mesnaoua) عند بني وغليس، على نهر عمنوا (Amnoua) على قرب قرية بومليل، أنظر: (Poule)

(23) Loc, cit, XXIX

(24) Cf. Cagnat (R.); op.cit p. 84.

(25) Cf. Winkler; op.cit, p. 139.

(26) يتعلق الأمر هنا بالفرقة الرابعة لرماة النبال (Sagittarii) وفرقة فلافيا ويكتريكس أنظر المرجع السابق ص 140.(Flavia victtrix constantina)

(27) مدينة الشلف الحالية، أنظر:
Gsell (S.), Atlas archéologique de l'Algérie, pl. I2 N° 174.

(28) هي جبال الورسنيس وفق رأي لكروا وكات، أنظر
Lacroix (F.) Nunidie et Mauritanie, P. 87, Cat. Essai sur la province romaine de Mauritanie cesarienne, P. 21.

(29) موقع غير معروف ربما على السفح الجنوبي لجبل الورسنيس، ونكلر، المرجع السابق، ص. 140.

(30) أميانوس، المرجع السابق.

(31) يرى كثير من المؤرخين ضرورة تصحيح «تيبازة» من بين هؤلاء: قزال الذي يرى أن تيبازة الزاهرة آنذاك كان بإمكانها أن تكون نقطة إرتكاز للجيش الروماني. أنظر:
Gsell (S.), observations géographiques sur la revolte de firmus in Rec. de Constantine, t. 36, (1903), p.37.

(32) لم يتمكن المؤرخون من تحديد هذا الموقع، ويرى ديلامال، أنه يجب البحث عنه بين تيبازة وأوزيا، وقد لاحظ أن أحد أشقاء فيرموس يحمل إسم مازوكا (Mazuca) وأن هذه الممتلكات تابعة له بينما قال مرسيي أنه داور مازونة (Douar-Mazouna) على الطريق الروماني بين الشلف وسيدي بوراس. ويرى قزال أيضا أن مازوكا هذا كان يسكن (Tigava) وهو ما كان في نظره دليلا كافيا لتكون ممتلكات هذا الأمير في منطقة الشلف. أنظر: Gsell, observations géog. (op.cit), p. 22-23 et 32.

(33) Cf. cagnat (S.), op.cit, p.86.

(34) Ibid, Winkler, op.cit, p.142.

(35) مكان غير محدد، لكن بعض المؤرخين يرون أن فيرموس لجأ إلى قبائل آيت عبان (Abani) أو (Abennae)، التي تسكن السفوح الشمالية الغربية لمسيلة، قرب شط الحضنة. أنظر: ونكلر، المرجع السابق، قزال، ملاحظات جغرافية... ص 40.

(36) يسكنون المنطقة الجبلية إلى الشمال الغربي من المسيلة وفق وجهة نظر نيسو، الجغرافية المقارنة. الجزء الأول، ص 465.

(37) Ammien Marcellin, loc, cit.

(38) Winkler, loc. cit.

(39) يرى ونكلر إمكانية وضع هذه البلدة على ضفاف وادي يسر إلى الشمال من معسكر أوزيا (Castra ausia)

(40) في السبول الجنوبية من جبال جرجرة، أنظر: كانيا، المرجع السابق، ص 88 رقم 2.

(41) تكررت هذه الفكرة أكثر من مرّة عند المؤرخين القدامى، وهو ما يجعلنا نعتبرها من الأغراض التاريخية.

(42) Winkler, loc.cit

(43) يرى قزال أن موطن هذه القبائل الجبلية غير بعيد عن أوزيا وعليه تكون هذه القبائل ـ وفق وجهة نظر قزال ـ تقطن في المنطقة الممتدة بين باب الحديد ومضايق الأخضرية، وهي المنطقة التي تستجيب لأوصاف أميانوس. أنظر قزال، ملاحظات جغرافيا... ص 26.

خلافا لكانيا، الذي يرى أن هذه القبائل كانت تقطن جبال الأطلس إلى الجنوب من التيطري.

(44) يقترح كانيا تصحيح أوزيانيس أي حصن أوزيا على أساس أن «ر» «و» تتداخل عادة في المنطق والتعابير الإفريقية. أنظر: كانيا، المرجع السابق، ص 88 رقم 4.

بينما يرى بيربريقر أنها قلعة مازالت آثارها في القرن الماضي قرب عين بسام، ذلك أن أوزيا من وجهة نظره تكون قد تهدمت على أثر ثورة 297م. أنظر: بيربريقر، المرجع السابق ص 225.

(45) قبيلة أولاد عيسى في منطقة التيطري على ما يرى دي لامال، المرجع السابق، ص 64، بينما يرى قزال ضرورة وضعهم كايزافلانس في منطقة أوزيا، قزال، ملاحظات جغرافية، ص 42.

(47) برج مجانة.

(48) Cf. Cagnat (R.), op.cit, p.89

(49) Winkler (A.); op.cit, p.144

(50) Ibid; p.145.

معاهدة زامـا (201 ق.م)

د. تسعديت رمضان

يرى البعض أن معاهدة زاما 201 ق.م كانت وراء المصير الذي آلت إليه قرطاجة سنة 146 ق.م، ولإدراك هذه الحقيقة يجب التطرق إلى:

ـ الظروف التي انعقدت فيها المعاهدة.

ـ بنود المعاهدة.

ـ تحليل بنود المعاهدة مع تبيان كيفية تأثيرها على مصير قرطاجة.

1 ـ ظروف عقد معاهدة زاما سنة 201 قم: معاهدة زاما كانت نتيجة الصراع القرطاجي ـ الروماني الطويل، الذي أذاق فيه حنبعل للرومان الأمرين، ووجه لروما ضربات لم تعرف لها مثيل في حياتها على ما يذكر سالستيوس [1]. فبعد أن كانت روما تخطط لتسمير حنبعل في إسبانيا بعد احتلاله لمدينة صاغنتة سنة 219ق.م، بتوجيه قوات إلى إفريقيا بقيادة تبيريوس سميرونيس لونجوس (T. Sempromius longus)بينما يقوم بوبليوس كورنيليوس سكيبيو (P. Cornelius Scipio) بمهاجمة آل برقة في إسبانيا [2]، ويمنع بالتالي حنبعل من التحرك لنجدة قرطاجة **أو العبور إلى إيطاليا، إذا افترضنا** أن أعداءه كانوا على علم بنواياه [3].

لكن يبدو أن الرومان لم يقدروا حنبعل حق قدره، وكان قد دبر بدوره وسمّر فعلاً القوات الرومانية بإيطاليا باجتيازه جبال الألب ونقل ميدان الحرب إلى الشبه الجزيرة الإيطالية، وكان يكفي انتصاره في معركة تيسينو ((Téssin)) أمام سكيبيو، لاستدعاء زميل هذا الأخير للإلتحاق به والتخلي بالتالي على مشروع

الحملة على إفريقيا، لكن سميرونيوس انهزم بدوره في معركة تربيه (Trébie) ، مما زاد الأخطار التي تواجه روما، خاصة بعد انتصار حنبعل في كانه (Cannae) في الثاني أغسطس 216 ق.ك، التي طوّق فيها القوات الرومانية المقدرة بثمانين ألفا (80.000) من المشاة وستة آلاف (6000) فارس، وأبادها عن آخرها [4] ، مما أثار مدن وشعوب وسط وجنوب إيطاليا على روما [5] .

كان من الطبيعي أن تلجأ روما بكل الوسائل لدراء هذا الخطر بدءا من اجتناب الإشتباك مع حنبعل في معارك منظمة ومحاولة منع المؤونة والنجدات عنه وصولا إلى فكرة نقل الحرب إلى إفريقيا التي جسدها بوبليوس كورنيليوس سكيبيو الذي استحق بعد ذلك لقب «الإفريقي».

بنقل ميدان الحرب إلى إفريقيا، انقلبت الموازين، ففي الوقت الذي ظل فيه حنبعل معزولا في البروتيوم جنوب إيطاليا، كان سكيبيو الذي نزل قرب أوتيكا سنة 204 ق.م يتقدم في الأراضي القرطاجية، وهزم في أبريل سنة 203 ق.م الجيش القرطاجي وسيفاكس في السهول الكبرى (Campi-Magni) والقبض على هذا الأخير في جوان من نفس السنة. وبذلك أصبح سيد المناطق الداخلية ويعوق تموين مدينة قرطاجة [6] ، مما كان وراء طلب هذه الأخيرة من حنبعل العودة للدفاع عن وطنه، بعد أن شعرت بحاجتها لكل قواها [7] .

في إنتظار عودة حنبعل، شرع القرطاجيون في التفاوض مع سكيبيو الذي وجد في ذلك مجدا يجنبه حصارا طويلا وأخطار معركة ضد حنبعل، واشترط على الوفد القرطاجي شروطا قاسية:

1 ـ إطلاق سراح الأسرى وإعادة جميع الفارين.

2 ـ إخلاء إيطاليا وغالة والجزر الواقعة بين إيطاليا وإفريقيا، والتنازل عن إسبانيا.

3 ـ تسليم جميع وحدات أسطولها ماعدا عشرين (20).

4 ـ دفع غرامة حربية تقدر بـ 5.000 وزنة أوبية من الفضة.

5 ـ تموين الجيش الروماني حتى اقرار المعاهدة [8] .

رغم أن قرطاجة قبلت هذه الشروط التي لا تجعل منها أكثر من قوة إفريقية، ووجهت سفارة إلى روما للمصادقة على المعاهدة، لكن دسائس خصوم سكيبيو في روما عطل المفاوضات، وعودة حنبعل جعلت الغلبة في قرطاجة لدعاة الحرب وكان

الإعتداء على قافلة تموين رومانية سببا في استئناف الحرب [9] .

نزل حنبعل بلمطة في صائفة 203 ق.م، ثم توجه إلى حضرموت التي أعدّ بها العدة للمعركة الفاصلة 19 أكتوبر 202 ق.م [10] ، حيث انهزم وفقد في المعركة أزيد من عشرين ألف قتيل وعدد مماثل من الأسرى [11] ، مما اضطر قرطاجة إلى القبول بشروط المعاهدة التي لا تنهي وجودها كقوة بحرية في البحر المتوسط فحسب، بل حتى كدولة سيدة على أراضيها في إفريقيا ذاتها [12] .

2 ـ بنود معاهدة زاما 201 ق.م:

1 ـ تحتفظ قرطاجة باستقلالها وممتلكاتها في إفريقيا.

2 ـ تسليم كافة الفارين والأسرى.

(3) أن تسلم ما تملكه من سفن، باستثناء عشر سفن ثلاثية، وتسلم كافة أفيالها مع التحجير عليها ترويض أفيال أخرى في المستقبل.

4 ـ ألا تثير حربا خارج إفريقيا أو داخلها دون إذن من روما.

5 ـ أن تعيد لمسينيسا كل ممتلكاته وممتلكات أسلافه.

6 ـ أن تمد قرطاجة جيش روما بالمؤون والأجور حتى تتم المصادقة على المعاهدة.

7 ـ تدفع غرامة حربية تبلغ عشرة آلاف (10.000) وزنة أوبية من الفضة، تدفع أقساطا موزعة على خمسين سنة (أي 200 وزنة أوبية في كل عام).

8 ـ تسلم مائة (100) رهينة، يختارها القائد من البالغين ما بين 14 ـ 30 سنة كضمان لتنفيذ بنود المعاهدة [13] .

3 ـ تحليل بنود المعاهدة: رغم بعض الاختلاف الظاهري (الشكلي) الذي يبدو على بنودالمعاهدة بمقارنة نص بوليبيوس مع نص تيتوس ليفيوس، لكن النصين يتفقان في الجوهر ما عدا بعض التفاصيل، والديباجة الطويلة نسبيا في نص بوليبيوس.

وإذا حاولنا إلقاء نظرة فاحصة على بنود المعاهدة عموما يمكننا تقسيمها إلى صنفين من البنود بعد البند الأول الذي يمكننا إعتباره بمثابة ديباجة تنص على احتفاظ قرطاجة باستقلالها وبممتلكاتها في إفريقيا نجد:

أ ـ الصنف الأول: هي البنود التي ترمي إلى أضعاف قرطاجة والحد من قوتها وأذلالها على المديين القريب والمتوسط وهي بنود: 2، 3، 6، 7، 8.

ب ـ الصنف الثاني: هما البندان 4، 5. فإذا كان البند الرابع يحد صراحة من استقلال قرطاجة في اتخاذ القرارات الحاسمة، وينص بشكل جلي على تدخل روما في سياستها وبذلك تنتهي قرطاجة كقوة كبرى في البحر المتوسط، وتتحول من الآن فصاعدا إلى مدينة تابعة لروما، احتفظت بأراضيها في إفريقيا، لكنها ليست سيدة سياستها الخارجية، وبذلك تفقد حق المبادرة التي لا تسمح لها بالعودة بقوة إلى مسرح الأحداث مثلما حدث بعد الحرب البونية الأولى (264 ـ 241 ق.م)، لكنها احتفظت آنذاك بإسبانيا ومناجم الفضة التي ستسمح لها ببناء اقتصادها بسرعة، وتعود كقوة بعد أقل من عقدين من الزمن، فإن معاهدة زاما جاءت بعد فقدان قرطاجة لكل نفوذها ومصالحها خارج إفريقيا، وأثارت هذه المعاهدة ضدها منافسا حتى في إفريقيا ذاتها. وهو ما ينص عليه البند الخامس: «أن يعيد القرطاجيون إلى ماسينيسا كل ما كان يملكه هو وأسلافه من أراضي ومدن [14]... الخ» وكان لماسينيسا وفق تعبير جوليان [15] أمهر من يهمل استغلال هذه الفرصة، وبما أنه يمكن له المطالبة بما قد ملكه أسلافه من تراب قرطاجة، فقد كانت ذاكرته وفق تعبير نفس المؤرخ تكتشف له حقوقا قد جهلها هؤلاء الأسلاف [16].

لم يكتف ماسينيسا باسترجاع مملكة الماسيل إلى الغرب من الأراضي القرطاجية لكنه عمل بعد ذلك على استرداد وتوحيد كامل الأراضي النوميدية قبل الشروع منذ سنة 193ق.م في التوسع على حساب الأراضي القرطاجية، إذ استغل فرار المتمرد «افتير» إلى طرابلس ليطلب من القرطاجيين السماح له ملاحقته عبر أراضيها. وكان رفض قرطاجة وراء احتلال الملك لجزء من إقليم امبوريا وفرض الضرائب على سكان المنطقة [17].

ـ في سنة 182 ق.م يقوم ماسينيسا بمحاولة أخرى لاسترجاع أراضي كان والده قد انتزعها من القرطاجيين وأعادها لهم سيفاكس.

ـ في سنة 174 ـ 172 ق.م استغل ماسينيسا ظروف الاستعداد للحرب المقدونية الثالثة (171 ـ 168 ق.م) في افتكاك من القرطاجيين حوالي سبعين مدينة وقلعة [19].

ـ في سنة 162 ق.م استغل ماسينيسا المساعدات التي قدّمها للرومان في الحرب المقدونية الثالثة، وكشفه لمفاوضات سرية بين قرطاجة والملك بيرسية (Persée) في إكمال سيطرته على إقليم امبوريا [20].

ـ في سنة 153 ق.م، أتى دور السهول الكبرى (Campi magni) التي كانت خيرتها تغري الملك منذ مدة، مستغلا في ذلك انشغال روما في حروبها الإسبانية، وكان احتجاج قرطاجة هذه المرّة شديدا مما تسبب في قدوم وفد من مجلس الشيوخ الروماني للنظر في القضية برئاسة «كاتون» الذي رفع لاحقا شعار تهديم قرطاجة (Delenda est carthago)

وكانت الأحداث الجارية التي توالت بعد سنة 150 ق.م على أثر انتصار ماسينيسا على مرأي سكيبيو وراء التدخل الروماني في الأحداث الجارية في المنطقة، بدعوى خرق قرطاجة لبند من بنود معاهدة زاما التي تحظر عليها إعلان الحرب في إفريقيا أو خارجها إلاّ بإذن من روما [21]. وهكذا كان التدخل الروماني سنة 149ق.م وراء المصير الذي آلت إليه قرطاجة سنة 146ق.م.

الهوامش:

(1) سالوستيوس، حرب يوغرطة، 5

(2) Polybius, III, 4, 61; Titus Livius, XXI, 171; Zonaras, VIII, 22.

(3) وفقا لبوليبوس (III ، 40) كان الرومان على عدم علم بعبور حنبعل نهر الابرو عندما قرروا إرسال قوات إلى إسبانيا.

(4) حول هذه المعركة وخسائر الظرف الروماني فيها أنظر محمد الهادي خارش، حملة حنبعل على إيطاليا، مجلة الدراسات التاريخية العدد 6.

(5) نفسه.

(6) Combet Farnoux (B.) Les guerres puniques ed. PUF (Coll. que sais-je), (paris 1960) p.99

(7) محمد الهادي حارش، نفس المرجع السابق.

(8) Combet Farnoux (B.); op.cit, pp.99-100.

(9) Decret (F.) Carthage ou l'empire de la mer, ed. seuil (coll. le point) (paris 1977)), p.215.

(10) Winkler (A.); Bataille de Zama (19 oct. 202 av.JC.), in B.S.G.O., t.16 (janv. mars 1894), pp. 17-46.

(11) Polybius, XV, 14; Appien, VIII, 48 25.000 tués et 8,500 prisonniers.

(12) Combet Farnoux (B.à; op.cit; p. 101.

(13) حول بنود هذه المعاهدة أنظر، بوليبيوس XV 18، تيتوس ليفيوس، XXX ، 37، 2، 6.

(14) اعتمادا على صياغة بوليبيوس.

(15) جوليان (شارل أندري)، تاريخ افريقيا الشمالية (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من البدء إلى الفتح الإسلامي 647م (جزءان)، تعريب محمد مزالي ـ البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر. (تونس 1969)، ج 1، ص 140.

(16) نفسه.

(17) Saumagne (CR); Pretextes juridiques de la 3eme guerre punique, Revue historique, t. 167, (1931), p.238.

(18) Ibid; p. 241.

(19) جوليان (شارل أندري)، المرجع السابق، ص 140.

(20) تيتوس ليفيوس، LIII، X، 3.

(21) للمزيد من التفاصيل، أنظر حارش محمد الهادي، التطور السياسي والإقتصادي في نوميديا منذ اعتلاء ماسينيسا العرش إلى وفاة يوبا الأول (203. 46 ق.م) رسالة ماجستير، (جامعة الجزائر 1985، ص 21 ـ 26)

ثانيا:

التاريخ الوسيط

ابن خلـــدون المـؤرخ

د. عبد الحميد حاجيـات

لقد كثر إهتمام الباحثين بفكر عبد الرحمن ابن خلدون، خلال العقود الأخيرة، بقدر ما برزت شخصيته الغنية، ولفتت الأنظار نظرياته العميقة في مجالات علمية عديدة، لا تقتصر على علم الإجتماع، بل تمتد إلى الفلسفة والاقتصاد والتاريخ والجغرافية والسياسة والتربية وغير ذلك. وإذا كانت مساهمة ابن خلدون في تأسيس علم الإجتماع قد نالت حظ الأسد من الدراسات العلمية، فإن آراءه في غير ذلك من المجالات جديرة بأن تحظى ببعض العناية، إذ أنها كلها تعكس لمحات فكره النيِّرة، وتنم عن منهج علمي بفرض التقدير والإعجاب.

وممّا يلفت النظر نظرية ابن خلدون في التاريخ، وموقفه من المؤرخين الذين سبقوه، وطريقة معالجته للمعطيات التاريخية التي جمعوها وأوردوها في مؤلفاتهم. فإن اهتمام ابن خلدون بالتاريخ رغم أنه لم يظهر إلاّ في فترة متأخرة نسبياً من حياة، ـ إبتداء من سنة 776 هـ /1377م ـ اتخذ شكلاً بالغ الأهمية، حيث إنه سيطر على انشغالاته الفكرية منذ ذلك العهد وإلى آخر حياته، وأدَّى إلى تأليفه لكتابه الشهير المسمى كتاب العبر.

ومن المعلوم لدى الجميع أن التاريخ يحتل مكانه خاصّة في الفكر الخلدوني. فهو يشكل نقطة انطلاق نظرياته التي شملت مجالات شتَّى اعتبرها صاحبها علوماً مساعدة للتاريخ، وضمّنها مقدمة كتاب العبر التي ذاع صيتها وأطلق عليها عنوان: مقدمة ابن خلدون. وقد ذكر في بداية كتابه أن أغلب من سبقه من المؤرخين قد ركنوا إلى التقليد والنقل، ولم يبذلوا أيَّ مجهود من أجل تفهُّم التطوّرات السياسية والحضارية التي مرّت بها الأمم والدول، وأنه ألَّف هذا الكتاب لحث القارىء على

ترك التقليد. وم
أحوال الناشئة
وسلكت في ترتي
وطريقةً مبتدعة
الإجتماع الإنساني
كيف دخل أهل
قبلك من الأيام
وذلك أن
كتابة التاريخ. ف
شأنهم في ذلك
من أخبار قد يقب
ما وقع للمؤرخير
فيها على مجرَّد النق
سبروها بمعيار ا
الأخبار، فصلُّوا
من الأموال والع
الهذر، ولابدَّ مز
فابن خلدو
بضرورة نقد المص
الأصول والقواعا
وطبائع الكائنات
المرويّة أو إستحال
التاريخية بما أمكر
الحوادث وغاياتا
الثابتة.
ويترتَّب ع
تأدية مهمَّته، وبـ

ويضيف ابن خلدون أن هذا الإلتحام، الذي يرمز إليه مفهوم العصبية، يلعب دوراً رئيسياً في الحصول على السلطة. وذلك أن بني آدم يحتاجون بطبيعتهم «إلى وازع يزعُ بعضهم عن بعض، فلابدَّ أن يكون متغلِّباً عليهم بتلك العصبية»[5]، فتكون هذه أداة للتغلب ولفرض السلطة. وقد عبّر ابن خلدون عن منصب صاحب السلطة القائم بتدبير شؤون الناس بمصطلح «المُلْك» فقال بأن «الملك غاية للعصبية» وأنه «غاية لكل مجد ونهايةٌ لكل حسب».[6]

وقد شرح ابن خلدون ذلك، فذكر أن السلطة لا تحصل إلاّ بالعصبيَّات، غير أن هذه متفاوتة من حيث النفوذ والقوة، إذ أن كلّ عصبية «لها تحكّم وتغلّب على من يليها من قومها وعشيرها»[7]، ثم يردف قائلاً: «وليس الملك لكلّ عصبيّة، وإنما الملك على الحقيقة فوق يده يد قاهرة، وهذا معنى الملك وحقيقته في المشهور... ومَن قَصَرتْ به عصبيته... عن الإستيلاء على جميع العصبيات، والضرب على سائر الأيدي، وكان فوقه حكم غيره، فهو... مُلْك ناقص لم تتم حقيقته»[8].

وهكذا، فالتنافس من أجل الحصول على الملك، بين مختلف العصبيات المتواجدة في كل قطر من الأقطار، أمر طبيعي، إلاّ أن المُلْك لا يناله إلاّ من فرض سيطرته على الآخرين، ولم يخضع لأي حكم في أي جانب من جوانب السلطة، غير أن ابن خلدون يلاحظ أن الملك يختلف حسب الغاية التي يسعى إلى تحقيقها، والسياسة التي يطبقها، ويمكن إرجاعه إلى أحد أنواع ثلاثة، فقد يكون قائماً على حمل الناس «على مقتضى الغرض والشهوة» المفضي إلى التغلّب والقهر والجَوْر والعدوان، وهو الملك الطبيعيُّ، فإذا اعتُمِد في الحكم «على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضارّ» ممّا يتوصل إليه العقلاء وأكابر الدولة، فإنه يؤدي إلى سنّ قوانين تضمن صلاح الدنيا، عن طريق السياسة العقلية، وهو المُلْك السياسي، أمّا إذا كان قائماً على «حمل الكافَّة على مقتضى النظر الشرعيّ في مصالحهم الأخرية والدنيوية الراجعة إليها»، حسبما جاء في الشريعة الإلهية التي أرسل لتبليغها الأنبياء وأسند القيام بتطبيقها إلى الخلفاء، وهو نظام الخلافة.[9]

ويترتّب عن هذا كلّه أن الخلافة تشكّل أفضل أنواع السلطة مادامت شروط قيامها متوفرة. لكنَّ ذلك لم يتأتَ إلاّ في فترات قليلة وبخاصة أيام الخلفاء الراشدين. ثم قامت عصبيات مختلفة تحاول الانفراد بالسلطة عن طريق التغلب والقهر، وأخذ

المُلْك يسند إلى رجال تنقصهم بعض شروط الخلافة، وعندئذ انتقل نظام السلطة من الخلافة «إلى الملك»، ويرى ابن خلدون أن ذلك «أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها»[10]، كما أنه يعتقد أن اشتراط النسب القرشي في هذا المنصب كان راجعاً قبل كل شيء إلى المصلحة المتمثلة في قدرة قريش آنذاك، على حماية وحدة المسلمين، و«سَوْق الناس بعصا الغَلَب إلى ما يُراد منهم، فلا يُخْشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة»[11] وأن الأمر تغيَّر عندما «اضمحلَّ أمر الخلافة، وتلاشت عصبية العرب» وصار في زمانه «يُخضُّ... كلُّ قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة»[12].

والذي ينبغي التأكيد عليه في هذا الصدد، هو أن عبد الرحمن ابن خلدون وضع نظرية العصبية هذه من خلال دراسته للواقع ومشاهدته للأوضاع السياسية والإجتماعية التي كانت سائدة في بلدان المغرب في عصره، أثناء تقلّبه في مختلف أنحائه، وخاصة في المغرب الأوسط، حيث تبلورت آراؤه ونظرياته الجوهرية أيام إقامته بقلعة ابن سلامة في حماية سويد من عرب زغبة، فهو عندما يتحدث عن العصبيات المتواجدة في الدولة، يقصد بوجه خاصّ قبائل زناتة، من بني مرين وبني عبد الواد وبني توجين وغيرهم، التي كانت تتنافس على السلطة في بعض أقطار المغرب، وقامت على حركاتها دولة بني مرين، والدولة الزيانية. كما أنه، عندما يتحدَّث عن العرب، في فصول عديدة من المقدمة، يعني بشكل خاص الدواودة، من رياح وسويد من زغبة، وغيرهم من القبائل التي عرفها جيداً، وقضى سنواتٍ من حياته في جوارها[13].

كما ينبغي أن نؤكِّد على الأهمية التي أولاها عبد الرحمن ابن خلدون، في كتابه، لبلاد المغرب، حتى أنه يبدو من بعض تصريحاته أن كتابه كان، في أول الأمر يقتصر على تاريخ أقطار المغرب الإسلامي دون غيرها من أقطار العالم، فهو يقول: «فأنشأت في التاريخ كتاباً... بنيته على أخبار الأمم الذين غمروا المغرب في هذه الأعصار، وملأوا أكناف النواحي منه والأمصار، وما كان لهم من الدول الطوال أو القصار، ومن سَلَف من الملوك والأنصار، وهم العرب والبربر، إذ هما الجيلان اللذان عُرِف بالمغرب مأواها، وطال فيه على الأحقاب مثواهما حتى لا يكاد يُتَصوَّر فيه ما عداهما، ولا يعرف أهله من أجيال الآدميين سواهما»[14].

وعلى هذا، يمكن الاعتقاد بأنّ ما ورد من القواعد والقوانين في المقدمة، على

صورة التعميم، موجّه تارة نحو الدراسة العامة لمختلف أقطار العالم، وتارة أخرى نحو دراسة أوضاع بلاد المغرب بصفة خاصة. ولاشك أن مراعاة هذه الإعتبارات قد تمكّن من إزالة ما يبدو على بعض النقاط من تناقض أو غموض.

هذا وقد عالج ابن خلدون مختلف الأحوال التي تعْرض للدولة خلال تطورها، محلّلاً أسباب التحولات الطارئة ودور العصبية في ذلك. فذكر «أن الدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص» وأنها «في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال»[15]، أي حوالي مائة وعشرين سنة، كل جيل يمثّل طوراً من أطوار النموّ، من طفولة وكهولة وهَرَم. إلاّ أنّ أعمار الدول تتفاوت حسب قوّة عصبيتها ووَفرة أنصارها، ويتوقف «اتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلّة والكثرة»[16]. وهكذا، فقوّة العصبية تزيد الدولة إتساعاً ونمواً وازدهاراً، وضعفها يسبّب انحطاط الدولة وهرمها، بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل الترف والدعة والسكون، وكل ما ينشأ عن الانغماس في النعيم والاستقرار في الحكم والسلطة.

فهذا العرض الموجز، حول نظرية العصبية كأداة للحصول على السلطة وإرساء دعائمها، والدفاع عن حوزتها، يشكّل أحد الجوانب الهامّة للفكر الخلدوني، التي تشهد على عبقرية صاحبها ومنهجيته العلمية القائمة على التنظير والتحليل والتعليل المنطقي المبني على التجربة، وتحمل طابع الحداثة والتجديد إلى حدّ بعيد لم يشهده عصره عند عالم آخر. ولا شكّ أنّ ما وضعه عبد الرحمن بن خلدون من قوانين وقواعد يساعد على جعل الأخبار التاريخية في إطارها الحقيقي، وتصوّرها ضمن الأوضاع الملائمة لها، ويمكّن من تسليط الأضواء عليها وتقييمها والتعرّف على عِللها وغاياتها، إذ أنّ هذه الأوضاع تختلف من طور لآخر بقدر ما تختلف الظروف المحيطة بها، فنفس الحادث لا يظهر بنفس المظهر إذا جرى في طور النشأة أو في عهد الإزدهار أو أيام انحطاط الدولة.

وهناك إشكال يخصّ علاقة عبد الرحمن ابن خلدون بعصره، أعرب عنه أحد الباحثين بعبارة «انفراد» ابن خلدون (Solitude)[17]، مشيراً بذلك إلى أن صاحب «المقدمة» لم يستمد شيئاً من نظرياته وفكره عن علماء عصره وعمّن سبقه من المفكّرين، ولم يكن له أي تأثير في الأجيال اللاحقة، ويبدو أن هذه الفكرة ناتجة إمّا عن تجاهل للأوضاع الثقافية التي كانت سائدة بالمغرب الإسلامي في القرن

الثامن الهجري الرابع عشر للميلاد، وإمّا عن احتقار وازدراء للفكر الإسلامي، ومحاولة فصل عبد الرحمن بن خلدون عن الثقافة المغربية الإسلامية التي نشأ وترعرع في أحضانها، وعن الأدّعاء بأنّ هذه الثقافة لم يكن لها أيّ تأثير في بلورة الفكر الخلدوني، وإنها كانت في طور انحطاط لم يسمح لها بتكوين عالم مبدع، يرجع إليه الفضل في تأسيس علم جديد.

والسؤال المطروح إذن يتعلّق بمستوى الحياة الثقافية في بلدان المغرب في ذلك العصر، وبمدى تأثّر عبد الرحمن ابن خلدون بثقافة معاصريه. ولا شكّ أن دراسة هذا الموضوع بتعمّق وتفصيل تتطلّب بحثاً طويلاً وشاقاً، لم ينجز منه إلاّ القليل النادر، حيث أنه لم يلتفت إلى تجشّم مشاق التنقيب في هذا المجال إلاّ عدد ضئيل من الباحثين، لا يكادون يتجاوزون عدد أصابع اليد. غير أن ما يمكن استنتاجه من الدراسات التي تمّ نشرها إلى يومنا هذا، يؤكد بصورة لا تقبل شكاً أو تردداً، أنه من الخطأ أن نعتقد أن عصر ابن خلدون كان عهد انحطاط في المجال الثقافي بالمغرب الإسلامي

بلْ يمكن القول إن الثقافة المغربية في القرن الثامن الهجري الرابع عشر للميلاد كانتْ لا تزال في فترة نموٍّ وازدهارٍ، كما يبدو ذلك جلياً من خلال تكاثر المؤسسات العلمية والإنتاج الفكري آنذاك، ونبوغ عدد كبير من العلماء، أمثال لسان الدين بن الخطيب الغرناطي، وأبي العباس بن البنّاء المراكشي وابن عرفة التونسي وابن قنفذ القسنطيني وغيرهم.

وإذا اقتصرنا على المغرب الأوسط، حيث تبلورت نظريات ابن خلدون، لاحظنا أن تأسيس المدارس بدأ في القرن الثامن الهجري، حيث إن أول مدرسة أسّست بتلمسان في عهد أبي حمو موسى الأول (707 ـ 718هـ) وتلاها تأسيس المدرسة التاشفينية الشهيرة أيام أبي تاشفين الأول (718 ـ 737هـ)، ثم مدرسة العبّاد على يد أبي الحسن المريني، فالمدرسة اليعقوبية في عهد أبي حمو موسى الثاني (760 ـ 791هـ)، ممَّا جعل النشاط العلمي والأدبي والديني يزداد قوّة وانتشاراً في المنطقة. ويشهد على ذلك بروز أشهر علماء المغرب الأوسط في ذلك العصر[18]، أمثال الآبلي وأبي عبد الله الشريف، وهما من أشياخ عبد الرحمن بن خلدون، وابن مرزوق الخطيب، والمقري الكبير، وسعيد العقباني وغيرهم، ولم ينقطع ذلك

الإزدهار في القرن التاسع الهجري، بل تواصل ظهور الكثير من العلماء الذين تركوا إنتاجاً هاماً، أمثال ابن مرزوق الحفيد، وعبد الرحمن الثعالبي، وأبي عبد الله التنسي، والحبّاك، ومحمد بن يوسف السنوسي، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي وابن زكري وغيرهم. وممّا يؤسف له أنّ معظم إنتاج هؤلاء العلماء لم ينشر إلى يومنا هذا، وأن هذا التراث الفكري لا يزال ينتظر عناية الباحثين وإهتمامهم.

فالفكر الخلدوني وليد البيئة المغربية، التي استمدّ منها جذوره ومقوّماته، وهو يمثل حلقة هامّة في تطوّر الثقافة المغربية، ويشكّل نتاج مسيرة طويلة للنشاط الفكري.

وختاماً، لا يسع الباحث المنصف إلاّ أن ينوِّه بالجهود الجبّارة التي بذلها عبد الرحمن بن خلدون من أجل تصحيح الرؤية فيما يخصّ تاريخ بلدان المغرب الإسلامي، وتطهيره من الأوهام والأغلاط التي عَلِقَتْ به، ولا سيَّما بالنسبة للحقبة التي عاصرها. فقد أجمع المتخصّصون في هذا المجال على أن كتاب العبر يعتبر أوثق وأصحّ مصدر لدراسة تاريخ بلاد المغرب.

وقد أُخذ على عبد الرحمن بن خلدون أنه لم يطبق منهجه النقدي والتحليلي في كتابته للتاريخ [19]. والظاهر أنَّ هذا الحكم فيه بعض التعسُّف، وأنّ هذا النقد الموجَّه لصاحب كتاب العبر لا يعني إلاّ القسم الخاص بتاريخ المغرب الإسلامي بشكل خاص واهتمامه الكبير بدراسته دون أقطار العالم الأخرى.

وعلى كلٍّ، فيكفي عبد الرحمن ابن خلدون فخراً أنه يُعتَبَر بحقٍّ، بالإضافة إلى مساهمته في تأسيس علم الإجتماع، مجدّداً للتاريخ في عصره، وواضع المنهجيَّة النقديّة الحديثة لهذا العلم، ممّا جعله يتبوّأ مكانة سامية في طليعة عباقرة الحضارة الإنسانية.

الهوامش:

(1) مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج 1، ص 355.

(2) نفسه، ج1، ص 362 ـ 363.

(3) نفسه، ج2، ص 594.

(4) نفسه، ج2، ص 594.

(5) نفسه، ج2، ص 609.

(6) نفسه، ج2، ص 615.

(7) نفسه، ج2، ص 683.

(8) نفسه، ج2، ص 683.

(8) نفسه، ج2، ص 684 ـ 684.

(9) نفسه، ج2، ص 686 ـ 688.

(10) نفسه، ج2، ص 714.

(11) نفسه، ج2، ص 695.

(12) نفسه، ج2، ص 696.

(13) الظاهر أن ابن خلدون، عندما يتحدث عن العرب في المقدمة، يقصد القبائل المتغلغلة في البداوة، التي يسميها القبائل المتوحشة، ويلحق بها أيضا الأتراك والأكراد والمغول والبربر، وأنه بنى استنتاجاته على اعتبارات علمية محضة ترجع إلى الظروف المعيشية المتأثرة بالأوضاع الجغرافية والإقتصادية والإجتماعية. أنظر: المقدمة، ج2، ص 582 ـ 583، راجع أيضا، M. Talbi, Ibn Haldum et l'histoire, p. 53 et note 1

(14) ـ ج1 ـ 355. راجع أيضاً علي عبد الواحد وافي، تمهيد لمقدمة ابن خلدون، ج1، ص 98 و147.

(15) المقدمة، ج2، ص 655.

(16) نفسه، ج2، ص 644 ـ 646.

(17) أنظر: A. Faure, Grandeure et politique d'Ibn Khaldoun, dans Ibn Khaldoun, Colloque mai 1962, Fac des lettres et des sciences humaines, rabot, pp.5-12.

(18) من المعلوم أن عبد الرحمن ابن خلدون لازم شيخه الآبلي حوالي خمس سنوات، أخذ عنه أثناءها كثيراً من العلم، في مجالات عديدة، وخاصة في الفلسفة والتاريخ والتعاليم، وذلك عندما قدم الآبلي إلى تونس مع السلطان أبي الحسن المريني أيام استيلائه على بلاد إفريقية، وكان الآبلي مقيماً آنذاك في منزل بني خلدون. وقد ألّف عبد الرحمن ابن خلدون أوّل كتاب له في شرح مسائل فلسفية لابن رشد والرازي، خلال هذه الفترة، بتشجيع، وربما أيضاً بمساعدةٍ، من الآبلي، ولا يستبعد أن كثيراً من آراء ابن خلدون قد أخذها عن أستاذه هذا، راجع: N. Nasser, le maitre d'Ibn Haldum al-Abili,n dans studia Islamica, XX (1964), pp. 103-115.

(19) أنظر: علي عبد الواحد واقي، تمهيد لمقدمة ابن خلدون، ج1، ص 150.

(1)

قضية ولاية العهد في الخلافة العباسية

بشّار قويدر

من أهم القضايا السياسية البارزة في تاريخ الدولة الإسلامية هي قضية ولاية العهد، وهي قضية ترتبط ارتباطا وثيقا بمستقبل الحكم، وقد ميزت التاريخ الاسلامي بمميزات خاصة.

وتعني كلمة «ولاية العهد» تعيين الخليفة من ينوبه بعد موته، وهي بدعة لا صلة لها بالإسلام وشرائعه وليس لها في السنة المحمدية إقرار أو إشارة[1]، ولم يلاحظ لها وجود طيلة فترة حكم الخلفاء الراشدين (11 ـ 40 هـ / 632 ـ 660 م)، رغم بعض المحاولات[2].

ومن المؤكد أن هذه القضية قد أقرّت وبصفة رسمية خلال فترة حكم الخلفاء الأمويين (41 ـ 132 هـ / 1661 ـ 750 م)[3].

وبصرف النظر عن الأسباب التي ساهمت في ترسيم هذا النظام والالتزام به، فإن الملاحظ ان الظروف التي أوصلت الأمويين الى عرش الخلافة كانت إحدى أهم الأسباب التي أدّت الى التفكير في تطوير قضية ولاية العهد[4].

وسواء كان الأمويين على صواب أم على خطأ في اقرار هذا النظام، فان الثابت أنه ميز عهدهم تمييزا خاصا، حيث استمر حكم الدولة الإسلامية في

نسلهم ما يزيد عن تسعين سنة وظلوا هم المرجع الأساسي للسلطة حتى ثار ضدهم العباسيون وقوّضوا سلطانهم عام 132 هـ / 750 م.

ومن المنتظر أن يتجاوز العباسيون هذه المشكلة نظرا للمستوى الرفيع لشعارات الاصلاح التي رفعوها خلال حركتهم السرية والعلنية التي استهدفت تقويض النفوذ الأموي في المشرق[5].

وبصرف النظر عن الملابسات التي اعترت خلافة العباسيين منذ نشأتها الأولى[6]، فإن الثابت أن الخليفة العباسي الأول «أبو العباس السفاح» (132 ـ 136 هـ / 750 ـ 754 م)، لم يلاحظ عليه أية محاولة لتغيير نظام ولاية العهد، وعلى العكس من ذلك فإنه لم يقر بوجوده فحسب، بل ساهم مساهمة فعالة في زيادة تعقيده، وذلك حين أوصى بولاية العهد لإثنين من العائلة العباسية[7] مما سيترتب عنه اعراض خطيرة على مستقبل الخلافة كما سنرى.

ومما لا شك فيه أن هناك عدة اعتبارات تحكمت في قرار الخليفة «أبي العباس»، بخصوص قضية ولاية العهد هذه، منها أنه لم يكن له ابن من صلبه في مستوى أخذ مسؤولية الدولة، وهي في أصعب مراحل تكوينها، إلى جانب وجود شخصيات عباسية طموحة الى مثل هذه المناصب الحساسة.

وليس من السهل على العباسيين التسامح في مثل هذه المواقف، وقد بذلوا من أجل ذلك الشيء الكثير، كما يلاحظ انه لم تكن لهم على الاطلاق نية فتح المجال لمناقشة طبيعة نظام سلطتهم وفنون حكمهم[8].

وكان بإمكان الخليفة «أبي العباس» أن يتجاوز مشكلة ولاية العهد هذه، لو حاول عقد مجلس لآل البيت العباسي، يخرجون بعد مناقشة الموضوع بنتائج واضحة، على الأقل لا تلقي بأسهم بينهم، ولكن الثابت أن شيئا من هذا لم يحصل، حيث يروى أنه قد سلّم ولاية العهد لاخيه «أبي جعفر المنصور[9]»، على أن تكون الولاية بعده لابن أخيه «عيسى بن مسوسى[10]»، ولا ندري سبب إضافة الخليفة العباسي ابن أخيه هذا رغم أنه كان يعرف ما قد يترتب عن ذاك من أخطار، قد تهدد الدولة العباسية وهي في مراحلها الأولى[11].

والمؤكد أنه ما أن اعتلى أبو جعفر المنصور عرش الخلافة، حتي انفتحت ثغرة في النظام العباسي أخذت تتسع مع مرور الزمن وذلك حين تجاهل الخليفة الأول «أبي العباس» عمه عبد الله بن علي[12]، الذي كان أحد الطامحين الى منصب الخلافة بعد ابن العباس.

ولسوء حظ الخليفة «أبي جعفر المنصور» كان اصطدامه بعمه «عبد الله» القائد العباسي المشهور، والذي كان تحت قيادته الكثير من الجند ممن دربتهم الحرب المريرة على أساليب القتال والصبر على شدائدها[13].

وبغض النظر عن الخسائر التي كلفها هذا الاصطدام العائلي، فإن الملاحظ أن الموقف قد آل الى «المنصور»، وتمكن من فرض سيطرته وهيبته، لا على الرأي العام فحسب، بل حتى على كبار العائلة العباسية، ممن تحدثهم نفسهم بالاشتراك معه في السلطة أو منافسته فيها[14].

ولا يعني هذا ان الأمور قد استقرت للخليفة المنصور، وانما هو اعتراف بالأمر الواقع سلكه بعض الامراء العباسيين في انتظار ما قد تسفر عنه الأحداث من جديد[15]، ولكن المشكلة لم تتوقف عند هذا الحد، وانما هناك قضية أخرى كانت تدور في ذهن الخليفة الجديد وتأخذ جزءا كبيرا من تفكيره، وهي أنه لم يكن مطمئنا لقرار أخيه «أبي العباس» في تعيين «عيسى» ليكون خليفة للمسلمين بعد المنصور، ولذلك فان المصادر التاريخية تحدثنا بالتفصيل عن المساعي الحثيثة التي بذلها الخليفة المنصور لإزاحة «عيسى» عن منصب ولاية العهد، وإعطائها لابنه الأكبر «محمد» بدلا منه[16].

والملاحظ ان هذه المساعي قد بدأت منذ تولي المنصور عرش الخلافة، ولم يكن ذلك بالأمر الهين حيث كان عيسى شخصية مرهوبة الجانب، فضلا عن كونه أحد أبرز القادة المساهمين في أحداث الثورة العباسية ضد الأمويين.

وليحقق الخليفة المنصور رغبته هذه أخذ في إعلاء شأن ابنه «محمد» تمهيدا لتحضير موافقة الرأي العام على مشروعه، فلقبه بـ «المهدي»، وهو لقب يحمل مدلولا دينيا وسياسيا حيث هو المهدي المنتظر ـ الذي سيملأ الأرض عدلا بعد أن

ملئت جورا ـ ودأب على احضاره في المجالس العامة والخاصة حتى يألفه الناس، ثم أرسله إلى منطقة «خراسان»[17] إحدى أهم الأقاليم في الخلافة العباسية، بعد أن جهزه بجيش كبير وأعطاه مطلق الصلاحيات في تسيير شؤون المنطقة.

والظاهر أن الحظ قد ابتسم لهذا الشاب، وذلك حين تمكن جيشه من تحقيق انتصارات مؤزرة على الشعوب الشرقية، وقد تمكن من فتح اقليم «طبرستان»[18]، الواسع، وضُمَّ منذئذ الى الخلافة العباسية الناشئة.

وإمعانا في اظهار شخصية المهدي وتزكيتها، أمره أبوه المنصور بالدخول إلى العاصمة بغداد بجيش كثيف كامل العدة والعتاد من أهل خراسان، وهو الذي أُسكِن فيما بعد في «الرصافة»[19] الحي الملكي الذي بني خصيصا ليميز به المهدي عن غيره من الأمراء وكبار الشخصيات العباسية، ولعل هذه الاجراءات التي خطط لها المنصور هي التي كان سببا في ظهور رغبة الرأي العام في اعطاء البيعة بولاية العهد للمهدي على حساب «عيسى بن موسى».

ولم يشأ الخليفة المنصور أن يترك هذا الأمر لمجرد الصدفة، بل كان لا يدع فرصة تمر الا وحاول استغلالها لصالح هذا المشروع، ومنها رغبته المستمرة في التخلص من «عيسى» وحين ثار أحد الزعماء العلويين «محمد النفس الزكية» ضد الخلافة العباسية[20]، أرسل المنصور عيسى قائدا على الحملة التأديبية التي وجهت الى الحجاز لقمع هذا التمرد. ويبدو أن الخليفة المنصور كان يتوقع لقائده الفشل في هذه المهمة، فيتخلص منه تماما مثل ما فعل مع «أبي مسلم الخرساني» من قبل[21]، الا أن حدسه لم يصدق هذه المرة اذ ما لبث أن رجع عيسى من الحجاز ظافرا، فازدادت مكانته رسوخا في الخلافة العباسية وفي أوساط سكان بغداد.

ومع ذلك فإن هذا النصر غير المنتظر لم يثن عزيمة الخليفة المنصور على تولية ابنه المهدي خليفة له بدل عيسى، فراح يستعمل كل وسائل الترغيب والترهيب ليجبره على التنازل لصالح المهدي.. وفي مصادر التاريخ الإسلامي تفاصيل وافية عن المراسلات التي كانت بين الخليفة المنصور وولي العهد عيسى تدور كلها حول هذا الموضوع[22].

ورغم أن الخليفة المنصور قد وعد عيسى بتولية عرش الخلافة بعد المهدي، الا أنه لم يف بوعده. ولكن عيسى ظل مصرا على عدم التنازل معتبرا أن ذلك حقا شرعيا لا يجوز بأية حال المساومة به[23]. وكادت الأزمة تستفحل بين الرجلين، وتؤدي الى ما لا يحمد عقباه، لولا تدارك أحد موالي المنصور وهو «خالد البرمكي[24] بحيلة جمعت بين المكر والدهاء، وأدّت في نهاية الأمر الى تنازل عيسى عن ولاية العهد لصالح المهدي ابن المنصور[25].

ولتلطيف الجو وسط الأسرة الحاكمة لم يتردد المنصور في استعمال المال كعادته في مثل هذه المناسبات، ووسيلة لإرضاء عيسي وتعويضا له عن هذا التنازل حتي ولو كان مفروضا عليه فرضا[26]. وأخيرا أعطيت البيعة رسميا للمهدي عام 151 هـ/768 م، على أن يحتفظ عيسي بولاية العهد بعده، وأغلب الظن أن مراسيم البيعة كانت تتم في دار الخلافة وفي المساجد، وسط حشد من الأمراء وعلية القوم، وكانت هناك أيضا أيمان يؤديها المبايعون، ومواثيق يتعهدون بها، وكانت حاشية الخليفة واطاراته تجتمع بهذه المناسبة لتهنئ الخليفة وولي العهد، وتجدد أمامهما الولاء التام وتتعهد باحترام المواثيق[27].

وبغض النظر عن مخالفة هذه المراسيم لمقتضيات الشريعة، ورفضها من طرف بعض الفقهاء المعاصرين وقتذاك، فإن الثابت أن عرش الخلافة قد آل الى المهدي بعد موت أبيه المنصور وذلك سنة 158 هـ/775 م.

والظاهر أن سوء الحظ قد حالف «عيسى» في خلافة المهدي أيضا، حيث كان هذا الأخير لا يختلف عن أبيه المنصور في نية بقاء العرش ضمن نسله هو، دون النظر الى كفاءة الآخرين أو مراعاة للشورى في ذلك، ولم يتبع المهدي الأسلوب الذي كان أبوه قد اتبعه لاقصاء ولي العهد الشرعي، بل أضاف الى ذلك تحريض بعض سكان المناطق الشرقية ضده، وذلك للحط من قيمته وللاستصغار من شأنه في نظر الرأي العام[28]، حتى يسهل عليه فيما بعد خلعه عن ولاية العهد وتسليمها لابنه الهادي، والظاهر أن تلاعب الخلفاء بمثل هذه القضايا هي التي كانت سببا في تدخل «الوزراء» وكبار الاداريين في مسألة ولاية العهد وللضغط على قرارات الخليفة

ولتحقيق أغراض شخصية، كادت في بعض الأحيان أن تؤدي الى المساس بشخصية الخليفة وتهديد سلطته، مثلما حدث في أواخر عهد المهدي بسبب أسرة فارسية طموحة هي أسرة البرامكة «التي ظلت ترفع من شأن ابن المهدي المسمى «هرون» حتى بات جديرا بنيل ولاية العهد بعد أخيه الأكبر الهادي[29]، وتلقيبه بالرشيد، هذا اللقب الذي ظل يرافقه عبر التاريخ..

ولا شك في أن الخليفة المهدي قد تردد في موضوع أعطاء ولاية العهد لاثنين من أبنائه الهادي وهرون، لمعرفته ما قد يجر هذا العمل من آثار على مستقبل الأخوين تحت وطأة التنافس على السلطة وحب المُلك، وقد عاش هو نفسه هذه المشكلة ولاحظ أعراضها في عهد أبيه «المنصور» كما سبق القول.

وعلى ذلك فإن التفسير المنطقي لهذه الظاهرة لا يحتمل أكثر من وجود ضغط خفي على قرار الخليفة.

ولم يكن مصدر هذا الضغط في الظاهر غير زوجته «الخيزران التي يشاركها البرامكة في التخطيط والعمل على تولية هرون[30].

ويتمثل هذا الضغط الخفي من خلال رؤية الخليفة «المهدي» التي عبّرت بصدق عن حدسه لمستقبل ولديه بعد الموافقة على قرار تعين ابنه «هرون» وليا للعهد بعد أخيه «الهادي»[31].

ولم يقف تدعيم «هرون» عند هذا الحد بل تجاوز ذلك حد المناورة حين حاول الخليفة «المهدي» فسخ ولاية العهد عن ابنه «الهادي» وتسليمها لابنه الثاني «هرون» بدلا منه كما تدّعي بعض الروايات[32] على أن الواقع يكذّب هذا الزعم. فلم يكن الخليفة «المهدي» مستسلما لآراء زوجته «الخيزران» لهذا الحد، ولم يكن ابنه «الهادي» أقل شأنا من هرون كما هو شائع.

ولعل مصدر هذه الروايات كان قد وقع تحت وطأة المبالغة في دور البرامكة لاعلاء شأن «هرون»، كما لا يمكن الموافقة على الدعوة القائلة أن «الخيزران» بتدعيم من البرامكة قد اغتالت زوجها «المهدي» في سبيل تنصيب ابنها المفضّل «هرون الرشيد»، على عرش الخلافة[33]، إذ أن الفكرة تعوزها الدلائل التاريخية المقنعة. والشواهد تدل أن «يحي البرمكي قد وقف الى جانب «الهادي» في نقل الخلافة اليه

بعد موت والده «المهدي» سنة 169 هـ/785 م. وقد اعترف له «الهادي» ، الخليفة الجديد (169 هـ/785 م 786 م)، بهذا الجميل حين أقرّه على ما كان قائما به [34].

ومن البديهي أن يكون «الهادي» قد شعر بالدور المشترك بين أمه، والبرامكة في اعلاء سمعة أخيه «هرون» على حسابه، فسعى بكل الوسائل الى ابعادهم رغم تظاهره بالمحبّة والوئام في بداية الأمر [35].

وتشير الروايات أنه حاول دون جدوى أن يثني «يحي البرمكي» عن مصاحبة « هرون » وصرفه عنه وذلك عن طريق اغرائه بالمناصب والمكافآت المالية الهامة [36].

ويمكن قبول تضييق الخناق على البرامكة من جانب «الخليفة الهادي» ورصد نشاطهم، ثم مراوغتهم خطأ لإسقاط أخيه عن ولاية العهد [37] ، الا أنه من المستبعد أن يكون قد حاول إغتيال أمه (الخيزران) للتخلص منها كما هو الشائع [38].

والظاهر أن الأخوين أبناء المهدي «الهادي وهرون، لا يحملان الكراهية لبعضهما [39] ، فيما لو استُبْعِدت الصراعات الحزبية للبلاط العباسي وقتذاك، فالمستفاد من التقارير التي كانت تصل الى الخليفة «الهادي» عن مواقف «هرون» منه كانت سليمة ، وأن الذين يدفعونه لمعاداته هم البرامكة وعلى رأسهم «يحي» وكان الذين يحملون هذه التقارير هم أعوان الخليفة «الهادي»، المتخوّفون من نفوذ البرامكة وسطوتهم على «هرون» [40].

وفي سبيل ابعادهم عن أخيه لم يجد الخليفة «الهادي» حلا غير الدخول مع البرامكة في مناقشة قضية ولاية العهد هذه [41] ، لاستدراج «يحي البرمكي» الى القبول بنزع موكله «هرون»، والتظاهر باعطاء ولاية العهد لابنه الصبي «جعفر» بن الهادي [42] ومن ثم يسهل عليه التخلص منهم كثمن لخيانتهم.

وبغض النظر عن موقف «يحي البرمكي» الصلب لصالح هرون فإن المشكلة لا تحتمل في نظري أكثر من هذا التفسير، فيما لو لم نعتبر بعض الروايات المُبالغ فيها حول دور البرامكة في اعلاء شأن «هرون» كتبرير لنفوذهم عليه فيما بعد.

اذ من غير المنطق أن يكون الخليفة «الهادي» جاهلا مكانة أخيه «هرون» في

نظر الخاصّة والعامّة، فضلا عن صعوبة اقناعه الرأي العام اعطاء البيعة بولاية العهد لصبي لم يبلغ سن الرشد، والشواهد تشير الى أن هذا الرأي كان مرفوضا بالمرّة [43] ، فضلا عن حسن نية الخليفة تجاه البرامكة الذين كانوا يديرون أعمال «هرون» بناء على أمره [44].

حتى أنه حين غضب على «يحي» البرمكي لعدم استجابته ، ومبالغته الشديدة في التقرّب من هرون قرّر سجنه [45] ، وكان بوسعه أن يتخلص منه بقتله تحت ستار طائلة من الأسباب الملفقة. ومن الصعب إيجاد تفسير لتحامل بعض المؤرخين على الخليفة «الهادي» رغم أن مدة خلافته لا تزيد عن سنة واحدة، اذ ما لبث أن توفي في ظروف تبدو غامضة [46].

ومن الوجهة النظرية لم يكن «الهادي» أقل شأنا من سبقه من الخلفاء خصوصا وأن الفترة التي حكم فيها كان شابا لم يتمرس بعد بأساليب الإدارة ومقتضيات السياسة [47].

وفي الوقت الذي كان فيه البرامكة في عز نفوذهم لم يفتهم أن يستغلوا كل ما من شأنه أن يشدد قبضتهم على السلطة ويضمن لهم استمرار نفوذهم في الدولة تحسبا لما قد يطرأ من احداث قد تؤدي الى الحد من سيطرتهم أو زحزحتهم عن مناصبهم الحساسة في الدولة.

والمؤكد أنهم استفادوا أكثر من غيرهم من المبدأ الذي ابتدعه الخليفة «المنصور» المتعلق بتعيين أحد كبار الإداريين مشرفا على ولي العهد [48] ، وقد لوحظ من الوجهة النظرية أن المبدأ كان يهدف الى ضمان أمن الدولة واستقرار نظامها عكس ما هو الحال بالنسبة للواقع العملي حين يلاحظ أن مصير الخلافة والخلفاء يتحدد على يد هؤلاء المشرفين [49] وذلك قبل أن يتفطن الخلفاء لعواقب ذلك.

والبرامكة رغم نفوذهم الكبير في خلافة الرشيد لم يهملوا عملية الإشراف على تربية أبنائه لإدراكهم أهمية ذلك، وقد لبى الخليفة طلبهم بوضع ابنه «المأمون» تحت وصاية جعفر البرمكي في حين كلف أخاه «الفضل» بتربية ابنه الثاني وهو «الأمين» [50] . وتحسبا للظروف الطارئة درج الخلفاء على تعيين «ولاة عهد» لهم من أبنائهم في معظم الأحيان.

بيد أن الحاجة لم تكن مطروحة وقتذاك حتى تثار مثل هذه القضايا، فالخليفة الرشيد لا يزال شابا لم يألف هو نفسه تسيير دفة الحكم كما أن أبنائه لا يزالون صبية لم يتجاوزوا سن الخامسة من عمرهم، ويندر أن يوافق المسلمون على بيعة صبي لم يبلغ الحلم بعد[51].

ومع ذلك فقد طرح موضوع ولاية العهد بعد الرشيد وحمل على محمل الجد، ومن الصعوبة بمكان الاقتناع بتفسيرات بعض المؤرخين القدماء لهذا الحدث، الذي عزوه الى قضايا أمنية أقتضتها ظروف البيت الحاكم فقد زعموا أن انعدام وجود ولي للعهد قد دفع أحدهم الى حث «الفضل البرمكي» على العمل لصالح «الأمين» الصبي ومناه بالسلطة والجاه حالة نجاحه[52].

والظاهر أن هذه التفسيرات تعوزها الأدلة التاريخية أمام طموح البرامكة وحنكتهم السياسية حيث كانوا قادرين على تدارك الأمور قبل وقوعها خاصة عندما يتعلق الموضوع بقضايا سياسية ذات أبعاد كهذه. ولذلك فلا يستبعد أن يكونوا وحدهم المسؤولين عن هذا المشروع، خصوصا وأن «يحي البرمكي» قد أخذ يحس بتقدم سنه وقد لا يسمح له ذلك بمواصلة تمثيل الأدوار الهامة لصالح السياسة البرمكية في الدولة.

ولا شك أنه كان يشعر بالخطر الذي قد يداهم أسرته عندما تفتقده، بمقتضى الوضع الذي لم يكن في صالحهم[53]. وهناك ممن الشواهد ما يبين أن «الفضل البرمكي» قد أخذ يحث أعيان المنطقة الشرقية من الخرسانيين على تقديم الهدايا والمنح والاعطيات ليتبنوا معه المشروع ويساعدوه على إتمامه، ويظهر أنه نجح في ذلك حيث أرسل وفدا هاما الى بغداد كمحاولة أولى لاقناع الخليفة الرشيد بالموضوع والتعبير له عن ارتياحهم لابنه الأمين وليا للعهد[54].

وقبل أن يعطي الخليفة الرشيد رأيه في الاقتراح استدعى «يحي البرمكي» وعقد معه مناظرة على انفراد استغرقت وقتا طويلا[55].

حيث لم تعد العملية مجرد اعطاء ولاية العهد للإبن الأكبر كما هو مألوف إذا كان للخليفة ابنان في سن جد متقاربة وفي مستوى واحد من الثقافة[56].

والمهم أن الموقف قد حسم مبدئيا لصالح الأمين لبعض الاعتبارات من الصعب الاقتناع بها في ما لو استبعد احتمال فشل سياسة البرامكة في مثل هذه القضية الحيوية[57]. ويظهر أن البرامكة قد طرحوا قضية ولاية العهد كمحاولة منهم لتعزيز مكانتهم واستمرار علاقتهم بالبيت العباسي الحاكم دون النظر الى الملابسات التي قد تنجم عنها[58].

وفي انتظار ذلك كان «الفضل بن يحي» الذي ربح الجولة الأولى لصالح موكله «الأمين» ونال مكانة هامة في نظر سيدة القصر ـ زبيدة ـ زوجة الخليفة وبموجب ذلك تأكد اشرافه على غرب الخلافة العباسية لحيازتها إلى ابن الخليفة «الأمين» بمقتضى نيله ولاية العهد[59].

وأظن أن هذه الامتيازات التي انضافت الى «الفضل البرمكي» قد أثارت حفيظة أخيه «جعفر» فأخذ يعطف على موكله «المأمون أكثر من أي وقت مضى ويسعى بكل ما في جهده الى الوصول به الى ما وصل اليه أخوه «الأمين» حتى تمكن من اقناع الرشيد بضرورة إعادة النظر في مشكلة ولاية العهد وذلك سنة 183 هـ/799 م، حين أقرّ الخليفة علنا اعطاء ولاية العهد لابنه «المأمون» بعد أخيه «الأمين» وأخذ له البيعة من المسلمين[61].

والملاحظ ان مثل هذه الحلول التوفيقية المتوارثة في أهم جهاز في الدولة قد أوقع الخلفاء في مشاكل لا حصر لها مما سمحت في الكثير من الأحيان بتأزم الجهاز الحاكم وظهور الصراعات الحزبية بدسائسها ومناوراتها المقيتة التي كادت تعطل المشاريع الحضارية وتشلها عن التطور[62].

وحسب المصادر القديمة يكون «الرشيد» أهم من لاحظ اعراضها عندما كان وليا للعهد بعد أخيه الهادي ، ومن المنطق أن يكون أوعى من غيره في مثل هذه المشكلة، ومع ذلك فقد أقر بتعيين أكثر من واحد على ولاية العهد. وحاول عبثا تعديل ذلك عن طريق تنظيم موكب خلافي غير عادي بعد ثلاث سنوات من قبوله بفكرة واعطاء ولاية العهد للمأمون بعد الأمين[63] ، مما يوضح أهمية هذه المشكلة وحدّتها وقتئذ. وأظن أن أصطحاب الرشيد وزراءه وأمرائه فضلا عن علية القوم في موسم الحج هذه السنة لا يتحمل أكثر من تفسير واحد، وهو أن الرشيد قد شعر بما

سيترتب عن مشكلة ولاية العهد على مستقبل الدولة. فأراد بذلك توزيع المسؤوليات احتياطا لما قد تسفر عنه الأحداث من جديد[64].

ومن المستبعد الشك في صحة الموضوع لورود تفاصيله في مصادر التاريخ الاسلامي الموثوق بها ، ومع ذلك فان كل ما قام به الرشيد من احتياطات لم يتمكن بها من اقناع الحاضرين حيث علّق بعضهم على ذلك بشيء كبير من عدم الاطمئنان وتكهنوا بعدم صلاحيته[65] ، وذلك لإحتواء نصي العهدين على مكامن متناقضة يصعب من الوجهة العملية تطبيقها[66].

فلم يعد التزام «الأمين» أثناء توليه عرش الخلافة في المستقبل ـ قاصرا على الاعتراف بأخيه «المأمون» وليا للعهد بعده فحسب بل تجاوز إلى حد الاقرار باستقلاله التام عن أغلب المناطق الواقعة شرق الخلافة العباسية[67]. ولو حدث مساس بذلك ـ كما نص البيان ـ من جانب الأمين فانه يضيع كل شيء: ، ولاية العهد والخلافة على سواء[68].

والظاهر أن هذه الالتزامات الخطيرة التي جر إليها «الأمين» لا يستبعد أن يكون وراءها أيد خفية تحرك القضايا تجاه أبعاد ذات أهمية بالغة على مستقبل الدولة.

وعلى الرغم من شعور الخليفة الرشيد بخطورة الموقف كما أشرت سابقا الا أنه من الصعب إيجاد تفسيرات منطقية لاستمراره في ذلك[69].

ويبدو أن المتحزبين لـ «المأمون» وعلى رأسهم «جعفر البرمكي» هم الذين كسبوا القضية بتقليصهم لحرية «الأمين» لأحكام قبضته على تسيير الخلافة ، في حين منحت الفرصة لأخيه «المأمون» بالانفراد بالحكم لاهم مناطق الخلافة العباسية[70].

والغريب أن الرشيد لم يكتف بهذا الحد من الاستمرار في تعقيد هذه المشكلة ، بل أضاف الى ذلك بيعة ثالثة عام 186 هـ/802 م لابنه القاسم بعد المأمون، ولقبه با «المؤتمن» بعد أن ولّاه على اقليم الجزيرة احدى أهم أقاليم الخلافة العباسية[71].

هذه النتائج المتضاربة التي توصل إليها البلاط العباسي بعد مناقشات طويلة تبين بوضوح ما بلغته التكتلات الحزبية والمناقشات السياسية من قوة ونفوذ على قرارات الخليفة الرشيد[72] ، ولعل مرد ذلك يرجع الى محاولة هذا الخليفة إرضاء

الأطراف المتنازعة ريثما تكشف له الأحداث عما يساعده على إعادة الأمر إلى نصابه.

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن مشكلة «ولاية العهد» قد اتخذت مطية للضغط على الخلفاء والتحكم في قراراتهم ، ولذلك كان كثير منهم يتصرفون دون تقدير للعواقب، فالرشيد رغم ما يعرف عليه من سداد الرأي والحنكة السياسية الا أنه لم يتمكن من مواجهة مؤامرات الأحزاب المتناحرة التي استخدمت أبناءه للنفوذ الى السلطة، حيث أنه بتقسيمه للخلافة بين أبنائه الثلاثة قد وضع البذرة الأولى للتفكك السياسي بما تحمله هذه الظاهرة من فتن واضطرابات ، تزعمتها الأحزاب المتنافسة، حيث التفت أغلب العناصر العربية حول الخليفة «الأمين» وراحت العناصر الفارسية تؤازر ولي العهد «المأمون» ، وتحرضه على الانتقاص من شأن أخيه وتشجعه على تزكية الحركة الانفصالية لضرب التكتل العربي.

وحسبما تجمع لدي من روايات ألاحظ أن كل حزب قد بذل ما في وسعه لتعميق الهوة بين الأخوين، وهي ما تعرف في التاريخ الإسلامي بـ «الفتنة بين الأمين والمأمون»[73].

والمتتبع للأحداث التاريخية لهذه الفتنة يلاحظ أن الأخوين لم يكونا يحملان لبعضهما كل هذه الكراهية والبغض، وانما الزعامة كانت للطرفين المناصرين ، تزعمها رجلان قويان كلاهما كان يسعى الى النفوذ والاستئثار بالسلطة والى القضاء على خصمه ، فمن جهة كان الفضل بن سهل[74] الفارسي ـ الموالي للمأمون والطامح الى الاستئثار بوزارته ، تماما مثلما كان عليه أسلافه البرامكة زمن الخليفة الرشيد، ومن جهة أخرى كان «الفضل بن الربيع [75] العدو التقليدي للنفوذ الفارسي كما يوصف عادة، اراد هو الآخر أن يفوز بوزارة الأمين، وأن يقف حجرة عثرة أمام طموح العناصر الفارسية التي كان يحس بأنها حرمته من حقوقه ، ولم ترع له كفاءته ومقدرته في الأساليب الادارية.

وبغض النظر عن سير أحداث هذه الفتنة المقيتة بين المسلمين فإن الواضح أنها أذكت نار الحقد بين الأشقاء، وورطت الدولة الإسلامية في حرب عصبية، لم تكلفها تبذير ميزانيتها وفقدان امكانياتها البشرية فحسب، بل أوقعت المسلمين في

رذيلة التناحر الفوضوي، حتى صارت توصف في كثير من الأحيان بأنها تجسد الصراع العربي الفارسي في أعلى مراحله[76].

ويعد هذا الصراع إحدى أهم مظاهر فساد مبدأ العباسيين في تحقيق الوفاق والتلاحم بين القوميات التي حكمتها دولتهم، والذي كان أحد أهم مبادئ ثورتهم ضد الأمويين وأحد شعاراتهم التي كانوا ينادون بها في كثير من المناسبات.

ومهما يكن من أمر ذلك، فأن عرش الخلافة قد آل غصبا إلى ولي العهد «المأمون»، بعد مقتل الخليفة الأمين، وانهزام القوة التي كانت تسانده[77].

وتكفيرا عن المجازر التي ارتكبت بسبب ولاية العهد في أحداث الفتنة بين الأمين والمأمون، فان هذا الأخير حاول معالجتها بطرق غير التي سلكها سلفه، ولعله يعد الخليفة العباسي الوحيد الذي تجاوز فكرة بقاء الخلافة في آل العباس، حيث اتخذ الكفاءة المعيار الأساسي لاختيار ولي العهد متجاوزا ابنه وبقية أفراد البيت العباسي، وذلك حين وقع اختياره على «علي الرضا»[78]، أحد كبار أئمة الشيعة العلويين.

وفكرة تسليم ولاية العهد لاحد من العلويين، يعد حدثا لأول مرة يَرِد في تاريخ الخلافة العباسية، وذلك نظرا لعدم إرتياح العلويين لسياسة أبناء عمومتهم العباسيين منذ اعتلائهم عرش الخلافة، اذ كانوا يمثلون حزب المعارضة العنيد، عبر التاريخ العباسي، ويعتبرون أن امارة المؤمنين ينبغي أن لا تكون الا في آل علي، لانهم أكفأ من غيرهم وأجدر منهم بتحمل مسؤولية مصير الأمّة والدين الإسلامي[79].

والظاهر أن تجاوز المأمون الخط الذي اتبعه سلفه، لا يعدو أن يكون برنامجا جديدا استهدف به ارضاء الأطراف المتصارعة ريثما تتكشف له الأحداث عن بديل يغير به هذا الاتجاه[80].

وبغض النظر عن معارضة سكان بغداد ممن كانوا موالين لفكرة احتكار العباسيين للسلطة، ووقوفهم في وجه المأمون ومنعه من الدخول الى بغداد، فإن الروايات التاريخية تحدثنا أن ولي العهد «علي الرضا» سرعان ما اغتيل في ظروف غامضة[81]

وسواء أكان الخليفة المأمون على نية صادقة تجاه هذا المشروع أم لا. فإن الثابت تاريخيا ان المأمون قد تراجع بعد ذلك، وانتهى الأمر به الى أخذ البيعة من المسلمين لأخيه «المعتصم» على عكس من سبقه من الخلفاء الذين كانوا يتحايلون في كثير من الأحيان، ليسلّموا ولاية العهد لابنائهم.

قائمة المصادر والمراجع

(1) ركّز القرآن الكريم على نظام الشورى واعتبره حجر الزاوية في نظام الحكم الإسلامي، ومن المؤكد أن الرسول ﷺ قد توفي ولم يوص أحدا من الصحابة الأجلاء على استخلافه، ولا نجد في مصادر التاريخ الإسلامي ما يشير الى هذا الموضوع، بل ترك عليه السلام منصب استخلافه شاغرا ليجد المسلمون بعد ذلك الفرصة الكافية لاختيار من يناسب الدولة في ظل المعطيات الجديدة، ومراعاة المقتضيات الأحوال المتغيرة.

(2) هناك تقليد قام به الخليفة الراشدي «أبو بكر الصديق» في أواخر عهده حيث أوصى بأن يكون «عمر بن الخطاب» ـ رضي الله عنه ـ خليفة له. وذلك بعد استشارة أهل الرأي وأصحاب المشورة من الصحابة الأجلاء، الذين تأكد لهم أن الخليفة أبا بكر لا غرض له من وراء هذا التعيين غير محاولة الوقوف دون مخاطر الفتن التي تحدث عادة في مثل هذه الظروف، كما تأكد لهم أيضا رجاحة عقل «عمر» وقدرته على تسيير الدولة الإسلامية الناشئة.

(3) كان ذلك ابتداء من عهد الخليفة الأموي الأول ـ معاوية بن أبي سفيان ـ مؤسس الخلافة الأموية، حيث عهد بولاية العهد لابنه «يزيد» ومنه صار عرش الخلافة حكرا على الأسرة الأموية يتناقلونه عن طريق ولاية العهد، حتى سقوطهم في المشرق على يدي العباسيين سنة 132 هـ/750 م.

(4) كان الصراع بين بني أمية وبني هاشم ـ آل البيت ـ صراعا تاريخيا مريرا تمتد جذوره الى ما قبل الإسلام، ولقد أحس الأمويين بخيبة أمل حين شرّف بنو هاشم بمجيء الإسلام وما تلا ذلك من أحداث، وفي الحقيقة فأن الأمويين قد بذلوا مجهودا كبيرا وتضحيات جسام للوصول الى احتلال الصدارة في المجتمع الإسلامي، ولقد توجوا ذلك بتوليهم المناصب العليا في الإدارة والتسيير في عهد الراشدين ثم بنيلهم منصب الخلافة على يدي معاوية بن أبي سفيان، وذلك بعد صراع مرير ضحوا فيه بخيرة شبابهم ومواليهم.

(5) شاعت الشعارات التي رفعها بنو هاشم والعلويون وبعدهم العباسيون ـ أثناء تحضيرهم للثورة ضد الأمويين، وكان من أهمها الدعوة الى تطبيق الشريعة الإسلامية وتحقيق العدالة الاجتماعية والاقرار بمبدأ تكافؤ الفرص للجميع دون أية اعتبارات عنصرية أو تقاليد ارستقراطية ، وغير ذلك من الشعارات البراقة.

(6) أغلب مصادر التاريخ الإسلامي تشير الى أن العباسيين قد استغلوا النشاط العلوي الشيعي ضد الأمويين لخدمة مصلحتهم، بحيث كانوا ـ أي العباسيين ـ يدعون في الظاهر الى تحقيق نصرة (آل محمد) وهو مبدأ غامض أوقع العلويين وأنصارهم في مغالطات تاريخية، اذ ما لبث العباسيون أن حوّلوا هذا المبدأ لخدمة البيت العباسي واحتكروا السلطة بينهم وتنكروا كلية لبني عمومتهم العلويين. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج 7، ص 109، 141، 142، 199، 200، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 14، ج 3، ص 310، ج 4 ص 155، وابن العماد ، شذرات الذهب، ج 1، ص 166.

(7) أوصى أبو العباس بولاية العهد لاخيه المنصور وبعده لابن أخيه عيسى، واستبعد من هذه الوصية أحد أقطاب البيت العباسي وهو «عبد الله بن علي» الذي ما لبث أن ثار في بلاد الشام فور وفاة الخليفة «أبي العباس» وتنصيب «المنصور» خلفا له. الطبري، ج 7، ص 474 ـ 479. ابن الأثير ج 4، ص 348ـ350. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 10، ص 53. ابن كثير، البداية والنهاية ج 10، ص 60.

(8) تدل على ذلك خطبة «أبي جعفر المنصور التي ألقاها بعد اغتيال قائد الثورة العباسية «أبي مسلم الخراساني» حيث قال: (أيها الناس لا تنفوا أطيار النعم... فتحل بكم النقم ولا تسروا غش الأئمة... وانا لا نجهل حقوق ما عرفتم حقنا... ومن نازعنا هذا القميص أوطأنا أم رأسه حتى يستقيم رجالكم وترتدع أعمالكم...) ابن كثير، ج 10، ص 70ـ71.

(9) يعد المؤسس الحقيقي للخلافة العباسية وتنسب إليه مشاريع هامة ومواقف صارمة في أكثر المجالات الحيوية في تاريخ الخلافة العباسية ، أنظر الطبري ج 7، ص 47 وما بعدها، السعودي، مروج الذهب، ج 3، ص 294. ابن الأثير ج 4، ص 347؛ ابن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية، ص 141. ابن كثير، ج 10، ص 205.

(10) من كبار القادة العسكريين في تاريخ الخلافة العباسية، ومن أهم أمرائها وولاتها، كانت تسند اليه أغلب المهمات الصعبة التي اعترضت الخلافة العباسية وهي في طور نشأتها.
الطبري، ج 7، ص 471. ابن الأثير، ج 4، ص 374.

(11) كانت الخلافة العباسية وقتئذ مهددة من كل جانب، فعلى الصعيد الداخلي كانت لا تزال تعاني من آثار الحرب الأهلية المريرة التي دارت بين العباسيين والأمويين، كما ان الدارة بمختلف مؤسساتها كانت تحتاج الى مجهود جبار لإعادة تنظيمها وهيكلتها، أمّا على الصعيد الخارجي فقد لوحظ التربص الدائم للقوات البيزنطية على الحدود ومحاولتها الانقضاض على الدولة كلما سنحت الفرصة لذلك.

(12) أحد أقطاب البيت العباسي، عم الخليفة الأول والثاني، كانت له مؤهلات كثيرة جعلته في الصف القيادي الطامح الى منصب الخلافة، ولقد ادّعى أن الخليفة «أبا العباس» قد عهد له بولاية العهد بعده، ولذلك دخل في صراع كبير مع الخليفة «أبي جعفر المنصور» وعده مغتبا لحقه في إمارة المسلمين.
الطبري، ج 7، ص 474. ابن الأثير، ج 4، ص 348.

(13) كانت تحت قيادة «عبد الله بن علي» قوة كبيرة ومدربة على مكايد القتال وقادرة على تجاوز أخطارها نظرا للتجربة الهامة التي اكتسبتها خلال حربها ضد الأمويين والاستعدادات التي كانت تجهزها للقيام بالهجوم على

البيزنطيين في الجبهة الشمالية. أنظر الطبري، ج 7، ص 474، وما بعدها. ابن الأثير، ج 4، ص 348 ـ 349.

(14) ابن الأثير، ج 4، ص 22ـ23.

(15) أنظر الطبري، ج 7، ص 474، وابن الأثير ج 4، ص 348.

(16) الطبري، ج 8، ص 9 وما بعدها. ابن طباطبا، ص 155ـ156. ابن خلدون، كتاب العبر، ج 3، ص 197.

(17) الطبري، ج 8، ص 16. ابن الأثير ج 5، ص 22ـ24.

(18) ابن الأثير، ج 4، ص 367.

(19) الطبري، ج 8، ص 37ـ39. ابن الأثير، ج 5، ص 33.

(20) الطبري، ج 7، ص 552 وما بعدها. ابن الأثير، ج 5، ص 8.

(21) كلف الخليفة «أبي جعفر المنصور» أبا مسلم الخرساني قائد الجيش العباسي بالقضاء على تمرد عمه «عبد الله بن علي» في بلاد الشام، وكان هدفه التخلص من الاثنين على السواء. الطبري، ج 7، ص 474. ابن الأثير ج 4، ص 348.

(22) الطبري، ج 8، ص 14ـ19. ابن الأثير ج 5، ص 22.

(22) الطبري، ج 8، ص 14ـ19. ابن الأثير ج 5، ص 23.

(23) الطبري، ج 8، ص 10. ابن الأثير ج 5، ص 22.

(24) هو مؤسس مجد أسرة البرامكة في التاريخ العباسي، دخل في صفوف الثورة العباسية منذ مراحلها الأولى، وترقى في الوظائف السامية حتى صار الوزير الأول والمستشار الأساسي للخلفاء العباسيين الأوائل..، فمكنه وضعه هذا من ادخال كل عناصر عائلته في الادارة العباسية» دراسة تقدمت بها لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاسلامي.

(25) الطبري، ج 8، ص 19ـ20. ابن الأثير ، ج 5، ص 25.

(26) الطبري، ج 8، ص 25.

(27) ابن الأثير، ج 5، ص 50.

(28) الطبري، ج 8، ص 124ـ128.

(29) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص 151، 197، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ج 2، ص 45. أبو الفداء المختصر في أخبار البشر، ج 2، ص 8.

(30) ابن خلدون، ج 3، ص 245. عبد الجبار الجومرد، هرون الرشيد، ج 1 ص 108ـ110.

(31) أنظر، المسعودي ج 3، ص 245. ابن الأثير، ج 5، ص 98.

(32) ابن الوكيل، أحسن المسالك لاخبار البرامك، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس، قسم المخطوطات رقم 17022. ورقة 120. ابن تغري بردي، ج 2،ص 58.

(33) لمؤلف مجهول، مختصر المختصر (مخطوط) نسخة منه في المكتبة الظاهرية بدمشق، قسم المخطوطات، رقم 7153، ورقة 54 ب. عبد الجبار الجومرد ج 1، ص 112.

(34) البلاذري، أنساب الأشراف، (مخطوط)، نسخة منه عند الدكتور سهيل زكار في مكتبته الخاصة بدمشق، ورقة 335أ. المقريزي، المقفى، (مخطوط)، نسخة منه عند د. سهيل زكار، ورقة 20أ. ابن طبطبا، ص 147. ابن خلدون، ج 3، ص 216.

(36) الطبري، ج 8، ص 207 وما بعدها.

(37) اليعقوبي، تاريخه، ج 2، ص 406.

(38) المسعودي، ج 3، ص 337. ابن تغري بردي، ج 2، ص 64.

(39) المسعودي، ج 3، ص 344.

(40) اليعقوبي، ج 2، ص 305، الطبري، ج 8، ص 20. ابن الوكيل، ورقة 20أ.

(41) ابن الوكيل، ورقة 20أ ـ 20 ب. ابن كثير، ج 10، ص 158.

(42) الأزدي، تاريخ الموصل، ص 262.

(43) أنظر، المسعودي، ج 3، ص 262.

(43) أنظر المسعودي، ج 3، ص 343. ابن طباطبا، ص 180.

ابن الوكيل، ورقة 21أ، ابن كثير، ج 10، ص 158.

(44) الطبري، ج 8، ص 188. ابن الوكيل، ورقة 20 ب.

(45) الطبري، ج 8، ص 207. ابن خلدون، ج 3، ص 216.

(46) المقريزي، ج 2، ورقة 21 ب. ابن تغري بردي، ج 2، ص 64.

(47) بمقابلة الروايات ببعضها البعض حول موضوع عمر الخليفة الهادي يتأكد لدينا أنه لم يكن قد تجاوز العقد الأول من عمره.

(48) أنظر ما سبق.

(49) ابتدأ ذلك في الفترة الأولى من حكم الخليفة المهدي على يدي مربيه «أبي عبد الله» الذي صار مستشاره الأول بعد توليه منصب الخلافة، أما بالنسبة للخليفة هرون الرشيد فقد اشتهرت وصاية أسرة البرامكة له حتى صاروا يمثلون دولة داخل دولة. أنظر قويدر بشار، دور أسرة البرامكة في تاريخ الخلافة العباسية، هنا وهناك.

(50) الجهشياري، ص 211. لمؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ص 310.

(51) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 127. الأربلي، خلاصة الذهب المسبوك، ص 127. ابن طباطبا، ص 166.

(51) يلاحظ أن البرامكة طرحوا فكرة ولاية العهد للخليفة الرشيد سنة 175 هـ/791 م. وكان الرشيد حتى هذه السنة لا يزال لم تيعود هو نفسه على أساليب الحكم لقصر المدة التي مارس فيها السلطة. راجع الطبري، ج 8، ص 240ـ241. لمؤلف مجهول، العيون، 292. ابن كثير ج 10، ص 165.

(52) يروى أن الأمير العباسي «عيسى بن جعفر» صهر الخليفة الرشيد وخال ابنه الأمين قد اتصل بالفضل البرمكي، ومناه السلطة والجاه ان هو سعى إلى مساعدة الأمين في ترتيب ولاية العهد له. الطبري، ج 8، ص 244. ابن تغري بردي، ج 2، ص 96. ابن خلدون، ج 3، ص 218.

(53) أنظر ما سبق.

(54) الجهشياري، ص 193. لمؤلف مجهول العيون، ص 292.

(55) حول تفاصيل هذه المناظرة راجع، المسعودي، ج 3، ص 354.

(56) اليعقوبي، ج 2، ص 408، 415. المسعودي، ج 3، ص 360، 362. السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 307.

(57) المسعودي، ج 3، ص 363، السيوطي ، ص 307.

(58) يلاحظ تناقض آراء الوزير «يحي البرمكي» حول موضوع ولاية العهد فهو يشير الى الخليفة الهادي سوء عاقبة توليه ولاية المعهد لابنه لصغر سنه، في حين نجده هنا أمام الخليفة الرشيد يلح فكرة اعطاء ولاية العهد لابنه رغم أنه لا يزال صبيا لم يتجاوز سنه الخامسة.

(59) الجهشياري، ص 211.

(60) ابن طباطبا، ص 166. البغدادي، ج 1 ص 339. السيوطي، ص 314.

(61) اليعقوبي، ج 2، ص 415. لمؤلف مجهول ، العيون، 310.

الطبري، ج 8، ص 269.

(62) نشير هنا على سبيل المثال الآثار السلبية التي تركتها هذه القضية على مسرح السياسة الداخلية لكثير من الخلفاء العباسيين ابتداء من عهد المنصور.

(63) تحدد الروايات التاريخية هذا الحدث سنة 186 هـ/801 م، حين كوّن الخليفة الرشيد وفدا رسميا في موسم الحج في تلك السنة لمحاولة تلطيف من الحدة التي أثارتها قضية ولاية العهد. أنظر الطبري، ج 8، ص 269. ابن كثير، ج 10، ص 187.

(64) اليعقوبي، ج 2، ص 415ـ425. الطبري، ج 8، ص 475.

(65) المسعودي، ج 3، ص 364. الطبري ج 8، ص 275ـ278.

(66) تحد النصين الك

(66) تجد النصين كاملين عند اليعقوبي، ج 2، ص 614 + 421.

(67) عن حدود منطقة نفوذ ولي العهد «المأمون» راجع ابن الأثير، ج 5، ص 412.

(68) السيوطي، ص 290.

(68) أنظر، الطبري، ج 8، ص 281 وما بعدها.

(69) يمكن تعليل ذلك بوجود ضغط خفي على قرارات الخليفة الرشيد مصدره زوجته «زبيدة» وآل الربيع وبعض الأمراء العباسيين ممن كانوا مستائين من استمرار نفوذ أسرة البرامكة في الخلافة العباسية.

(70) الطبري، ج 8، ص 282.

(71) ابن الأثير، ج 5، ص 112ـ113.

(72) أنظر أعلاه.

(73) ترداث ذلك في أغلب مصادر التاريخ الإسلامي. أنظر على سبيل المثال، الطبري، ج 8، ص 374 وما بعدها. ابن الأثير، ج 5، ص 138 وما بعدها.

(74) البغدادي، ج 14، ص 130. ابن الوكيل، ورقة 154أ. ابن طباطبا، ص 165، القمي، الكني والألقاب، ص 231. ابن الأثير، ج 5، ص 150.

(75) الطبري، ج 8، ص 364. ابن الأثير، ج 5، ص 134.

(76) أنظر الطبري، ج 8، ص 374. وما بعدها. ابن الأثير، ج 5، ص 138. ابن طباطبا، ص 196. الجهشياري، ص 305.

(77) ابن الأثير، ج 5، ص 155 وما بعدها.

(78) الطبري، ج 8، ص 555ـ556. ابن الأثير ج 5، ص 183.

(79) الطبري، ج 8، ص 568. ابن الأثير ج 5، ص 193.

أحمد بن إدريس البجائي الأيلولي
(القرن 8 هـ / 14 م)
ودور زواوة في التراث العربي الإسلامي

أحمد ساحي

لا ينكر دارس منّا أن أعظم الناس أقلُّهم ذكرا في تاريخنا أحياءً كانوا أم شهداء القلم والفكر. وهذا يصدق على الكثير من أعلامنا وشخصياتنا عبر مختلف الأحقاب بما فيها الحديث والمعاصرة.

من هؤلاء المظلومين المضطهدين ثقافيا... أحمد بن ادريس، ورغم احتلاله حيزا متواضعا، متواترا في الذكر فإنه لا يكاد يشذُّ عن قاعدة الاحتشام، ويتراوح بين بضع سطور وتعابير مقتضبة إلى مجرد ذكر في الأمهات والموسوعات والمختصرات على السواء.

ومن جراء هذا الفراغ المتوارث، نكاد لا نعثر على الكثير أو القليل حول حياة أبي العباس ابن إدريس، لا سيما ما يتصل بمولده، ونشأته، مكانا وزمانا. فكل ما نصادفه مجموعة مجموعة نعوت حول الرجل العالم والمفتي البجائي، أمام المغرب تارة وطورا كبيرا بجاية وتونس ومصر وزواوة. ويستوي في العلم حوله الفلاح والعالم، وهي الظاهرة التي أوحت لأحد الباحثين بنعت (يحي العيدلي) الشهير هذا الرجل المجهول عند ترجمته له.

إننا لا ندعي علم الأولين، إذا قلنا بأن ترجمة أبي العباس ابن إدريس، هي في حد ذاتها تاريخ وإعادة كتابته لأحد العهود الرعناء من تاريخ بجاية وزواوة والمغرب كله خلال القرن 14م. وتظل سارية هدينا خلال هذا الجهد جملة مصادر ومراجع ورواية محلية أثرى من النّص المكتوب دائماً...! وقد رمزنا لها برقم عند الإحالة في

ملحق تفاديا للإطالة والتكرار.

إن الفضل كل الفضل يعود لطالب ابن ادريس عبد الرحمان ابن خلدون الذي ذكره مراراً في الجزء السابع من كتاب العبر. ومن جملة ما سجّله في حديثه عن القاهرة:

«سألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير بجاية كيف هذه القاهرة؟ فقال: كأنما انطلق أهلُه من السحاب.. يشير إلى كثرة أهله وأمنهم العواقب»..

وبهذا المقطع الهام ينير ابن خلدون أمامنا جانبا من حياة ابن ادريس، إذ يصرح بأنه شيخُه، ثم يفيدنا بأنه عرف القاهرة وأقام بها وربما درَس من السحاب... كما يتضمن تعبير ابن خلدون «من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا، حاجُّهم وتاجرهم... لقاءه حاجاً، أو هو في طريق العودة من الحج.

نشأة ابن إدريس وموطنه الأول:

ترى! أين درس أحمد بن ادريس دراسته الأولى! السؤال يشمل أيضا مولده وموطنه الأول، ومختلف التطورات الهائلة التي لاقاها أحمد بن إدريس وحركته بقدر يتراوح بين البلاء والإمتحان؟..

ولا عذر لنا أمام قصور التاريخ المكتوب في رفض اللجوء إلى الرواية الشعبية الكثيرة حول الأسرة وحول والد المترجم له. إنها تكمل الرواية المكتوبة منذ الغبريني الذي يدعم نَصُّه الرواية بذكر **إدريس ابن محمد (والد) المترجم له**، وقد عاش في قرية **أفوسيم (كسيمة أو كسيمة) بإيلولة أومالو**، مع شيخ القرية وجدها المرابط على (الكوسيمي) وهذا ما يعكسه شعاع من التاريخ المكتوب. نص للغبريني من كتاب عنوان الدراية، ترجم فيه لأسرته ولأخيه، وهو الدليل المكتوب الحجة، بأسلوب اخباري عن معايشة واحتكاك.

يذكر فيه الدراسة الأولى له على شيخه أبي الحسن علي بن محمد البتورغي في (المكتب) ويعرفنا أن ذلك حدث فيما بين 650/644هـ إذا سنّ الأولى هي ست

سنوات.. وبذكره (المكتب) تأكد لدينا أن **الزاوية** لم تنشأ في عهده بزواوة، ولم يكن قد أطلق عليها مصطلح (**المعمرة**). كما أن المكان هو مدفن أحمد بن عبد الله **بوادي (ايخذاشن) الحدود بين قبائل إيلولة ويتورغ وإيليتن.**

أهم روافد سباعو.. ما يتضمنه تعبير الغبريني (بموضع سكناه منها) أي من بني يتورغ... وهنا نسعف بالرواية المتوارثة لتكمل

إدريس بن محمد بن عبد الله:

الجانب الخفي في النص، تدعمها العينات المادية والمسح الميداني وهي كلها تضيئ الجواني المسكوت عنها، ذلك أنها تذكر انتقال **كل من أبي الحسن علي وأبي علي الكوسيمي وإدريس بن محمد** من مكتب أحمد بن عبد الله قبل 683هـ. وقد ذكر أبو العباس أحمد بن القاضي الغبريني ملامح من شخصية شيخه (أبي الحسن علي) ومقامه ووفاته وأولاده... بينما تتكفل الرواية المحلية بتسجيل أن **إدريس والد أحمد**، عاصر وعاش مع أبي الحسن علي وأخيه على الكوسمي بالقرية المذكورة، والتي ما تزال بها عين ماء تسمى (**عين وادريس**) أي إدريس بن محمد بن عبد الله، كما توجد بالقرية (همرة) ذات مرافق هامة تأسست بعد تمدرس الغبريني بالمكتب 650هـ، وحيث يملك الأخوة (جنيتة) وحقوق الأعشار على الرحى المائية هناك.

وحسب التسلسل الوارد في كتاب البستان (لشجرة أحمد بن إدريس. فإن أبا الحسن علي بن محمد (اليتورغي) وعلى الكوسيمي وإدريس بن محمد، ثلاثتهم إخوة ينحدرون من محمد بن عبد الله بن عيسى بن موسى بن إبراهيم بن خالد بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن علي بن إدريس... وهذا يترجم قول ابن خلدون «ولا تزال منهم (الإدارسة) بقايا في الأطراف والجبال، لدى البربر قبل 790هـ

أدارسة زواوة وبجاية:

وقد ألح صاحب كتاب النسب أن أهل بجاية والصحراء جدهم محمد بن عبد الله وهم أخوة (أحمد بن إدريس) دفين جبل زواوة (إيلولة أومالو) وعندما ترجم لأبي عبد الله محمد بن أحمد الإدريسي المعروف بالجزائري وأكّد (حفيد الفقيه الجليل (أبي عبد الله الإدريسي) شيخ الغبريني ورئيس كتبة الديوان ببجاية قبل

704هـ وهذا يخلد مكانة الإدريسي في النصف الثاني في القرن 7هـ في بجاية بعد الانتقال إليها من المقام الأول. ولا نعتقد أن الفقيه الكبير شخص غريب عن إدريس بن محمد بن عبد الله .

ومع أننا لا نعرف ضريح محمد بن عبد الله، كما نعرف ضريح أحمد بن عبد الله، إلا أن الدكتور يحي بوعزيز ربما يكون قد أكمل هذا القصُور بذكره محمد بن عبد الله الجعافرة التي يكون قد هاجر إليها من زواوة وخلف بهما ذرية. يعد ورود ذكر له بجاية

وعندها يكون أحمد بن إدريس بدوره قد مرّ وأقام بجعامزة وبني يمل (أية يمل)بعد العصر البجائي حسب الرواية المحلية التي يدعمها النص التاريخي حول الفقيه الجليل بقرابة 40 سنة.

وقد اهتمت الرواية نفسها بأحمد بن إدريس لدى بني يحل في رمزية جدّ معبّرة، ملحين على رفقته أو بقائه بين ظهرابيهم عندما عزم الرحيل إلى الربوع اليلولية.

آل القاضي وأبناء محمد عبد الله:

غير أن هذه الرواية لم تكتف بترويد هذا المقطع المعبّر في حياة ابن إدريس، بل أنها ربطت بين آل القاضي الأمراء وآل إدريس العلماء، وأشارت إلى شخصية (محمد بن القاضي) مع أحمد بن إدريس، بالرغم من التباعد الزمني بين الشخصيتين.

وهذا يؤكد أن العلاقة والرابطة بين الأسرتين كانت قائمة منذ أن درس الغبريني (ابن القاضي) بمكتب أحمد بن عبد الله بزواوة، رواية يدعمها وجود **ضريح بنفس المقام** لإحدى الشخصيات الملكية في (**تفيلكوت**) غير بعيد من المكان السابق، وفي قرية (**تيزيت**) بنفس الربوع يوجد فرْع (أصلي) من آل القاضي الأمراء.

يعتري حياة المترجم له بعهد طويل شحوب ناتج عن سكوت التاريخ وعن التنقل وعدم الإستقرار، شأن العلماء والعظماء في القرن 8 هجري، لولا إشراقة شمس رجل عاصر أحمد إبن إدريس وتتلمذ عليه، فكتب عنه وعن تاريخ بجاية وزواوة وكامل المغرب.

وبالرغم من أن الحلقة المتصلة بالشيخ أبي العباس بن إدريس واحدة من أخواتها في سلسلة الأحداث والملمات والوقائع التي أجملها صاحب كتاب العبر عهد أبي الحي المديني ومجلسه العلمي حيث قال:

«وكان قدم علينا (748هـ) في حملة السلطان، أبي الحسن عندما ملك إفريقية جماعة من أهل العلم، كان يلزمهم شهود مجلسه ويتجمل بمكانهم فيه، فمنهم شيوخي..

ويضيف «وفي فاتح 749هـ كانت واقعة القيران على السلطان، أبي الحسن أوقفها الطاعون الجارف وثار أهل تونس يقودهم إبن تافراجين (تافراكين) ولكن أبا الحسن نجا إلى سوسة ثم ركب البحر على أسطوله... ولم يذكر من بين ضحايا تونس أو الطاعون أو الثورة شيخه أحمد إبن إدريس، رغم تأكيده بوفاة معظمهم، وترجمته لأكثر من عشرة من شيوخه قضوا في الطاعون الجارف أو في الزوبعة البحرية التي ضربت الأسطول المريني... وسكوته عن أحمد بن إدريس دليل على نجاته من كل ما تقدم.

العلامة أحمد إبن إدريس في المصادر العربية:

كثيرة هي تلك المصادر التي ذكرت أحمد ابن إدريس، في تعابير تتردد من نص إلى آخر مثل الديباج ونيل الإبتهاج والبستان وشجرة النور الزكية والورتلاني وغيرها، وهي تذكر من بين تلامذته:

- عبد الرحمن ابن خلدون 732هـ /806هـ.
- عبد الرحمن الوغليسي المتوفي 786هـ.
- ابن زاغو التلمساني المتوفي 845هـ.
- الشرف الرهوني المتوفي 773 أو 775هـ...

وتجمع المصادر على تأليف ابن إدريس في مواضيع، منها تعاليق على البيوع. وشرح إبن الحاجب، بالرغم من أن فقه ابن **الحاجب** لم يدخل المغرب الأعلى يد أبي على ناصر الدين منصور المشد إلى الزواوي المتوفي 731هـ حسب إبن خلدون

ما يضيف فائدة لترجمة أحمد بن إدريس، هي بلوغه مرتبة التصنيف التي تتطلب مرحلة البلوغ عادة، إياه مقامه ببجاية وأخذه ابن الحاجب على أبي علي ناصر الدين.

ويتجلى لنا أن أبا العباس ابن إدريس من الذين نشروا إبن الحاجب في المغرب

وزواوة على الخصوص بعد 731هـ وربما انفرد بذلك حتى أفتك أهلية تأسيس زاوية بعد إنسحابه عن بجاية 761هـ...

غير أن الذين ترجموا للرجل لم يولوا هذه اللمحة نفس الأهمية التي أوتوها حكاية الإستشفاء بالرقية (الفاتحة) وقد مارسها إبن إدريس على طالب مصاب فشفاه الله، وكان أحد طلبته قد خاب مسعاه حين جرب الفاتحة على مريض آخر، فعاد لشيخه سائلاً متعجباً؟ وأجابه شيخه: هذه الفاتحة... وأين قلب إبن إدريس؟... (وما أحوجنا إلى العمل والعلم بالقلوب (الإدريسية) لابا لشفاه والأهواء حتى تأتي الشفاعة ويحل الشفاء بنا جميعا... ولعلنا ندرك بسرد هذه الحكاية السرَّ الكامن في جذب معهد **ابن إدريس وضريحه بإيلوله** للزوار القصر والمصابين بمختلف الأمراض النفسية حتى يومنا هذا...

أحمد ابن إدريس ببجاية وتونس ومصر:

- إننا لا نكاد نستوفي الكثير من جوانب حياة إمام المغرب، صاحب أول معهد علمي إسلامي بزواوة (زاوية) بعد عصر بجاية وبعد مؤسسة المكتب التي درس فيها الغبريني في 650هـ. ثم معمرة أبي الحسن علي بن محمد اليتورغي (علي تغالاط) وأخيه علي الكوسيمي، قبل 683هـ وحول إبن إدريس **مفتي بجاية** وكبير علمائها فظل مدينين لإبن خلدون وللرواية المحلية المدعية بالعينات والآثار المادية في كل من زواوة وبجاية وهي كلها ذات مرجعية وموثوقية، طالما مورس عليها الطمس إثر سكوت غير بريء في كثير من المواطن والأحقاب...

لقد انفرد ابن خلدون بتغطية أكثر من عشرية كاملة من حياة شيخه الزاهرة بجلائل الأعمال والأحداث، عكست كلها صفحات من التطاحن الأحمق بين بني مرين وبني حفص وبني زيان وبينهم جميعا وبين القبائل والزعماء في زواوة والدواودة وجموع صنهاجة والأعراج. وقد طفت على مسرح الأحداث في عهد المريني منذ 737هـ بسقوط تلمسان، فبجاية وتونس، ولم تنته بموته طريدا منبوذا في جبل المصاهرة سنة 752هـ بل استمرت أطول من ثلاثين سنة.

وخلال هذه الأحداث الجسام سطعت معالم في حياة ابن إدريس وعلماء بجاية وزواوة سجَّلها إخباريون ومصنفون أمثال عبد الرحمن ابن خلدون وأبي عبد

الله ابن مرزوق الرئيس والمقري أحمد..

ولقد كان أول إتصال لابن خلدون بالمريني وبشيخه ابن إدريس في **تونس** الخاضعة، ثم سجل كل الأحداث المريعة بها حتى واقعة الزوبعة البحرية التي دمرت ما بقي في الأسطول والأمل لدى المريني، فيما بين شاطئ (تيقزيرت ودلس) لينجوا بتدخل بعض الجفن إلى الجزائر وهلك غالبية العلماء وحرم السلطـــان ، فأي الأقدار تكون تلك. أهي أقدار بجاية أم إبن إدريس أم إفريقية والمريني وابن خلدون..!

إنها أقدار البلاد والعباد في الربوع البجائية والمغربية، وفي المقدمة أحمد ابن إدريس شيخ الفتيا ببجاية وأبو المؤسسات التعليمية بزواوة، ومع أن ابن خلدون قد مسه أذى في كل هذه التحولات، فلم يذكر شيخه صراحة من بين علماء المجلس العلمي 400 على أسطول المريني في (732 / 752) إلاّ أن المعلومات التي جاء بها بشأنه تكاد تكون المرجع الوحيد، رغم السكوت عن شيخه حتى عند عودته الثانية إلى بجاية (حاجبا) وارتياده بلاد زواوة أو بعد 784 وهو قاصدا حجَّ بيت الله الحرام، وأثناء حديثه عن القاهرة حيث قال: «ومازلنا نتحدث بهذا البلد ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم في الحـديث عنـه. وهكذا يستدل بتعبيره، مازلنا نتحدث بهذا البلد المعطوف على قوله «ومررت في سكك المدينة... وأسواقها... ومازلنا نتحدث..» وينتج عن قراءتنا لهذا النص (متى كان هذا) بصريح النص 784هـ وهي كلها تشرح بقية الظروف... مازلنا نتحدث، ولقد اختلفت عبارات.. حاجهم... ما يوحي بتواجد أحمد ابن إدريس حاجا بالقاهرة في هذه الفترة... فإن ما سجل الرجل هنا كاف للدلالة على أن شيخه كان حيا في 784هـ لأن رجلا كابن خلدون لا يخفى عليه أن يسجل الوفاة لو حصلت بالفعل ولو بتعبير أخلاقي (رحمه الله)، وأنه لن يبخل عنا بأدق الأمور، كما فعل مع صاحبه أبي القاسم البرجي سفير السلطان لملك مصر، مجلس منصرفه من السفارة سنة 756هـ، ولا يتصور عاقل أن يُفَصِّل في ذكر الشيخ البرجي وسفارته. فهي حين يكتفي بمجرد الذكر بسؤال شيخه أبي العباس ابن إدريس، لو حدث ما يستلزم التخصيص.

عصر بجاية:

حوادث بجاية عهد ابن إدريس لم تكن قصيرة العمر، فقد توالت الهزات والثوراة منذ 747هـ، عكس ما يذكره ابن مرزوق تماماً، عندما اكتفى بتسجيل أن علماء بجاية هم الذين تولوا تسليم المريني مفاتيح المدينة[7]. وهو أيضا يسكت عن أحمد ابن إدريس وصحبه، وعن محاولة تمرد وحدثت داخل صفوف السلطان، ردّدها ابن خلدون لمجرد الذكر.

وقائع عاشها أحمد ابن إدريس واكتوى بنيران بعضها، وخصوصا تلك التي تسبب فيها موقف الأمير الحفصي أبي عبد الله، عند تخليه عنها، كتابيا، وبإشهاد للأعيان والعلماء، ومنهم مفتي بجاية، لصالح أبي عنان سنة 753هـ[6].

حادثة كهذه ما كانت لتمر دون رد فعل مثير للبجائيين، فكانت الثورة على عامل المريني (عمر ابن علي الوطاسي)، ثم ثار آخرون بقيادة العلماء ودعوا عامل صاحب قسنطينة إلى المسجد ولكنه لاذ بدار الفتيا لأبي العباس إبن إدريس، فاقتحموا عليه الدار، وظعنوه ليلقوا به من على سقف الدار.. هكذا عند ابن خلدون...[6] وإنها للفتنة الكبرى أو أشد...!

استمرت الاضطرابات بين الطوائف والجماعات، من الموالين للموحدين الحفصيين، والمناصرين لصاحب قسنطينة وتونس والخاضعين لأمل إحياء المغرب الإسلامي في الموحد، ومن الذين أثروا الشخصية البجائية إزاء كل التيارات.. كانت فتنة كبرى، سجل فيها ابن خلدون عن قرب واحتكاك، وهو المقيم بها تحت هذه الظروف، مثل شيخه تماماً، وقد صرح بتعابيره بهذا التواجد وانتظر شهرين عودة الهدوء واستتباب الأوضاع لبني مرين.

تلك السمة المتعارفة بين زوايا زواوة، حتى في عهد الفكون وهو الذي يقر «أن زواوة تشد إليها الرحال لدراسة القراآت التي تختص بها أهم زواياها» في أوائل القرن 11هـ حوالي 1010هـ / 1602م وإن كانت أولاها هي (معمرة على تفالاط) ببني يتورغ التي ذكرها كل من ابن علي الشريف ومحمد بن عميره ومنذ النصف الثاني من القرن 7هـ..

لقد شهد عصر الفكون ميلاد زوايا كثيرة، منها زاوية آل الموهوب بأمالو ثم تيفريت آيت أوماكل ثم زاوية امحمد بن عثمان البتروني وهي فيما بين 1010هـ

ظاهرة الزوايا الحضارية:

ثم توالى تأسيس الزوايا وتتابع بعد العصر اليحائي فبرزت زاوية يحي العيدلي ثم زوايا تلامذته على بن موسى وبهلول بن عاصم الصغير بعزازقة، خلال القرن 9 و10هـ. تماما مثل زاوية لسيدي عمر بن الحاج وأخيه محمد بن الحاج وزاوية سيدي عبد الرحمن اليلوني وعلى بن الطالب خلال الحادي عشر والسابع عشر ميلادي[10](

ومع هذه النتف الشحيحة يظل موضوع التعليم والزوايا بزواوة من المواضيع التي ما تفتأ ترقب كشف غامضها وفك عقالها ورُموزها، على غرار ما فعله الفاضل ابن زكري بزاوية عبد الرحمن البلولي.

(عهد (محمد بن أبي عمر التميمي) الموظف بمرسى دلس والقل قبله، وهو الذي جمع مشائخ بجاية في محرم سنة 754هـ، كما جمع صنهاجة واعتقل منهم (هلال) عريفهم، وخلع على الأشياخ، واقتص من 200 متمرد من الغوغاء.

ومع كل ما ذكره صاحب كتاب العبر، يشتد تأرقنا لهفا إلى معرفة موقع ابن إدريس من هذه الأحداث، كموقفه تماما منها، عندما استبيحت داره كما عرضها ابن خلدون كمجرد حدث. وهو الذي لم يعودنا غير غير العمق والمرجعية الضبط والتحليل من الرواية والمشاهدة بعين ناقدة غالبا، وبأسلوب الأخذ بالوجوه المتعددة للرواية بكل ما تقتضيه من الحكم والتجريح والترجيح...

كلها أسئلة نبتهل بها رجاء أن نُسعف لما يروي القليل من أجل إكمال الصورة، حتى لا تبقى جهداً من منطق (القضاء).. فأحمد ابن إدريس، صاحب أول معهد ثانوي بعد عصر بجاية البراق، وهو فوق ما تقدم من الرواد الأوائل، كوالده وأعمامه بمائة سنة روّاد رسالة التربية والتعليم بالربوع الايلولية بعد (759 ـ 760هـ)

أحمد ابن إدريس بأيلولة:

كان من شأن الأحداث المتلاحقة السالفة الذكر ببجاية أن تحدث الرعب والهجران، رحيلا إلى الجبال الآمنة لزواوة، نجاة بالنفس والعلم والدين والمال والآل.

فكان عصر زواوة المشع منذ النصف الثاني من القرن 8هـ، منذ نزوح أبي العباس ابن إدريس وغيره إلى إيلولة أومالوا ويؤسس (معهد ابن إدريس) بها بعد

761هـ وحسب الرواية المحلية كان مقامه الأول بعد الأوبة بقرية أقوسيم الحالية، عند قرية مهجورة حاليا، بفعل الحرب بين القبائل الشرقية والايلوليين (بين اقشوشن وإيلولة) حسب ما سجله محمد بن عميره [1](وما كان استقراره بربوع إيلولة ليتم بدون حماية منهم ومن بني يعلى، عرف منهم (آيت علي أو محند) وبالأخص عائلة (إيواكوعان)... [2](

ورغم شهرة زاوية ابن إدريس عبر التاريخ، فإننا لا نملك عنها غير نتف وشهادات الطلاب، حول البرنامج وظريقة التدريس، وهي كلها تجمع على تخصص في علم القراءات السبع والعشرة، وعلى علوم اللغة والفقه... [3](

التي تمثل الاستمرار الطبيعي للزاوية الأدريسية، وفية للبرنامج الدراسي، والتسيير، وحتى المشايخ، يكاد ويجمع بينهم عامل المشاركة في التعليم والقيام على الزاويتين بالتداول.

ومع شهرة زاوية ابن إدريس مغربا ومشرقا. كمقصد طلاب العلم من الآفاق البعيدة، شهرة أهلتها لاحتلال مكانة لا تقل أهمية عن الزيتونة والقرويين، لولا العامل الجغرافي الذي طبعها بطابع التنسك والخلوة منذ آخر القرن 8هـ.

شيوخ معهد ابن إدريس:

حسب مخطوط عمود النسب كانت بمثابة زاوية الأسرة دراسة وتدريسا بها، منذ الجد الأول سيدي (يونُس الزلاجي) إلى صاحب العمود. وإذا كان عبد الرحمن الوغليسي تلميذ أحمد ابن إدريس في بجاية فإن يحي العيدلي قد تتلمذ في زاويته، وهو من مشاهير القرن التاسع ببني عيدل، ومثله أحمد ابن إبراهيم النازح من بجاية إلى قرية (هوبلي) بأزفون) عبر إيلولة، حيث يصحبه أتباع ومريدون وطلبة وحماة (جندواخوان) وكانت وفاته 840هـ.

تداول التدريس بالزاوية وربما الدراسة غير واحد من أسرة (الفاسي) الشهيرة، نخصُّ بالذكر منهم أشهرهم بزواوة (محمد الفاسي) المعروف (بسيوطي زمانه)، المتوفي في 1096هـ / 1688م. [12](.

كما أقام بها كل من أحمد السعدي الدّلسي وتلميذه عبد الرحمن اليلولي، صاحب المعهد المجاور بأقل من مائة متر، وهو يدوره ساح كثيرا في زواوة قبل

الإستقرار بإيلولة، فمن يني يعلى إلى بني ييراقن إلى مزرانة حيث تشهد عنات وآثار على مقامه بها كعين الماء وقبة تذكارية (مصلاة) أو خلوة كما يقال . وأهم الخلوات بإيلولة هي قمة (تيزيبرت) الجرداء، ومعناها (فج اللبؤات)... حيث يروى محليا انزواء الأربعة الصالحين للقرن 17م طلبة زاوية أحمد ابن إدريس ومنهم سيدي منصور الجنادي (المنيعي) المتوفي 1645م.

ومن الشيوخ المشهود مُرورهم بزواوة دارسن أو مدرسين، الشيخ أحمد بن عبد العظيم الدفين بجوار محمد بن الموهوب بأمالو ، وربما لإمام الزيتوني لأجل عبد الرحمن الخليفوني المتوفي بها سنة 1142هـ /1729م حسب إحدى الوثائق الإدارية التركية لآل إبراهيمي في كوكو ... زاوية على بن الطالب بها وهي الإشعاع الديني والتصوفي والسياسي بزواوة منذ القرن 17م عهد الامارة القاضوية الشهيرة وعهد وليها علي والطالب الذي كان حيا في 1632م وربما تكون وفاته بعد 1693هـ 1693م حسب البلاطة التنكارية التي حصلنا على نص منها.

التعليم الزاوي بزواوة:

الجدير بالتسجيل هو أن التعليم بالزاوية مرتبط كل الإرتباط بشخصية الشيخ المتدب، وبسمعته العلمية وكفاءته، وبالرغم من الفترة المنسوبة للمشيخة، فإن بعض الشيوخ قد تتجاوز إقامتهم بها أربعين سنة.

وشهرة زواوة وزواياها بالقراآت السبع والعشر هي التي أوحت لأحد المشائخ برجز كتاب كامل في القراآت، تسهيلا للحفظ الشائد في الزوايا، واشتهر (ابن مفزع) في كامل زواوة والمغرب وهو (لابن بري) رَجَزَ كتابه (المجدادي) السلاوي حسب المخطوط ـ وسماه مختصر (كتاب الدرر اللوامح) وفي 22 صفحة اشتملت على 19 بابا وفي المواضيع المختلفة في الرسم والالقاء والسكون والترخيم وغيرها.

ونحن بصدد ذكر المشائخ لابد من تحقيق ما ورد في ترجيم محمد بن عمر الهواري (الوهراني) المتوفي سنة 843هـ حيث ذكِرَت دراسته علن أحمد ابن إدريس (الوانغيلي) وعبد الرحمن الوغليسي

وهنا لا يمكن المرور دون إلقاء بعض التنبيهات، استعجاليا بلفت الإنتباه، رجاء رفع اللّبس. وأولاها هي المصطلح الوارد في مختلف الكتب مثل شجرة النور

الزكية، والجزائر الثقافي للدكتور سعد الله وهو (كنية) أحمد ابن إدريس الوانغيلي، أو الوانقيلي أو (الوانجيلي)، أول لقب يرد لابن إدريس، والونغيلي أسرة شهيرة بفاس من علمائها (الوانغيلي) مفتي فاس المتوفي 779هـ حسب درة الحجال لابن القاضي.

وثاني تنبيه يتعلق بدراسة الهواري على أحمد ابن إدريس علماً بأن الفارق الرفاني بين الاثنين كبير، فالأول توفي في 843هـ والثاني فقدنا أخباره بعد 761هـ وما بين التاريخين ثمانون سنة ، فكيف يدرس الهواري إذن على أحمد ابن إدريس ويقيم ببجاية أو زواوة 14 سنة ، علي بأن فترة ما بعد 761 هي عهد معهد ابن إدريس الأيلولي، ونحن نعتقد أن الهواري الذي أقام بها 14 سنة درس فقط في زاوية ابن إدريس وهو الأصح والأرجح، إلا إذا امتدت عمر ابن إدريس إلى ما بعد 780هـ.

وثالث تنبيه يتصل بالولي سيد أحمد بن يوسف دفين مليانة فهو أيضا أقام بزواوة ودرس بالزاوية كما تزوّج وخلّف ذرية كثيرة هي حاليا تمثل قرية (آيت أحمد بن يوسف) لدى زوخفاوة . ولكننا لا نفرق موقع الزاوية البترونية أو المنجلاتية التي أسسها بن يوسف فهل هي مقام لسيدي المنجلاتي الحالي، أو زاوية سيدي أحمد أو معلم، فلا نعرف زوايا أخرى بهذه الربوع قبل 1537م تاريخ وفاة بن يوسف.

الظاهرة المزاوية:

وفي مستهل الفترة الحديثة من القرن 17م شهدت زواوة وأيلولة ميلاد (معاهد زوايا) بشكل سائر إلى أن تؤسس كل عائلة مرابطية زاويتها، في تنافس ورع وسباق محموم.

ومنذ تأسيس زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي المصباحي الخردوشي المتوفي 1105هـ ـ 1693م وهي متصلة الجناح بمعهد ابن إدريس حيث تقام صلاة الجمعة، ولا تقام أبدا بالزاوية الناشئة، ما يرمز لقضية الولاء والوفاء بين الزوايا وبين المشائخ...

إن حدث كان من شأنه أن حوّل عبد الرحمن اليلولي إلى صباح ومعهد ابن

إدريس إلى مصباح، حسب تعبير الشيخ أحمد السعدي الدلسي وما بين المصباح والصباح ظل التنافس قائما بين طلبتي الزاويتين قيام النفس في الروح يشرق الحياة لكل كائن. ورغم الإختلاف الهام في القانون والإنتساب والتسيير والبرنامج فكلاهما مكملة للأخرى بحكم التضامن ووحدة الرسالة والضغوط بالمحيط.

فزاوية أحمد ابن إدريس تعتمد التسيير الذاتي للطلبة المرهون لمجلس من أعيان أيلولة، بينما تكتفي الزاوية الفتية بمجلس طلابي ميادم الأشغال والوقوف على شؤون المعهد. إلى جانب لجنة من عقلاء الطلبة القدماء تستدعي فقط عند الضرورة التي تكتسي خطورة اتخاذ القرار. وإذا كان طلبة سيدي عبد الرحمن يختارون مشائخهم، وينهون مهامهم دون ضغط أو وصاية، عدا الاستشارة للشيوخ والطلبة الأقدم. فإن معهد ابن إدريس يحُدُّ من صلاحيات لجنة الطلاب، ولا تفويض لهم باختيار أو خلع الشيوخ، بل أن أحداثا ووقائع تسجل صراعات وانقسامات أحاطت ببعض الشيوخ من مختلف العهود، لا سيما القرن 19 و20. صراعات عنيفة جذبت أنصارا ومريدين وتكتلات متناصرة، استهدفت بعض الشيوخ خلعاً أو تعينا، ومصدرها دائما هو الهيآت المدنية المحلية للتسيير، ربما لم تكن تسمو إلى التميز بين الذاتية والولاء والصالح العام. وهذا ما شكل وجه الخلاف السلبي عن العهد المجاور، كما مثل دوماً مناخا ميسِّرا لنمو بعض الطفيلات كانت دوما سيَّاقة إلى التجاوزات وبعض الإنحرافات من (الهيآت المدنية) من الموالية للسلفة والمناهضة لها. وقد حدثت اعتداءات مثل الذي تعرَّض له الشيخ الهادي حسب الورتلاني قبل 1765م[2].

القانون بالزوايا:

ومن وجوه الاختلاف بين الزاويتين ما يكمن في قانون الانتساب ففي معهد ابن إدريس يقبل كل من يحتمي بها ويلوذ بحرمها، وهي أشبه ما تكون بالزاوية الصوفية (الطرقية) ينطوي تحت لوائها الإخوان والمريدون من مختلف الأعمار، مؤقتا أو موسميا أم دائما، لإقامة الشعائر الطرقية، وإحياء حفلات الذكر وفق طقوس تصحبها مظاهر المدائح العلانية الغنائية والراقصة، حتى يومنا هذا...

إلى جانب المتقدم ذكرهم يوجد فريق الطلبة في القداديش والمقدمين ومختلف المراتب والمستويات أعماراً أو تحصيلاً.. وهم يخضعون لنفس القانون السيد في زاوية المحاورة. يكلفون بكل المهام، وفي مقدمتها جمع أرزاق الزاوية من القبائل

الشرقية حتى البرج لدى مجانة، حبوبا وزيتا وتينا وأخلاقاً.

وفي مواسم الشيخ والمسغبة تدعم المخازن (بالشحاتة) لدى القرن في أيلولة وخارجها، وهي الظاهرة المشتركة بين كل الزوايا، وهي أن توفد زمرة من (القداديش) لقرية من أجل تحصيل هبات الموسورين وصدقات أولى البرّ وذلك بحسب المواسم.

فميزة ابن إدريس ازاء الزاوية الجارة هي أنها تقبل كل انتساب دون شرط السّن أو أي شرط مسبق، وتجمع بين الطلبة وبين (الاخوان) فهي أشبه بالزاوية السنوسية والتيجانية ومختلف خوانق الصحراء التي تجمع جيشا من طلبة العلم وآخر من الزوار والمريدين، عابري سبيل كالقوافل، أم هم مقيمون بها أو حواليها، وهم فئة (الاخوان) أتباع الطريقة، ولا يوجد نظام ذي حصانة حيث يتواجد هذا الحشد الغير متجانس، مهما كانت صرامة القانون إلى حدّ الجلد والنبذ بعد التغديم والسخرة وغيرها.

ولا غرابة في ان تقع بعض التجاوزات الفردية، ييسّر وقوعها ردود فعل عامة (حالات التجنيد والتسلح) دفاعا، دائما وليست هجوما واعتداء، أبداً... [3] (وغالبا ما تنتج عن النزاع حول الاوقاف والأحباس أو حيوانات الزوايا. وبالخصوص الأملاك التي هي عرضة للسطو والإلحاق من الجبارين أو من الشخصيات الدّولية.. وهو ما تعرضت له الزوايا وما تزال..

هذه الوقائع العادية، هي التي استغلتها بعض الأوساط، بما فيها السلطة، فرنسية كانت أم تركية، وألحقت تشويها ومسخا بمعهد ابن إدريس وطلبته (طلبة الديوز) وهي ظاهرة ليست خاصة بها، بل شائعة في كل الزوايا، كلما تطلب الاقصاء التلاحم والتضحية، دفاعاً عن حرمات الزاوية وأملاكها، وعن أبنائها وحقوقها في وجه أي معتمد كان...؟

الدور الظلائعي للزاوية الإدريسية:

إنها القطرات التي أفتلها الإستعمار، وأوقدها بزيت الجهلة والأحلاف والحزم بالجحان، ينسج جملة شعواء حول معهد ابن إدريس و(طلبة الديوز)... أولئك الذين كانوا أوائل المجاهدين في أولى الثورات 1854 وفي ثورة 1871 كما في الثورة

الكبرى. واقع حَريٌّ بأن يؤهل الزاوية إلى رباط (معصوم) في الاستعمار لم يخضع ولم يعترف بغير سلطته والله وشريعته...

ولعل خير ما (تختم) به موضوعنا اضطراراً إنما هو تسجيل متعجل لمشائخ المعهد خلال العهود القريبة مثل الشيخ السعيد الزلالي ومحمد بن عميره، عدة مرات، وأرزقي أبو يعلي والد الشيخ محمد أمزيان، والطيب وعمارة، والشيخ العربي وعمارة (القمقوم) والشيخ محمد الطيب أعشابو، وآخرهم الذين قضى بها أكثر من 40 سنة، الرجل الذي وهب حياته، لمعهد ابن إدريس. والذي وفق في تثمير جليل للموارد والطاقات بالزاويتين، لضمان الاستمرار في قالب الإصلاح والتطوير إلى المعهد الإسلامي (عبد الرحمن اليلولي)... وإن لقليل من الكثير مما يجب أن يقال حول الرجل الصوفي الناسك الذي لا (خلق ولا سلف له في الحياة) وأقل القليل مما نسديه له، هو ذكر جهاده ضدّ الظلال والإنحراف، وإحيائه معهدي ابن إدريس وعبد الرحمن اليلولي، بعد أن ربط الإستعمار بهما خيله وحميره وجنده، وأثر قنبلتهما جزاء للدور العلاني الذي مامتا به خلال الثورة الكبرى.

إنها كلمتنا عساها تترحم على شيخنا الحاج الذي وافته المنية ليترك (أطرفة رواتبه) مغلقة، وقفا على الزاويتين وطلبتهما. وقد كان عمره كله وقفا على خدمة زوايا زواوة شيخا وقيما إن المرحوم الحاج محمد السعيد البحري آخر دفين الزاوية المعهد...

المراجع المعتمدة:

(1) محمد بن عميرة، عمود الشب.

(2) محمد السعيد بن علي الشريف: الاستبصار بتفصيل الأزمان وتاريخ البوادي والأمصار.

(3) وثائق إدارية تركية ومراسلات وعينات مادية...

(4) ابن برى التازي 734هـ، الدرر اللوامح في أصل مقرئ الإمام نافع.

(5) أبو القاسم البوجليلي، التبصيرة في القرآن.

(6) عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر... ج 7، و1.

(7) ابن مرزوق الخطيب: المسند الصحيح الحسن في أخبار مولانا أبي الحسن.

(8) أبو العباس أحمد (المقري) نفح الطيب...

(9) أبو العباس احمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من على إلمائة السابعة ببجاية.

(10) الورتلاني الحسن: الرحلة الورتلانية.

(11) محمد السعيد ابن زكري: أوضح الدلائل في وجوب إصلاح الزوايا ببلاد القبائل...

(12) عبد الكريم (الفكون)، منشور الهداية، تقديم الدكتور سعد الله.

(13) الحاج صادوق... مليانة ووليها أحمد بن يوسف.

(14) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ج 1و 2.

(15) يحي بو عزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية.

(16) مخلوف محمد: شجرة النور الزكية. أحمند بن القاضي، أبي العباس أحمد محمد المكناسي.

(17) درة الحجال في أسحاء الرجال (ذيل وفيات الأعيان)

(18) محمد بوشغيب: أم الحواضر قسنطينة.

— السيد علي أمقران سحنوني مقال يحي العيدلي هذا الرجل المجهول. (مجلة التاريخ)

ثالثا:

التاريخ الحديث والمعاصر

المعاهدة الجزائرية الإسبانية
(1791)

ناصر الدين سعيدوني

اتصفت العلاقات الجزائرية الإسبانية طيلة العهد العثماني بالعداء وغلب عليها طابع التحدي، نظرا لموقف إسبانيا المعادي للنشاط البحري الجزائري وتمسكها باحتلال وهران والمرسى الكبير، فلم يوضع حد لهذه الحالة من التوتر إلا بإقرار هدنة في أواخر عهد الداي محمد عثمان باشا (1786) والتوصل بعد ذلك عند اعتلاء حسن باشا منصب الداي إلى المصادقة على معاهدة سلم وصداقة (1791).

وقد ساعد على تقريب وجهات النظر ودفع حكام البلدين (الجزائر وإسبانيا) إلى البحث عن إتفاق مصالحة وسلام، ظروف إسبانيا وأوضاع الجزائر آنذاك.

فإسبانيا التي تعاقب على حكمها من أسرة البربون كل من فيليب الخامس (1700 ـ 1746) حفيد لويس الرابع عشر، وإبنه فردناندو السادس (1746 ـ 1759) وكارلوس الثالث (1759 ـ 1788) وكارلوس الرابع (1788 ـ 1808). واجهت حلفادوليا معاديا (الحلف الرباعي) وتعرضت للضغوط الإنكليزية المعادية لأي تحالف بين فرعي أسرة البوربون بفرنسا وإسبانيا. كما كان لانفصال البرتغال عنها وضياع ممتلكاتها الأوربية ببلجيكا وإيطاليا تأثير مباشر على سياسيتها، وهذا ما دفع كارلوس الثالث إلى السعي لتكوين تآلف مع العرش الفرنسي في نطاق الروابط العائلية لأسرة آل بوربون التي كانت تحكم إسبانيا وفرنسا، وقد تأكد هذا المسعى في عقد معاهدات العائلة المالكة (Pactes de famille) في سنوات 1743، 1761 و1763، بغرض الدفاع عن المصالح والممتلكات الإسبانية الفرنسية والوقوف في وجه المنافسة الإنكليزية.

هذا وقد عرفت إسبانيا أثناء حكم كارلوس الثالث إصلاحات إدارية ونشاطاً اقتصاديا ساعدها على زيادة قدرتها العسكرية وبناء أسطولها البحري، وهذا ما شجع البلاط الإسباني على انتهاج سياسة تهدف لوضع حد للنشاط البحري الجزائري وتأمين الخطوط الملاحية بالحوض الغربي للمتوسط والسعي لإقامة مراكز تجارية على الشواطئ الإفريقية المقابلة للسواحل الإسبانية، وقد بدأ هذا التوجه بإجراء أول إتصالات إسبانية جزائرية في شأن تبادل الأسرى أو افتدائهم سنة 1767، لكنها لم تلبث ان غيرت أسلوبها وانتهجت سياسة التهديد والضغط ازاء الجزائر، مما أدى إلى اصطدامات حربية بين البلدين، لم يحقق الإسبان من ورائها أي مكسب، بل ألحقت بهم خسائر جسيمة أثناء حملات سنوات 1775 و1783 و1784.

وأثناء ذلك عرفت الجزائر، منذ منتصف القرن الثامن عشر استقرارا سياسيا أثناء حكم الداي محمد عثمان باشا (1766 ـ 1790)، الذي انتهج سياسة حازمة مع الدول الأوربية وعلى رأسها انكلترا وفرنسا، فشدد الرقابة على الامتيازات الفرنسية عند تجديد هذه الإمتيازات سنوات 1767 و1768 و1790 وحد من نفوذ قنصل الإنكيز الذي اضطر إلى مغادرة الجزائر 1783 ورفع قيمة الاتاوات السنوية للدول التي كانت تنتفع بالتبادل التجاري مع الجزائر دون أن ترتبط بمعاهدات معها مثل البندقية وهولندا والسويد والدانمارك في الوقت الذي رفض فيه أي إتفاق سلام ومصالحة مع روسيا لعدائها التقليدي للدولة العثمانية، وأبقى العلاقات متوترة مع إسبانيا لنزعتها الصليبية وتمسكها بوهران والمرسى الكبير.

وحتى يكون لهذه السياسة التي انتهجها محمد عثمان باشا تأثير على علاقات الجزائر بالدول الأوربية، فإن البحرية الجزائرية، دأبت على التصدي لسفن الدول المعادية أو التي لم تكن ترتبط مع الجزائر بمعاهدات سلام وصداقة، وقد تمكنت السفن الجزائرية بقيادة رياس بحر مشهورين أمثال الحاج سليمان وبن يونس وبن زرمان وحميدو من الحصول على غنائم وفيرة وأسر عدد كبير من الأوربيين قدر عددهم بحوالي ثمانية عشر ألف أسير منهم ما لا يقل عن عشرة آلاف من الإسبانيين حسب رواية الشريف الزهار.

وهذا ما أدى إلى حدوث اصطدامات بحرية مع الدانمارك (1770) ومع

إسبانيا التي جردت ضد الجزائر ثلاث حملات متتالية 1184هـ، 1775م ـ 1197هـ، 1783م ـ 1198هـ، 1784م. كانت تقليدا ساذجا واستمرارا للسياسة العدائية التي انتهجها لويس الرابع عشر الفرنسي مع الجزائر والتي كلفته غاليا دون أن يحقق من ورائها أي مكسب.

وحتى نضع العلاقة الجزائرية الإسبانية في إطارها الحقيقي فإنه يتوجب علينا الإشارة إلى هذه الحملات الإسبانية الثلاث، فهي تعكس الجهد الذي بذله الإسبان في مواجهة الجزائر وتبرز التحدي الذي واجهته الجزائر والخسائر التي ألحقت بها من جراء تلك الهجمات، فالحملة الأولى التي تولى قيادتها الكونت أوريلي (C. O'Reilly) سنة 1775م والتي تعرضت لها العديد من المصادر بالتفصيل والتعليق، قد شارك فيها ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين ألف رجل وخمسمائة سفينة من مختلف الأصناف وحشد الداي محمد عثمان باشا لمواجهتها على شواطئ وادي الحراش والحامة ما لا يقل عن خمسين ألفا من الجنود والمتطوعين.

أما الحملة الثانية التي أوكلت قيادتها إلى الدون أنطونيو بارسيلو (A. Barcelo) فقد جند لها الإسبان ما لا يقل عن ست وسبعين سفينة وأحدثت أضرارا كبيرة بمدينة الجزائر بفعل تمكنها من إلقاء خمس وسبعين ألف قذيفة واجهها الجزائريون بتوجيه ما لا يقل عن خمسة عشر ألف قنبلة طيلة أيام الهجوم التي استمر من الأول إلى التاسع من شهر أوت (1783).

هذا وقد كانت الحملة الثالثة التي تولى قيادتها نفس قائد الحملة السابقة تكرارا لنفس الخطة، فقد شاركت فيها مائة وثلاثون سفينة إسبانية من مختلف الأصناف وتمكنت بالفعل من توجيه 15.150 قذيفة لمدينة وميناء الجزائر أثناء تواجدها في خليج الجزائر من 29 جويلية إلى 9 أوت (1784).

كل هذه الحملات البحرية التي كلّفت الخزينة الإسبانية غاليا لم تسفر على مكاسب ملموسة فلم تحقق ما كانت إسبانيا تأمله منها من إطلاق الأسرى المسيحيين والحصول على إمتيازات تجارية وإقرار أمن الملاحة بالحوض الغربي للمتوسط وذلك لتفطن الجزائريين لخططها وعملهم على تحصين مدينة الجزائر وتدعيم دفاعاتها، مع تنظيم الدفاع باستخدام فرق الانكشارية المدربة واستقدام المتطوعين من داخل البلاد. وهذا ما دفع الحكام الإسبان إلى الإقتناع بعدم الفائدة من الإستمرار في هذه

السياسة المعتمدة على القوة العسكرية، بل جعلهم يقتنعون مع مرور الوقت بضرورة اقرار هدنة بغرض التوصل إلى إمضاء معاهدة سلام وصداقة مع دولة الجزائر، لا سيما وأن أوضاع إسبانيا لم تساعد على إستمرار هذه السياسة المعتمدة على شن الحملات البحرية على الجزائر، فقد تعرضت إسبانيا منذ أواخر عهد كارلوس الثالث لأزمة إقتصادية، اعقبها في عهد كارلوس الرابع اضطراب سياسي زاده النزاع والتنافس بين أفراد الأسرة المالكة حدّة، وهذا ما ساعد نابليون بونابرت في آخر الأمر أن يضع نهاية غير مشرفة لأسرة البربون بإسبانيا بتنصيب أخيه جوزيف على العرش الإسباني (1808)، وقد كان لهذه التطورات دخل في تحول إسبانيا من سياسة القوة والمواجهة في علاقاتها مع الجزائر إلى إنتهاج أسلوب المهادنة والتصالح وهذا ما سمح بعقد معاهدة سلم وصداقة (1791) سمحت للإسبان بالإنسحاب من وهران والمرسى الكبير بشروط ملائمة حفظت لهم هيبتهم.

فبفعل هذه الظروف بدأت الإتصالات في شأن التوصل إلى إتفاق بين البلدين بعد سنتين من الحملة الأولى (1777) وتأكدت بخطابات متبادلة بين وكيل الحرج الجزائري حسن آغا، ابن أخ الداي عثمان باشا والوزير الأول الإسباني الكوند دوفلوريدا بلانكا (Le conde de florida blanca) وهذا ما سمح بعد فشل الحملتين الثانية والثالثة بالقيام بالمساعي الرسمية بغرض التوصل إلى اتفاق، هدنة في أوائل شهر جوان 1785 من طرف مندوبين إسبانيين هما الكونت ديسبي (Conte d'Expilly) والأميرال مازاريدو (Mazarido) وبمساعدة من القنصل الفرنسي بالجزائر دوكرسي (DE Kercy) الذي حاول جاهداً تقريب وجهات النظر بين الجانبين خدمة للبلاط الإسباني المتحالف مع فرنسا.

هذا وقد تكللت هذه المفاوضات بالنجاح بعد سنة من الإتصالات والمباحثات بعد أن تمكن وكيل الحرج حسن آغا الذي كانت له إتصالات وثيقة بالإسبان، من إقناع الداي محمد عثمان باشا بحسن نوايا البلاط الإسباني وجدّية العروض التي تقدم بها من أجل التوصل إلى إقرار سلام مع الجزائر. وبذلك توصل الطرفان الجزائري والإسباني إلى إقرار هدنة وإعلان حالة سلام بين البلدين في 17 شعبان 1200هـ

الموافق لـ 14 جوان 1786م والتي أصبحت سارية المفعول بعد أن وقع بنودها الداي محمد عثمان باشا بإسم الجزائر، وامضاها الكونت ديسبي والأميرال مازاريدو قائد العمارة البحرية نيابة عن ملك إسبانيا كارلوس الثالث.

وقد جاء نص هذا الإتفاق الذي اعتبره بعض الكتاب خطأ، معاهدة على شاكلة الإتفاقيات التي اعتادت الجزائر إبرامها مع فرنسا خاصة، فقد تضمنت بنوده الخمسة والعشرون للطرفين الجزائري والإسباني حقوقا جمركية وامتيازات تجارية وصلاحيات قنصلية وإجراءات أمنية، فالبنود: الأول والثاني والثالث والسابع عشر (1 ـ 2 ـ 3 ـ 17) تقر حالة السلم وضمان حرية الملاحة والتبادل التجاري للطرفين مع بيان بإجراءات تفتيش السفن وإمكانية التجائها إلى المرافىء الجزائرية أو الإسبانية، والحالات التي يتم فيها تعويض الخسائر عند وقوع إعتداء عليها من أي طرف عملا بمبدأ المعاملة بالمثل.

والبندان: الرابع والثامن (4 ـ 8) ينصان على إمكانية حماية سفن الطرفين داخل الموانىء أو عند مغادرتها، مع الإلتزام بعدم تقديم يد العون والمساعدة للدولة المعادية لأي طرف. هذا بينما تتعلق البنود: السابع، التاسع والثامن عشر (7 ـ 9 ـ 18) برسوم الجمارك وإجراءات شحن البضائع، مع التأكيد على ضرورة حصول السفن الإسبانية التي تتعامل تجاريا مع الجزائر على رخصة لهذا النشاط وإسقاط الرسوم على السفن التي ترسو بالموانىء دون أن تفرغ حمولتها أو تقوم بشحن سلع أو بضائع.

أما البنود العاشر والثاني عشر والرابع عشر والخامس عشر والتاسع عشر (10 ـ 12 ـ 14 ـ 15 ـ 19) فتوضح حقوق القنصل الإسباني بالجزائر إذ خوّل له ما كان يتمتع به القنصل الفرنسي من رفع العلم على مقره واختياره الترجمان والوكيل التجاري الخاص به وإعطائه حرية زيارة السفن الإسبانية بالموانىء الجزائرية مع إعفائه شخصيا من دفع جميع رسوم الجمارك وعدم تحميله وزر التجار الإسبان إلا إذا أقر بذلك كتابيا على نفسه، هذا في مقابل أن يكون لداي الجزائر الحق في تعيين من ينوب عنه بإحدى المراسي الإسبانية، واعتبار هذا النائب بمثابة الممثل الرسمي لدولة الجزائر بمملكة إسبانيا.

يضاف إلى هذه البنود: الحادي عشر والثالث عشر والسادس عشر (11 ـ

13 ـ 16) التي أقرت حرية ممارسة الشعائر الدينية للإسبان بالجزائر وكفلت لهم حق افتداء الأسرى والتقاضي بالجزائر أمام مجلس الباشا أو ديوان الانكشارية وتنفيذ العقوبات الصادرة في حقهم في حضور القنصل الإسباني مع عدم اعتباره مسؤولا عن رعاياه في حالة فرارهم من العدالة الجزائرية.

هذا وينص البندان العشرون والواحد والعشرون (20 ـ 21) على عدم مهاجمة وهران والمرسى الكبير والتضييق عليهما من طرف الداي بالجزائر أو باي الغرب بمعسكر في مقابل امتناع الإسبان عن إرسال أي مركب قد يعتبره الطرف الجزائري عملا عدائيا إلا بالرجوع إلى السلطات الجزائرية.

وفي الأخير تتضمن البنود: الثالث والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون (23 ـ 24 ـ 25) الإجراءات المتخذة في حالة تجدد العداء بين إسبانيا والجزائر، بحيث يكون لرعايا كل طرف مهلة ثلاثة أيام حتى يتمكنوا من تسوية أعمالهم ومغادرة البلاد، أما في حالة إقرار السلام فإن البحارة الجزائريين يمتنعون عن مهاجمة السواحل الإسبانية والبابوية، ولا يتعرضون بالأذى للشخصيات التي اسبغ عليها ملك إسبانيا حمايته، هذا مع عدم قبول التجاء العبيد أو الأسرى إلى سفن بني جلدتهم عند ترددها على السواحل أو الموانىء وذلك بالنسبة لكلا الطرفين.

وبذلك يكون هذا الإتفاق بما تضمنه من إجراءات وما نص عليه من حقوق وواجبات إلتزم بها الطرفان الجزائري والإسباني قد أغفل التعرض لحجر الزاوية في العلاقات الإسبانية ـ الجزائرية المتوترة وهو تحقيق مطلب الجزائريين في استرجاع وهران والمرسى الكبير الذي لم تتطرق إليه بنود الإتفاق، فحتى البند الواحد والعشرون الذي أشار إلى وضعية وهران لم ينص سوى على ضرورة الإمتناع عن أي هجوم قد تتعرض له وهران من طرف قوات باي الغرب، مع عدم تحمل حاكم الجزائر تبعية أي مناوشات قد يتسبب فيها العصاة أو المتطرفون من الأهالي.

وهذا ما يطرح عدة تساؤلات بل يثير بعض الشكوك حول صحة نص هذا الإتفاق وسلامته من التحريف أو التزوير، لا سيما وأن بعض المؤرخين مثل مرسيي وقرامون (Mercier, Grammont) يؤكدون على أن إتفاق 1786 تضمن صراحة موافقة الإسبان على الإنسحاب من وهران والمرسى الكبير مقابل الضمانات والتعهدات التي أعطيت لهم، وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن

الاحتمالات الواردة في شأن هذا التناقض بين ما ورد في النص الإسباني للإتفاق وما كان متعارفاً عليه يعود إما إلى كون النسخة الإسبانية قد وقع فيها تحوير أو حذف لبعض الفقرات دون الإخلال عملياً بمضمون الإتفاق باعتبار أن النص الإسباني نسخة موجهة أساساً للرأي العام الإسباني الذي كان يرى في التخلي أو الإنسحاب من وهران عملاً غير مشرف للعرش الإسباني وسلوكاً يتنافى وكرامة الإسبانيين، لا سيما وأن نداء فيليب الخامس (Phillipe V) للجنود الإسبان، الذين استرجعوا وهران 1732 لا يزال صداه يتردد في البلاط الإسباني ويؤثر في رجال الكنيسة «فاسترجاع وهران حسب هذا النداء ـ كان بمثابة نصر مؤزر لإسبانيا والمسيحية» لأنها ظلت دوماً تحت حكم المسلمين باباً مغلقاً أمام انتشار الدين المسيحي المقدس ومنفذاً مفتوحاً لاستعباد وأسر سكان الشواطئ الإسبانية المقابلة.

أو يرجع إلى أن النص الإسباني وقعت مراجعته وتنقيحه فيما بعد عن عمد حتى لا تطرح قضية الجلاء عن وهران والمرسى الكبير وذلك لأن الحكام الإسبان كانوا يأملون في أن المبالغ المالية الطائلة كفيلة بصرف حكام الجزائر عن إصرارهم على التمسك بمطلبهم المتمثل في إسترجاع وهران والمرسى الكبير، هذا مع عدم استبعاد كون الإسبان كانوا ينتظرون نهاية الداي محمد عثمان باشا الذي تجاوز الثمانين من عمره وتولية ابن أخيه وكيل الحرج حسن المتفهم لمطالبهم وذلك حتى يتمكنوا من عقد معاهدة بشروط مرضية.

ومما يرجح أن النيات الإسبانية لم تكن صادقة في تعهدها بالإلتزام بنصوص إتفاق الهدنة لسنة 1786 ما ورد في رسالة كان قد بعث بها الداي محمد عثمان باشا إلى الكونت دي فلوريدا بلانكا مؤرخة في 9 رجب 1201 الموافق لـ 24 أفريل 1787، ذكر فيها أن الكونـد دي سيبي قام بتغيير بعض فقرات الصلح بحيث حور ثلاثة بنود وهي البند الرابع المتعلق بالتجارة والبند العشرون الخاص بوهران والبند الخامس والعشرون الذي وردت فيه إجراءات تخص شواطىء الدولة البابوية بإيطاليا وقد أعرب الداي عن رأيه في هذه المراسلة بأنه يعتبر ذلك غدراً وخيانة من دي سيبي وأنه من الضروري إعادة العمل بهذه البنود حسب نصها الأصلي مؤكدا رفضه لأي تحوير وعدم قبوله إطلاقا بتفسير البند الأخير أي الخامس والعشرون لأن حرمة المراكب الإسبانية حسب نص الإتفاق الأصلي مقيدة بمسافة رمي مدفع من

الشواطىء الإسبانية أما غيرها من الشواطىء. فلا دخل للإسبان فيها ولا يحكمها عقد صالح بين البلدين.

هذا وبغض النظر عن هذه التساؤلات التي تظل مطروحة، فإن إتفاق الهدنة لعام 1786 قد وضع أسس تفاهم جزائري ـ إسباني بتصفية الخلافات المالية المترتبة عن الخسائر التي ألحقتها الحملات الإسبانية بالجزائر وقد كفلت للجزائر مبلغاً مالياً معتبراً أشار إليه نقيب الإشراف الشريف الزهار بقوله «... ودفع الإصبانيول ثمن الصلح وغرامة مائة سنة سلفا... وقد تعمرت بذلك المال الخزينة الأولى والثانية ووضعوا في الثالثة هذا خلاف ما دفع عن الأسرى لأهل البلاد» كما ذكره أبوراس الناصري بقوله: «ثم جاؤوا (أي الإسبان) طالبين الصلح في الحال باذلين القناطير من الأموال يدفعونها... لما أيسوا من الظفر».

وبهذا تكون هدنة عام 1786 عبارة عن خطوة ممهدة للوصول إلى إقرار معاهدة بين إسبانيا والجزائر وهذا ما يبرزها في شكل عملية مقايضة للمال الإسباني مقابل التسهيلات الجزائرية. ومما يؤكد هذه الصفة التي اتخذها إتفاق الهدنة تلك المفاوضات والمواقف التي أحاطت بها، فقد كان أعضاء الديوان في أول الأمر يطالبون بتعويض إجمالي يقدر بثلاثة ملايين قرش إسباني، فيما لم يلتزم المندوب الإسباني إلا بدفع 400 ألف سكة جزائرية أي ما يعادل أربعة ملايين جنيه تورنوا، وبعد أخذ ورد، إتفق الطرفان على تحديد مبلغ التعويضات بمليون قرش إسباني مع الهدايا القنصلية التي ترك أمر تحديدها إلى وقت لاحق حيث انتهى الإتفاق بشأنها إلى رفعها إلى 800 291 قرش إسباني يكون نصيب الداي منها 60 ألف قرش والباقي لموظفي الدولة حسب رتبهم واستحقاقهم ابتداءا من خوجة الخيل الذي صرفت له 20 ألف قرش...

على أن تحول الموقف الإسباني في السنوات الخمس التالية من التشبث بإتفاق تجاري وامتيازات قنصلية إلى التسليم بمطلب الجزائريين المتمثل في الإنسحاب من وهران والمرسى الكبير، يعود إلى عوامل مساعدة وأسباب مباشرة منها:

1 ـ محاصرة وهران والمرسى الكبير وتضييق الخناق عليهما ومهاجمتها من طرف الباي محمد الكبير (1780 ـ 1798) الذي سبق له مهاجمة وهران سنتي 1780 و 1784 قبل أن يعسكر بالقرب منها وينصب عليها الحصار لعدة شهور من 13 صفر

1205 (22 أكتوبر 1790) إلى أول محرم 1206هـ (31 أكتوبر 1791) وأثناء هذا الحصار هاجم محمد الكبير حصون وهران بقوة تناهز الخمسة آلاف مقاتل منهم 500 من الطلبة، وبادر إلى قطع الماء عنها قبل أن يلتحم في اشتباكات دامية مع الحامية الإسبانية بلغت أوجها في شهري رمضان وذو القعدة 1205هـ (ماي وجويلية من عام 1791)، وقد وصف هذه الجهود الحربية محمد بن يوسف الزياني بقوله: «ودام حصاره (أي الباي) لها (أي لوهران) بالقتل الصادر منه ومن جنوده وشدة صواعقة ومدافعه وكوره وباروده إلى أن فتحها بقتاله».

2 ـ النفقات الباهضة التي كان يتوجب على إسبانيا صرفها على الفرق العسكرية بوهران والمرسى الكبير، فالحامية الإسبانية المرابطة بهذه الحصون كانت تقدر بحوالي أربعة آلاف رجل أي ثماني فرق من المشاة وكتيبة واحدة من الفرسان تتطلب نفقات لا تقل عن أربعة ملايين دورو سنويا، أصبح من الضروري زيادتها بعد أن امتنعت القبائل الحليفة للإسبان المقيمة بالقرب من وهران عن دفع الغرامة المفروضة عليها «الرومية» بعد أن تعرضت للضغط من طرف البايليك إثر انكسار الإسبان بالجزائر عام 1775م.

3 ـ الآثار المدمرة التي أحدثها الزلزال الذي ضرب وهران ونواحيها ليلة 8 ـ 9 أكتوبر 1789 واستمرت هزاته العنيفة إلى 22 فيفري بعد أن ضرب بشدة مرة ثانية يوم 6 جانفي 1790، وقد تسبب هذا الزلزال في خراب وهران وهلاك ما بين 2000 إلى 3000 شخص بين الانقاض بعضهم من جنود الحامية الإسبانية وفي مقدمتهم الحاكم العام الإسباني لوهران بالنيابة دون نيكولا غارسيا فضلا عن إتلاف واحراق بعض السفن الراسية بوهران والمرسى الكبير وتدمير القصبة والقسم الأعلى من المدينة، هذا ومن الملاحظ أن بعض الكتاب الأوربيين مثل روني لسبس (Réné Lespes) يميلون إلى أن هذا الزلزال قد قرر مصير وهران، مرددين بذلك الروايات الأوروبية التي دأبت على تفسير الأنهزامات الأوروبية أمام الجزائر في العهد العثماني منذ حملة شارلكان عام 1541 م وحتى الهجوم الإسباني 1775 بعوامل طبيعية من عواصف وزلازل وغيرها دون الأخذ بعين الإعتبار قوة الجزائر العسكرية وكفاءة جيشها القتالية. وهذا ما يدفعنا إلى اعتبار زلزال وهران عاملا ثانويا وليس رئيسيا لأن ما

أرغم الإسبان على الإنسحاب هو في واقع الأمر جهود حكومة الجزائر العسكرية وضغطها الديبلوماسي والسياسي، فالزلزال عامل مشجع للجزائريين على مواصلة حصار وهران والتضييق على الإسبان بها، وهذا ما أشار إليه أحمد بن سحنون الراشدي بقوله: «وكان السبب في شروع هذا القتال بسرعة هو المصيبة الكبرى التي أصابت وهران وقتئذ بالزلزلة التي خربت جلّ البلاد ومات بها خلق كبير».

4 ـ تأزم الأوضاع بإسبانيا بفعل التنافس داخل أسرة البوربون وسقوط فرع الأسرة بفرنسا نتيجة الثورة الفرنسية (1789) ثم دخول إسبانيا في دوامة الصراع القاتل بين فرنسا وانكلترا والذي لم ينته إلا بإنتهاء حكم البربون بمدريد وتولي نابليون بونابرت التصرف في مقدرات إسبانيا (1808) كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

هذا وقد كان الإسبان بتشجيع من البلاط الفرنسي يأملون في مبادلة وهران والمرسى الكبير بقلعة جبل طارق التي احتلها الانكليز في حرب الخلافة الإسبانية عام 1704م، ولم يستطيعوا استرجاعها في معاهدة فرساي لعام 1783م، لكن عداء الانكليز وإلحاقهم الهزيمة بالجيش الإسباني في معركة وادي آش حال دون تحقيق هذه المقايضة على حساب الجزائر.

5 ـ إقتناع الحكام الإسبان بأن إتفاق الهدنة لعام 1786م لم يحقق الهدف المرجو منه، فرغم المبالغ المالية التي تعهدوا بدفعها، فقد ظلت المطالب الجزائرية قائمة بشأن وهران والمرسى الكبير، مما حال دون إيجاد علاقة سلم وتبادل تجاري في الوقت الذي انتهج فيه البلاط الإسباني سياسة تعايش سلمي بالمتوسط أدت إلى عقد معاهدات مع بعض الدول الإسلامية: مثل المغرب العلوي 1780 والدولة العثمانية 1782 وباشوية طرابلس الغرب 1784. فلم تبق سوى الجزائر وتونس مما دفع الديبلوماسية الإسبانية إلى العمل على استكمال هذه المعاهدات مع الجزائر 1791 بعد أن لم تكن لشكوى السفيرين الإسباني والفرنسي بتصرفات الجزائر لدى الباب العالي أي تأثير على داي الجزائر، ولم تسفر وساطة ملك المغرب محمد بن عبد الله عن أي نتيجة.

وهذا ما جعل الديبلوماسية الإسبانية تسعى جاهدة لاستكمال هذه السلسلة من الإتفاقيات السلمية بإمضاء معاهدة مع الجزائر 1791 ثم مع تونس في نفس السنة، وذلك حتى تتفرغ لمواجهة القضايا الأوربية وفي مقدمتها الصراع الإنكليزي

الفرنسي الذي أصبح يهدد وجود الدولة الإسبانية ذاتها.

6 ـ وجود شخصيات جزائرية في الحكم متحمسة للتوصل إلى إقرار معاهدة سلام كفيلة بتوفير مبالغ مالية كانت الخزينة الجزائرية في حاجة إليها، وتضمن للموظفين السامين بالدولة مكاسب مادية معتبرة. هذا وقد كان في طليعة هذه الشخصيات وكيل الحرج حسن ابن أخ الدّاي عثمان باشا الذي ظل على علاقة مع الحكام الإسبان منذ أن أسره الإسبان وأطلقوا سراحه في 23 ماي 1776م بمساع من القنصل الفرنسي بمدريد وتدخل من ملك فرنسا الملك لويس السادس عشر، فقد عمل وكيل الحرج هذا كل ما في وسعه على إقناع الداي محمد عثمان باشا بجدية المساعي الإسبانية ومدى الفائدة التي يحققها أي إتفاق مع الحكومة الإسبانية. ومما يؤكد هذا تلك المراسلات الكثيرة لوكيل الحرج حسن مع الحكام الإسبان، وفي مقدمتهم بازليني الذي تسبب في أسره وعاد معه إلى الجزائر والتي بلغ عددها ستة عشر رسالة.

وهذا ما دفع بعض الكتاب إلى القول بأن الإسبان قد نجحوا في استدراج وكيل الحرج حسن لتبني وجهة نظرهم عن طريق الهدايا والترضيات ومما لا شك فيه أن هذه المساعي كان لها دخل في انتهاج الداي محمد عثمان باشا في آخر عهده سياسة تهدف إلى وضع حد لحالة العداء مع بعض الدول الأوربية وفي مقدمتها إسبانيا.

هذا وقد أدّت هذه الظروف المساعدة والعوامل المؤثرة في آخر الأمر إلى إجراء إتصالات رسمية بين إسبانيا والجزائر في شهر أفريل 1791 أسفرت عن إقرار صيغة معاهدة سلام وصداقة في تسعة بنود (فصول) على شاكلة المعاهدات التي ارتبطت بها الجزائر مع كل من انكلترا وفرنسا، في 12 سبتمبر 1791، وتم إبرامها نهائيا في 9 ديسمبر 1791 من طرف داي الجزائر حسن باشا والقائم بالأعمال وممثل قنصلية ملك إسبانيا بالجزائر الدون مكاييل دولاريا ودخلت حيز التنفيذ الفعلي برفع الحصار الجزائري عن الحامية الإسبانية بوهران في أول محرم 1206 الموافق لـ 1 سبتمبر 1791 والإنسحاب النهائي من وهران في 3 رجب 1206هـ الموافق لـ 24 فيفري 1792.

أما مضمون بنود هذه المعاهدة فهي حسب النص العثماني الذي نقدم له ترجمة عربية كتبتها في نهاية هذه الدراسة مع النص العثماني، يمكن تلخيصها في

خمس نقاط رئيسية موزعة على تسعة فصول أو بنود وهي:

1 ـ الإنسحاب من وهران والمرسى الكبير الذي ينص عليه البند الأول.

2 ـ إجراءات تنفيذ الإنسحاب من وهران والمرسى الكبير: الذي تطرق إليها البند الثاني حيث أعطى للإسبان مهلة يتمكنون خلالها من إزالة ما أحدثوه من بناء وتحصينات بوهران منذ عودتهم إليها سنة 1732 مع السماح لهم بسحب العتاد الحربي.

3 ـ الإمتيازات التجارية والجمركية والحقوق القنصلية الواردة في البنود: الثاني والثالث والخامس والسادس والسابع والتي أعطت لإسبانيا حق بناء مؤسسة تجارية قرب المرسى الكبير وسمحت لها بشراء المواد الأولية (من حبوب وشمع وصوف وعسل) مع احتكار صيد المرجان بالسواحل الغربية مثل ما كان للفرنسيين على السواحل الشرقية.

4 ـ الضمانات والحقوق المترتبة عن الإمتيازات الممنوحة للإسبان التي أشير إليها في البنود: الرابع والثامن والتاسع والتي أصبح الإسبان بمقتضاها يتمتعون بتخفيضات جمركية مقابل مبالغ مالية (إتاوات) وهدايا قنصلية، وأعطى للسفن التجارية الإسبانية حق الإرساء بميناء حصن المرسى الكبير دون غيرهم مقابل رسم محدد بـ 56 ريالاً (أي حوالي 63 فرنكا).

5 ـ أما النقطة الخامسة والأخيرة فهي تتصل بالواجبات المترتبة على الإسبان مقابل الإمتيازات التي حصلوا عليها. وقد أكد البند السادس خاصة هذه الإلتزامات بحيث أصبح يتوجب على الخزينة الإسبانية دفع مبلغ مالي سنوي لحكومة الجزائر يقدر بـ 120 ألف جنيه مقابل الإمتيازات والحقوق السالفة.

ومما يلاحظ أن بنود هذه المعاهدة لم تنص على بعض الإجراءات المتفق عليها مثل ضرورة إرجاع كل ما استحوذ عليه الإسبان بوهران والمرسى الكبير من عتاد ومؤن عند استيلائهم عليهما سنة 1732م. وضمان حق الإسبان في إنشاء مركز تجاري لهم بالمرسى الكبير، فقد تقاعس الطرفان الإسباني والجزائري على الإلتزام بتنفيذ هذه الشروط والإيفاء بهذه الإلتزامات، فالإسبان لم يرجعوا ما أخذوه إلى قرطاجنة من عتاد ومؤن، كما تنص المعاهدة، وهو 138 مدفعا منها 87 من البرونز و51 من الحديد بالإضافة إلى 7 مهاريس ((Mortiers)) وكمية كبيرة من

العتاد والزاد منها 5 سفن من نوع بريقانتان (Brigantins) وسفينة واحدة من نوع الغليوطة (Galiote) وجدوها بمياه المرسى الكبير عند احتلالهم له سنة 1732م.

هذا وقد قام الإسبان كذلك، بتخريب عدّة تحصينات ومباني بوهران والمرسى الكبير بحجة أنها قد استحدثت بعد رجوعهم سنة 1732 وقد ذكر ذلك محمد بن يوسف بقوله «ولما اصطلح الأمير محمد بن عثمان مع نصارى وهران على رفع القتال عنهم ويخرجون منها صاروا يخربون بنيانها بالألغام نكاية بالمسلمين». وبفعل هذه الأعمال التخريبية اضطر محمد الكبير عند دخوله وهران إلى الإقامة بالحصن الجديد بعد أن لم يبق إلا القليل من بنايات المدينة قائماً، فأعلى المدينة والقصبة قد تضررت بالزلازل وباقي الحصون والمنشآت هدمت من ظرف الإسبان.

أما الجانب الجزائري فلم تصدر منه أي مبادرة تنم عن رغبته في تنفيذ تلك الالتزامات المتعلقة بالجمارك والتجارة إذ تركت حرية التصرف في ذلك للإسبان الذين لم يستطيعوا الوقوف في وجه المنافسة الإنكليزية فلم يتمكنوا من إنشاء مركز تجاري خاص بهم بنواحي المرسى الكبير، بل اتخذوا من هذا الامتياز ذريعة لهم عندما استولوا على جزيرات الزفارين (Zaffarine) عند مصب نهر الملوية سنة 1848، مدّعين أن احتلالهم لهذه النتؤوات ما هو إلا تطبيق لإحدى بنود معاهدة 1791.

هذا ومما يلاحظ الأسر الإسبانية التي بقيت بوهران والتي كان عددها يتراوح بين 70 و80 أسرة كان من المفروض أن تنتفع بتلك الإمتيازات، لم تلبث أن فضلت العودة إلى إسبانيا على ممارسة أي نشاط تجاري بوهران.

وعلى كل فإن هذه المعاهدة (1791) سمحت بإلغاء بنود إتفاق الهدنة لعام 1786 التي وقع في شأنها الخلاف وسمحت بتحويل حالة السلم المؤقت بين الجزائر وإسبانيا إلى علاقة صداقة وتعامل تجاري لفائدة الطرفين بعد أن عوضت إسبانيا الخسائر التي ألحقتها بالجزائر. وهذا ما جعل مبلغ التعويضات الإسبانية للجزائر يشكل ثلثي المبالغ المالية الإجمالية التي ترتبت على الخزينة الإسبانية مقابل معاهدات السلام مع الدول الإسلامية ما بين سنتي 1780 ـ 1790 والمقدرة بـ 491. 590. 50 ريال، إذ كان نصيب الجزائر منها 977. 258. 35 ريال.

وهذا ما يسمح لنا بالقول بأن معاهدة السلام والصداقة الإسبانية الجزائرية لعام 1791 قد وضعت حدا لحالة التوتر والعداء بين البلدين استمرت منذ سقوط غرناطة وقدوم لاجئي الأندلس إلى السواحل الجزائرية ولم تنته إلا بإنسحاب آخر جندي إسباني من وهران والمرسى الكبير بعد احتلال عسكري دام 260 سنة عند رفع العلم الجزائري على قلاع وهران وحصن المرسى الكبير وسارت مواكب النصر عبر أبواب وهران يتقدمها محمد الكبير باي الغرب الذي وصفه محمد بن يوسف الزياني بقوله: «ودخلها في ذلك اليوم البارك وأناخ بها رحله ولا له فيها شريك». وبذلك وضع الفصل الختامي للملحمة العدائية بين إسبانيا والجزائر والتي أطلق عليها إسم حرب الثلاثمائة سنة (1491 ـ 1791) لارتباطها بالصراع الحضاري بين عالمي المسيحية والإسلام.

الجزائـر في 31 ـ 12 ـ 1989

المصادر والمراجع المعتمدة:

1 ـ العربية:

ـ ابن سحنون الراشدي، أحمد بن محمد، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، قسنطينة، مطبعة البعث 1973.

ـ أبو راس الناصري، **عجائب الأسفار ولطائف الأخبار** مخطوط محفوظ بالمكتبة الوطنية.

ـ ايبالزا، ميكال دي، **معاهدة السلم الأولى الإسبانية الليبية المعقودة في 1784م ـ 1198هـ**، طرابلس، منشورات مركز جهاد الليبيين 1980.

ـ بوعزيز، يحي، **مفاوضات السلم بين الجزائر وإسبانيا من خلال الداي محمد عثمان باشا**، مجلة أوراق مدريد عدد 7 ـ 8 ـ 1985 ص.ص 75 ـ 89.

ـ بلحميسي مولاي، **صفحات من تاريخ العلاقات الجزائرية الإسبانية، معاهدة 1786 بين الجزائر وإسبانيا** مجلة تاريخ وحضارة المغرب، الجزائر العدد 11 ـ 1974، ص.ص 5 ـ 22.

ـ الزهار الحاج أحمد الشريف، **مذكرات نقيب اشراف الجزائر 1754 ـ 1830** تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني ـ الجزائر 1974.

ـ سعيدوني ناصر الدين، **الهجوم الإسباني على الجزائر عام 1775 ـ 1189** (معركة الحراش) دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة المعاصرة الجزء الثاني، الجزائر 1988.

ـ المدني، أحمد توفيق، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 ـ 1792**، الجزائر 1968.

ـ مسلم بن عبد القادر الوهراني، **أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر**، تحقيق ويسر رابح بونار، الجزائر 1974.

ـ المشرفي، عبد القادر، الجزائري، **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الاعراب كبني عامر**، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، بيروت، مكتبة الحياة، د ت.

ب ـ الأجنبية:

– Archive historique national de Madrid Sec. Etado les 3370, Carpeta - 3.

– Epalza, Mikel de notice d'un fonds de lettres officielles algériennes à Madrid, fin XVIII siècle, in archives nationales algériennes N° 6 - 1977, p.71-74.

– Fey (H.L.), Histoire d'Oran avant, pendant et après la colonisation espagnole, Oran A. Berrier, 1856.

– Grammont (H.D.) De, Histoire d'Alger sous la domination turque 1555-1830, paris, E. Leroux, 1887.

– Lespes, (René), Oran Etudes de géographie et d'histoire urbaine, paris F. Alcan, 1938.

– Mercier (Ernest), Histoire d'Afrique septentrionale (Berberie), paris E. Leroux 1891 T. III.

– Péchot L. Histoire de l'Afrique du Nord avant 1830, T. 3, Alger, Gojosso, 1914.

– Pestemaldjoglou (Alexandre), Mers-El-Kebir, (Historique et description de la forteresse), in revue Africaine, T. 1940 pp. 154-185.

نص المعاهدة باللغة العثمانية

حق سبحانه وتعالى حضر تلرنيك عون وعنايتي بر له اشبوبيك ايكيوز التي سنك ماه محرم الحرامنك، إبتدا سنده قلعه وهران خصوصي وشروط معدود لرى ايجبون واسطه أولان طرف مزده مقيم اسبانية بادشاهي، دور دنجي دو نقرلوس حضرتلرنيك قونصو لوسي وكيلي ومصلحت كزاري أولان دو نميكيل ده لاريا، وساطتيله مكالمه ومعاهده أولنمشدر عفلت اوليه.

فصل أول

اشبوبيك ايكيوز التي سنه سى ماه محرم الحرامنك ابتدا سنده دولة لوحسن باشا افند يمز جزاير ولا يتنه متصرف اسبانيه أولد قده اسبانيه بادى شاهى حضر تلرنيك مراملري اوزره شول وهران قلعه سى كى سابقا جزاير حكمنده ايدي شمدي كندي ير تصر فنده در كندي حسن رضا سي واختيار يله ودولتلو حسن باشا أفند يمزه محبة تخليه وترك ايدوب اندن وازقجر.

فصل ثاني

ودخى مزبور قلعه وهرانده اسبانيه بادشاهينك ير تصرفنه كجدكدن صكثره نقدركه أحداث وبنا ايلد وكى بور جلرى هدم ايدوب وكند وقود قلرى طوب قزتياده لرنقدر وارانسه جمله سنى قلدوروب ماعدا أول نقد راب كه دولتلوحسن باشا أفند يمزه حُسن رضا لد يله هدية وبر يلحكدر نقل ايديخه ومذكوره هرشيدن بوش ايدوب تفريغ ايلينخه به ركين أول طرفده نه عربلردن ونه عجملردن هيچ بركمسنه قلعه مزبوره أوزرينه وارسيه لروا يجر وسنه كيرميه لروكبر ميه إذن وبر منه لر.

فصل ثالث

ودخى اسبانيه بادشاهي حضر تلرى حسن باشا أفند يمزك خطرى ايجون ليمان بورجني وهران قلعه سي كبي ترك ايدوب اندن وازكنجراول شرط يله كه حسن باشا أفند يمزامريله وطن يكى مزبور ليمانده وياخود وهران قلعه سنده اسبانيو للرين مراد لرينه كود برقاج مخزن واسبانيول بازركانلرينه يكيدن براوبنا ايدزتاكه بازركانلر انده أولوب ووهرانده بيع وشرا ايدوب تجارت ايتد كلرنده ساكن واقامت ايده لر.

فصل رابع

ودخى جزاير محروسه نيك دايسي ووالیسى أولانه دولتلو اسبانيه باد شاهي حضرتلرنيك كندى حسن اختيارى ورضا سيله مزبور وهران وليمان بور جينك قلعه لريني ينه حزاير مملكثنه ردّ ايلدوكي مقابله سنده وهران وليمان بورجنيك قلعه لرنده

أولان بيع وشرا اتمكي يالكز اسبانيول طائفه سنه تخصيص أولنوب مزبور قلعه لرده بوغداي واريه وبقله ونخوذ وقيون وصغير وسائر اشيا لرموم ودرى وصوف يازار ايدوب صاتون اله بيلورلروغيري جنس طائفه لردن بركمسنه مزبور محللرده نه بيع ونه شرا اتمكه براقيوب اذن ويرميه وهيج بروجهله اليش وريش اتميه.

فصل خامس

ودخى وطن بكى بهر سنه ده دار الكريميه ويره كلد وكى اون بيك او لجوك بوغداي ويوز قنطار بال مومى كه أفند مزهركميه دلرسه بيع ايدر باشا افند يمز اقرار ايدركه بهر عام صانمق زمانى كلد كده اسيا نيوللّره اعلام ايدوب ويرور اكر انلر المق استيوب وغير يلرين ويردوكى بهانى ويرور لرايسه انلر فروخت ايدوب بشقه لره بيع ايتميه واكر اخر لرانلردن زياده ويروب وانلر آخردن زياده ايتمر لرايسه آخره بيع أو لنور.

فصل سادس

ودخى جونكى ايكى طرفينك اتفا قلريله متاسب وموافق كورلدي كه عوائد كمرك وبدعتلرين مقابله سنده اسبانيول تجار لرنيه بر مقدار مبلغ معين تعيين أولنه تحول وقرار او لديكى اسبانيول تجار لرى بهرايده دار الكريميه بيك جزاير التونى ويره لرومزبور وهران وليمان بور جنك قلعه لرنده سائر صاتون الدقلرى واخراج ايلد كلرى مال ومتاع وارزاقلوه قطعا هيج عوائد كمرك ونه بدعت ويرميوب انلردن طلب اولنميه وويرمكه ابرام والزام ايملميه لرو بوندن ما عدا باشا افند يمز دخى بهر سنه ده انلره اون بيك اولجك بوغداى صاتون اله لرو مزبوراون بيك اولجك بوغدانى قلدر مغه كلان سفا ينلر سائر كلان سفا ينلر كبى معتاد اولان تيمور اقچة سنى ويرميه لراشبو اون بيك او لجك بوغداى قلدورن سفاينلر دن ما عدا معتاد اوزره تيمور اقجه سى اللى ريال اوفق ويريلوركه التي جزاير التونى وبر ريال اوفق ايدر مزبور اون بيك اولجك بوغداى بازلرده بيع اولندوغى وجه اوزره الورلر.

فصل سابع

ودخى بوكندن صكره اسبانيول سفا ينلرى كرك حرب وكرك بازركان كميلرى بزم ليما نلر يمزه حين اختيا جلر نده بلا صانع واذ نسز كبيروب جقالر وعهد يمان قد يمده بلا اذن كير ميه لر ديويكرمى ايكنجى فصل ده بيان وشرح اولنان كلام شمديدن صكره بطال وشروط مزبوره دن مرفوع وموجبنجه عمل اولنمز.

فصل ثامن

ودخى أول مدّ تده كه آز اولمسيله الدن كلدوكى قدر سعى وجهد اولنوب تاكه وهران وليمان بورجينك قلعه لرنده هر اشيا وامتعه لرى نقل وبو شالدوب تفريغ اولور بوزمان مدتين ايجينده طشردن بركمسنه مانع ومزاحيم اولميوب وتجاوز لك كوسترميه ديو تاكيد وتنبيه اولنور.

فصل تاسع

ودخى اوره لرده يعني وهران وليمان بور جينك قلعه لرنده مقيم اولان اسبانيول تجارى وطائفه لرينه بلا وجه شرعىّ بركمسنه رنجيده ورميده ايتميوب كرك وسمتلرده وكرك بشقه ليمانلر يمزده بلا سبب انلره بركمسنه ونجيده وجور ومعتدّى اتميه.

الترجمة العربية للنص العثماني

بعون وعناية من الله سبحانه وتعالى، تم التفاوض وعقدت معاهدة في أوائل شهر محرم الحرام سنة ألف ومائتين وستة (سبتمبر 1791) مع الدون مكاييل دولاريا القائم بالأعمال وممثل قنصلية سعادة الدون كارلوس الرابع ملك إسبانيا، ونظرا لإقامته بيننا ووساطته في القضايا المتعلقة بقلعة وهران والشروط المحددة بشأنها، فإنه يتعين الأخذ بما يلي:

ـ البند الأول:

في بداية شهر محرم الحرام من عام ألف ومائتين وستة، تحت حكم دولة أفندينا حسن باشا أمير ولاية الجزائر، وطبقا لرغبات سعادة ملك إسبانيا، فإن قلعة وهران التي كانت في السابق تحت حكم الجزائر والتي هي الآن في حوزة إسبانيا، يتم الإنسحاب منها وتركها عن رغبة واختيار من ملك إسبانيا وذلك بدافع الصداقة لدولة أفندينا حسن باشا.

ـ البند الثاني:

إن الإسبانيين سيقومون بهدم كل الأبراج التي أقاموها أو بنوها بقلعة وهران السالفة الذكر منذ الاستيلاء عليها من طرف ملك إسبانيا (1732) وسوف يأخذون منها كل المدافع ومدافع الهاون «المهاريس» التي كانوا قد نصبوها بها، باستثناء ما سوف يقدمونه منها برغبة من ملك إسبانيا كهدية لدولة حسن باشا، هذا ومنذ قيامهم بنقل ذلك وحتى يتمكنوا من الإنتهاء من إخلاء المدينة من كل تلك الأشياء، فإنه لا يسمح لأي عربي أو أجنبي الإقتراب أو الدخول لقلعة وهران السالفة الذكر، كما لا يعطي لهم إذن بذلك.

ـ البند الثالث:

نزولا عند رغبة أفندينا حسن باشا فإن ملك إسبانيا سوف يترك المرسى الكبير كما فعل بالنسبة لقلعة وهران ويتخلى عنها بشرط أن يشيد في المرسى الكبير وقلعة وهران بأمر من أفندينا حسن باشا أمير وطن الجزائر وحسب رغبة الإسبانيين بعض

المخازن والمساكن لإقامة التجار الإسبان، وذلك حتى يتمكنوا من القيام بعمليات البيع والشراء وحتى يستطيعوا السكن والإقامة بهما.

ـ البند الرابع:

إن داي الجزائر المحروسة يمنح مقابل استرجاع وهران والمرسى الكبير باختيار ورضا سعادة ملك إسبانيا لطائفة الإسبان بيع وشراء القمح والشعير والفول والحمص والمواشي والأبقار ومنتوجات أخرى كالشمع والجلد والصوف، وأن داي الجزائر لا يسمح لأي شخص من الطوائف الأخرى (من غير الإسبان) بالتجارة ولا لأي سفينة أن تقوم بالشحن والتفريغ في الأماكن المذكورة سلفا.

ـ البند الخامس:

على باي الوطن «باي الغرب» أن يوفر للدار الكريمية 10.000 قيمة قمح و 100 قنطار عسل كما أشير إلى ذلك سلفا كما له الحق في بيعها بموافقة الباشا لمن يراه مناسبا وعندما يحل فصل التجارة من كل سنة فإن الباي يعلم الإسبانيين بذلك، فإن أرادوا الشراء ورغبوا فيه فستكون لهم الأفضلية إن عرضوا سعرا يساوي ما قدمه غيرهم، فإذا قدم غيرهم سعرا أكثر كانت التجارة من نصيب هؤلاء الآخرين من غير الإسبان.

ـ البند السادس:

اتفق الطرفان (الجزائري والإسباني) على تعويض عوائد الجمارك والرسوم المستحدثة بفرض قيمة معينة على التجار الإسبانيين، بحيث يدفعون مبلغا معينا كل سنة للدار الكريمة يقدر بـ 1.000 قطعة ذهب جزائري عندما يقومون بالشراء في قلعة وهران والمرسى الكبير، مع عدم إلزامهم عند المغادرة بدفع أي ضريبة أو رسم مستحدث على الأموال والارزاق والمتاع، إضافة إلى أن أفندينا الباشا سيبيع لهم 10.000 قيمة قمح سنويا. وأن السفن التي تأتي لنقل هذه الحمولة المشار إليها، تعفى من دفع المبلغ المالي المتوجب على غيرها من السفن والمقدر بخمسين ريال صغيرا أو ما يقدر بست قطع ذهبية جزائرية وريال واحد، هذا وعندما يتم بيع هذه الحمولة

المقدرة بـ 10 آلاف قيسة في السوق بدون تدخل من باي الوطن فإن التجار الإسبانيين سوف يشترونها بنفس الطريقة.

ـ البند السابع :

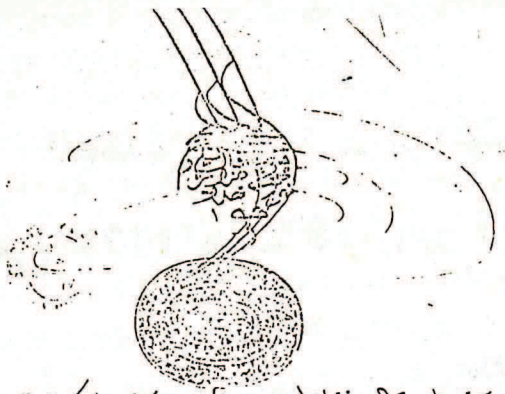
إبتداء من هذا اليوم فإن سفن الإسبانيين سواء الحربية منها أو التجارية يحق لها أن تدخل إلى موانئنا أو تغادرها بلا ترخيص وبدون إذن عندما تضطر إلى ذلك، هذا وأن الشروط المتعلقة بحالة دخول هذه السفن بلا إذن الواردة في الفصل الثاني والعشرين من المعاهدة القديمة (1786) تعتبر ملغاة ولا يمكن العمل بها.

ـ البند الثامن :

أثناء هذه المدّة القصيرة يجب السعي لنقل الأموال والأمتعة وإخلاء وهران والمرسى الكبير في الفترة الفاصلة بين تاريخ الإتفاق ويوم الإنسحاب، بحيث لا يتعرض الإسبان للمزاحمة أو يمنعوا من القيام بمهمتهم مع التأكيد على عدم السماح بأي تجاوز في هذا الشأن.

ـ البند التاسع :

ينبغي عدم التعرض للتجار الإسبان المقيمين هنا (أي وهران والمرسى الكبير) بأي أذى بغير وجه شرعي، كما لا يجب المساس بتجارتهم وينطبق ذلك حتى على الجهات والموانىء الأخرى من الجزائر بحيث يكونون في مأمن من الجور والإعتداء بلا سبب أو مبرر من أي طرف كان.



Traité d'alliance et de Paix entre l'Espagne et la Régence d'Alger conclu en 1786.

المعاهدة الجزائرية ـ البندقية

7 محرم 1177 هـ ـ 18 يوليو 1763 م

د. عائشة غطاس

تعد هذه المعاهدة فاتحة العلاقات بين الجزائر والبندقية في الفترة الحديثة [1]، وهذا ما دفعنا إلى نشر ترجمتها العربية اعتماداً على النص الفرنسي الموجود بالأرشيف الوطني بباريس ضمن سلسلة :

A.N.P.: Affaires étrangères, B'322 traités de paise avec la régence d'Alger. [2]

وحتى تستكمل الفائدة ارتأيت وضع هذه المعاهدة في إطارها الزماني وضمن النشاط الدبلوماسي لجمهورية البندقية. لقد ظلت هذه الأخيرة إلى غاية العشرينيات من القرن الثامن عشر تتستر لحماية تجارتها ورعاية مصالحها، وراء المعاهدات المبرمة بينها وبين الدولة العثمانية، فقد أقرت المعاهدتان الشهيرتان كارلوفيتز [3] وباسرويتز [4] (البند الخامس عشر) سريان نصوص تلك المعاهدات على مختلف الولايات العثمانية.

وهذا يبرز لنا جيداً أن جمهورية البندقية كانت تفتقر إلى خلفية تاريخية في تعاملها مع الجزائر. فالجزائر مع كونها ولاية عثمانية من الناحية النظرية، فإنها في الواقع كانت قد انتهجت سياسة خارجية مستقلة، فكانت تسالم من تشاء وتحارب من تشاء [5]، وهو ما نلمسه بكل وضوح في تصرفات حكامها منذ أوائل القرن السابع عشر [6]، كما يتضح جلياً أن جمهورية البندقية لم تستفد من الملاحظة التي سجلها المفاوض البندقي صالفاقو الذي حل بالجزائر عام 1625 للتفاوض بشأن مفاداة الأرقاء البنادقة بحنب ما يلي [7].

«En barbarie le Grand Seigneur ne change pas les milices comme il le fait dans les autres garnisons. Loin jdu pouvoir central ils craignent peu la porte. Confiants en leurs propres forces qui sont grandes et qui leur permettaient de resister». [8]

إذن تتلخص هذه الملاحظة في أن السلطان في بلاد المغرب لا يغير من موقف الانكشارية في شيء مثلما هو الحال في الولايات الأخرى. فالمفاوض البندقي على الرغم من إقامته القصيرة بمدينة الجزائر فقد سمحت له حنكته الدبلوماسية بفهم واقع العلاقات بين الجزائر والباب العالي، ومدى استقلالية القرار الجزائري..

وبدلاً من أن تسعى جمهورية البندقية إلى التفاوض رأساً مع الجزائر، لجأت إلى حماية تجارتها عن طريق فرض الملاحة بواسطة «قوافل السفن المسلحة» La navigation en convois escortés بيد أنه سرعان ما بدا للتجار البنادقة عدم نجاعة هذا الاجراء، فالرحلات التجارية كانت تستغرق وقتاً طويلاً، والبضائع كانت تصل إلى نفس الميناء بكميات ضخمة دفعة واحدة مما كان يضر بمصالحهم [9].

وفي عام 1720 عزمت جمهورية البندقية على عقد اتفاق مع كل من الجزائر وتونس على أن يتوسط لها الباب العالي في مساعيها فأوفدت الدولة العثمانية مبعوثاً إليهما، وكانت مهمته تتلخص في الطلب من الحكومتين إرسال شخصيات مسؤولة بشأن التفاوض مع ممثلي البندقية المعتمد لدى البلاط العثماني. فأبدت الجزائر موافقتها على أن تتم المحادثات بالجزائر، وفي آخر الأمر لم تسفر هذه الاتصالات عن أي نتيجة تذكر، بسبب معارضة التجار البنادقة لتحمل مصاريف المفاوضات [10].

لكن إبرام معاهدة 1748 بين الجزائر وتسكيانا جعل جمهورية البندقية تتضرر كثيراً. فقد أضحى البحارة الجزائريون منذئذ لا يجدون صعوبة تذكر في الاستيلاء على سفن البندقية. كما سمحت تلك المعاهدة للبحارة الجزائريين بالاحتماء بالموانئ التابعة لتسكيانا عند حدوث عاصفة أو في حالة مطاردة وملاحقة الاعداء لهم. ولم يجد سفير البندقية بُداً من الاحتجاج لدى السلطان العثماني ضد نشاط الجزائريين. وكان رد الباب العالي حسبما أورده السفير نفسه ما مفاده: «إذا كانت جمهورية البندقية ترغب في تفادي تكرار مثل هذه الأعمال عليها أن تفكر في عقد سلام مع تلك الدول» [11]. وهو ما ستتوصل إليه عام 1763 بإبرام أول معاهدة

سياسية وتجارية مع الجوائر. وكانت هذه المعاهدة نتيجة اتصالات ومفاوضات متعددة لعب فيها كل من نيقولا رززاليم وجيرفازوني دوراً مهماً:

1) مفاوضات نيقولا روزاليم وفشلها (1753 ـ 1754)

على الرغم من لجوء البندقية إلى السفن الضخمة المعروفة بـ Nair-atte ، لحماية تجارتها، فقد تكبدت خسائر جسيمة الشيء الذي جعلها تحرص في هذه المدة على نجاح المفاوضات، فوقع اختيارها على «نيقولا روزاليم» الذي كانت له تجربة عقد كامل قضاه كقنصل بأزمير. فكان يعرف المجتمع الشرقي معرفة جيدة، ويتقن اللغة العثمانية، كما قامت له علاقات طيبة مع بعض الشخصيات من بلاد المغرب[12].

لقد حل نيقولا روزاليم بمدينة الجزائر في خريف عام 1753 م، وبقي بها ما يقرب من سنة عساه أن يوفق في عقد السلام، بيد أن مساعيه لم تكلل بالنجاح. وقد لخص لنا فشل مهمته في أسباب ثلاث: أولها معارضة القناصل الأوروبيين المقيمين بمدينة الجزائر، ثانيها معارضة الرياس الجزائريين، وثالثهما معارضة التجار اليهود[13].

ومنذئذ ظلت جمهورية البندقية تترقب أية فرصة لعقد السلام مع الجزائر، ففي عام 1762 أوكلت مهمة التفاوض إلى التاجر اليهودي يعقوب بوشعرة(؟) بناء على طلب منه، لكن مجلس الشيوخ سرعان ما تراجع وجرده من هذه المهمة[14].

2) مفاوضات جيرفازوني وإبرام الصلح:

كان وصول جير فازوني إلى مدينة الجزائر في يوليو 1763، ولم يلق أية معارضة وباتفاق مع الداي بابا علي بوسبع (نقسيس) تمكن من وضع شروط المعاهدة اعتماداً على مشاريع تعود إلى ما قبل ذلك التاريخ[15].

كما اتفق الطرفان على ثلاثة بنود سرية، تعهدت جمهورية البندقية بمقتضى البند الأول بدفع عشرة آلاف سكينة جزائرية دفعة واحدة، علاوة على تقديم هدايا المناسبات إلى الداي وحاشيته. ونص البند الثاني على أن تدفع البندقية عشرة

آلاف سكينة سنوياً Sequins كما تعهدت في البند الثالث بتقديم خمسة عشر أسيراً مسلماً هدية للداي. وفي المقابل تعهد الداي بإدراج بند يقضي بمنع السفن الجزائرية من الدخول إلى مياه البحر الادرياتيكي

فحوى المعاهدة وتحليلها:

تقع المعاهدة في ثلاثة وعشرين بنداً، وفيما يلي ترجمتها كاملة:

معاهدة سلام بين صاحبة السمو جمهورية البندقية وإيالة الجزائر. في السابع من محرم 1177 هـ ـ 18 يوليو 1763م[16]

«عام 1177 في السابع من محرم عقد سلام بين صاحبة السمو جمهورية البندقية وعلي بابا داي الجزائر وآغا الجيش والديوان... وتم ذلك بوساطة وزير صاحبة السمو جير فازوني قيتانو، وقرر ذلك بادئ ذي بدء الداي ومجلس الديوان والجيش. وعقد السلام مع صاحبة السمو وفقاً للشروط الآتية:

البند الأول: في هذا اليوم السابع من محرم 1177 هـ، أبرم سلام مع صاحبة السمو وجميع المناطق الخاضعة لها، سلام ثابت وصادق يشمل مختلف الممتلكات والسفن التابعة لرعايا البندقية، وبمقتضى ذلك يأمر داي الجزائر علي بابا وآغا الجيش وأعضاء الديوان بحارة الجزائر، عند ملاقاتهم لسفن وبحارة البندقية، بعدم التعدي عليهم أو ازعاجهم. وعليهم بتبادل المجاملة والصداقة. وإذا حدث وسلمت شهادات أو جوازات سفر إلى رعايا أمم أخرى، سينكث السلام، وستلغى الاتفاقيات.

البند الثاني: عند رسو سفن جمهورية البندقية صديقتنا كبيرة كانت أم صغيرة، أو سفن الرعايا الخاضعين لها، بموانئ الجزائر أو بأماكن أخرى تابعة لهذه الجمهورية، لن يطلب منها سوى 5٪ على البضائع التي يتم بيعها وفقاً للتقاليد القديم دون مراعاة المكان الذي جلبت منه.

وإذا رغب التجار في شحن السلع التي لم يتمنكوا من بيعها ونقلها إلى مكان آخر فلا يجوز لأحد فرض رسوم عليها. كما يمنع على أي شخص إزعاج أو تأجيل رحلاتهم. أما البضائع الممنوع الاتجار فيها كمسحوق البارود والكبريت وأنواع

الأخشاب الصالحة لصناعة السفن والأحبال... فهي معفاة من أي رسم من طرف القادة الجزائريين.

البند الثالث: لما تلتقي السفن الحربية (المجهزة للغزو) والتجارية التابعة لصاحبة السمو صديقتنا، والسفن الجزائرية الحربية منها أو التجارية فلا تتعرض إلى التفتيش وبدلاً من البحث عن إيذاء بعضها البعض عليها أن تفترق بعد تبادل تعابير المجاملة والصداقة.

ولا يتعرض المسافرون وبضائعهم وأمتعتهم لأي اعتداء، مهما كانت جنسياتهم، والمكان المتوجهين إليه، ولايسلب منهم شيئاً، ولا يجبرون على تغيير اتجاههم أو تأخير أسفارهم.

البند الرابع: عندما تصادف السفن الجزائرية سفن البندقية كبيرة كانت أم صغيرة خارج المياه الخاضعة للبندقية، يبعث زورق على متنه شخصان لا غير، وبإذن من القائد البندقي ولا يسمح بدخول السفينة لغيرهما. وبعد استظهار جوازات السفر، ولما ينتهي الزورق من مهمته يعود بالشخصين، ثم يسمح للسفينة بمواصلة رحلتها.

ومن الآن، أي ابتداء من تاريخ إبرام المعاهدة ولمدة خمسة عشر شهراً لن تعترض السفن الجزائرية سبيل السفن التابعة لجمهورية البندقية غير الحاملة لجوازات السفر التي سوف تسلم لها بمقتضى هذه المعاهدة كما لن تتسبب سفن البندقية في أية مضايقة للسفن الجزائرية خلال هذه المدة (15 شهراً).

البند الخامس: لا يجوز لأي قائد عسكري أو ربان الاستيلاء عنوة على متن السفن التابعة للبندقية مهما كانت جنسياتهم، وحملهم على متن سفنهم (السفن الجزائرية). ويمنع الاعتداء عليهم في أي وقت كان.

البند السادس: إذا تعرضت سفينة بندقية للغرق على شواطئ مملكة الجزائر، يحظر على أي شخص الاستحواذ على أمتعتها أو حجز بضائعها. ويمنع نقل أمتعتها إلى الديوانة، أو إلحاق أضرار بركابها. وفي حالة وقوع حادث كهذا (غرق السفينة) يجب التعجيل بتقديم شتى المساعدات...

البند السابع: يمنع على أية سفينة جزائرية كبيرة كانت أم صغيرة التسلح في بلدان أعداء لجمهورية البندقية لمحاربة ومهاجمة الرعايا البنادقة.

البند الثامن: إذا اشترى تاجر بندقي غنيمة من الجزائر، لن يتعرض لأية مضايقة من طرف أي قرصان، إذا كان التاجر البندقي حاملاً لشهادة تثبت عملية البيع، ويسمح له بمواصلة رحلته.

كما انه لا يسمح لأية سفينة جزائرية بالغزو على مقربة من المدن والقلاع والموانئ التابعة لحكومة البندقية. ويمنع اللجوء إلى دولة أخرى لأفساد السلام وتعكير صفوه.

البند التاسع: يحظر الإتيان من تونس أو طرابلس أو سلا أو من موانئ أخرى، سفن بندقية، وكذا ركابها وأمتعتها لبيعها بمملكة الجزائر.

البند العاشر: إذا جلب القراصنة البنادقة غنائم أو أمتعة فلا أحد يعارض ذلك ولهم حرية التصرف فيها، إما ببيعها أو بنقلها إلى مكان آخر.

وتعفى السفن الحربية البندقية من أي رسم، وإذا ما رغبت في التموين يتم البيع بالأسعار المتداولة لا غير.

البند الحادي عشر: كلما رست سفينة قرصانية تابعة لصاحبة السمو أمام الجزائر، وهر أحد أسرى المدينة محتمياً بها، وجبَ على ربان السفينة ارجاعه (مهما كانت جنسيته) بين أيدي القائد الجزائري، وإذا فر أسير ولم يكشف أمره وأخذه إلى بلده، يلزم قائد السفينة بمقتضى العقد المبرم بهذا الشأن، بإرجاعه إلى مدينة الجزائر.

البند الثاني عشر: من الآن فصاعداً، لن يسترق رعايا صاحبة السمو بعذر أو بغير عذر في جمهورية الجزائر. ووفقاً لهذا السلام فإنه لا يباع ولا يشترى الرعايا البنادقة ولا يكره أحد على مفاداة الأسرى البنادقة. أما مفاداة الأسرى فهو أمر يمكن أن يتم بكل ترحاب إذا دعت الضرورة إليه. وعندما يكون أقاربهم أو غيرهم على استعداد للقيام بذلك، ولا يحدد أجل له.

أما فيما يخص الثمن، فإننا سنتفق حوله مع البحارة أنفسهم دون أن يتدخل أي طرف في ذلك، سواء كانوا أسرى الخواص، أو أسرى الباشا. وباعتبارهم رعايا صاحبة السمو الجمهورية، فلا يجوز أن يطلب ثمن أعلى من الثمن المعمول به حسب التقليد القديم، المطبق على جميع الأمم الأخرى.

البند الثالث عشر: إذا حدث وتوفي تاجر أو غيره من رعايا جمهورية البندقية بمدينة الجزائر أو بأماكن أخرى تابعة لها، فلا يستطيع أحد سواء من

الشخصيات (الحاكمة) أو غيره الاستحواذ على أموال وأمتعة المتوفي. وإذا كان له وريثاً فلا يمكن لأحد سواه الاستحواث على أصغر جزء من أمتعته.

وفي حالة غياب الوارث فإن منفذ الوصية المعين من قبل المتوفي يحتفظ بالإرث، ويقوم منفذ الوصية أو شخص آخر معين من طرف المتوفي، باحصاء الأموال والأمتعة ويحتفظ بها. وإذا تطلب الأمر تسليمها فإنه يوصلها إلى الوارث المعين بموجب الوصية لا غير. ولا أحد يعارض ذلك.

البند الرابع عشر: لن يرغم التجار البنادقة بمدينة الجزائر أو بأماكن أخرى من المملكة على اقتناء بضائع رغم إرادتهم ولن يشتروا سوى ما يرغبون فيه. ولن يجبروا على حمل بضائع على متن سفنهم أو يكرهوا على الإبحار ولم يكره للمجلس أو شخص آخر من رعايا صاحبة السمو على تعويض خسارة الرعايا البنادقة المفلسين

البند الخامس عشر: إذا وقع نزاع بين أحد رعايا صاحبة السمو وأحد المسلمين أو غيره من الرعايا التابعين لحكومة الجزائر يفصل في الخلاف بحضور الداي والديوان لا غير. أما إذا كان الخلاف بين شخصين من رعايا صاحبة السمو، يفصل فيه القنصل البندقي وحده.

البند السادس عشر: إذا جرح أو قتل أحد الرعايا البنادقة عقب خصام أو نزاع، تم معاقبة المذنبين وفق قوانين واعراف البلد. وإذا قتل أحد الرعايا البنادقة مسلماً ولاذ بالفرار فلا يحمل قنصل النبدقية نتيجة ذلك الخطأ، ولا الرعايا البنادقة.

البند السابع عشر: يستطيع القنصل البندقي الآن ومستقبلاً العيش في أمن وراحة تامين. ولن يأذى شخصه أو ممتلكاته أحد. ولخ حرية اختيار ترجمانه. ولما يرغب الركوب على متن سفينة ما، أو الخروج من الميناء فلا أحد يضايقه. ويُمنع للقنصل أيضاً مكان لممارسة عقيدته.

البند الثامن عشر: وليدم سلامنا وصداقتنا! لكنه إذا حدث وأدت تصرفات ما إلى نكث المعاهدة، فلا أحد يعترض سبيل قنصل البندقية ورعاياه الموجودين بالجزائر إذا رغبوا في مغادرة المدينة مع خدامهم وأمتعتهم سواء في فترة حرب أو سلم ولو وُجِد منهم من كان مولوداً بجمهورية الجزائر.

البند التاسع عشر: إذا عثر الربابنة الجزائريون على أحد الرعايا البنادقة على متن سفينة ومهما كانت جنسيتها ، ولو كانت لأعداء الجزائر، فلا يتعرض له أو

لبضاعته أحد بأذى ويحظى الرعايا الجزائريون بالمثل.

البند العشرون: عند وصول عدد من السفن الحربية التابعة للبندقية، وبعدما يُشعِرُ القنصل البندقي حاكم الجزائر بذلك، وبعد رسوها يؤمر بإطلاق واحد وعشرين طلقة مدفعية من القلعة تقديراً لجمهورية البندقية. ويرد القائد البندقي على ذلك بنفس عدد الطلقات، وتقدم المشروبات لتلك السفن.

البند الواحد والعشرون: يعفى قنصل البندقية من أية ضريبة على البضائع الموجهة لاستهلاكه الخاص أو على حاجات ضرورية أخرى.

البند الثاني والعشرون: إذا صدر مستقبلاً ما يناقض سلامنا، فلن يؤثر ذلك على صفو سلامنا ولن تنجم عنه القطيعة. غير أنه في استطاعة الطرف المتضرر أن يرفع تظلماً وبمقتضى هذه المعاهدة تتم معاقبة المخالفين. سيبقى عهدنا ثابتاً ووفاؤنا مصونا.

البند الثالث والعشرون: إن السفن الحربية المجهزة للغزو من طرف إيالة الجزائر ورعاياها، لا يجوز لها مهما كان نوعها، الغزو بخليج البندقية بأية صفة كانت ولأي سبب كان حيث يجب أن يكون رأس «سانت ماري» حداً من جهة ورا De cimara من جهة أخرى تداركاً لأي محظور.

ولا يمكن لهذه السفن الغزو إلاّ على بعد مسافة ثلاثين ميلاً من الجزر التابعة للبنادقة. وإذا استولى الجزائريون على سفن بندقية في هذا المجال يجب أن تُرد. وإذا احتاجوا إلى مؤن أو مشروبات يمكنهم التوجه إلى الجزر التابعة للبندقية حيث تتم تلبية رغباتهم مثلما هي العادة.

وإذا أتينا إلى تحليل هذه المعاهدة بدءاً بديباجاتها نلاحظ أن المفاوض البندقي لم يفاوض هذا السلام مع طرف واحد، بل مع عدة أطراف، منها ما أشير إليها بكل وضوح وهي: الداي، ومجلس الديوان والجيش، وأطراف أخرى ذكرت بصيغة غامضة: «وكل الأطراف التي يهمها الأمر، ومما لا ريب فيه أن طائفة الرياس كانت طرفاً مؤثراً في ذلك وان لم تسمى في نص المعاهدة.

لقد تناولت المعاهدة مختلف المسائل المطروحة بين البلدين، وبخاصة الملاحة البحرية وحماية سفن ورعايا الطرفين. كما حددت مجال الغزو المسموح به للبحارة الجزائريين، وتناولت موضوع الأرقاء وكيفية معالجته.

وتعرضت المعاهدة للمبادلات التجارية وحددت الرسوم الجمركية المفروضة على مختلف السفن البندقية بخمسة بالمائة.

ونصت المعاهدة على حقوق رعايا الطرفين، حيثما وجدوا (أي في الممتلكات التابعة للدولتين). كحرية التنقل، حرية المتاجرة... الخ. كما أقرت المعاهدة الحصانة الدبلوماسية للقنصل البندقي، وحددت بدقة الصلاحيات الممنوحة للقنصل (القضائية).

وبعد تحفظ بعض نواب مجلس الشيوخ البندقي، حيث اعتبروها مذلة ومخلة بالشرف نظراً لما كلفتهم من مبالغ مالية باهظة، فقد صادق عليها مجلس الشيوخ [17].

ورغم مساعي البندقية العديدة والتي استغرقت وقتاً طويلاً للوصول إلى إبرام هذه المعاهدة. فإن نتائجها لم تكن طيبة لوقت طويل، حيث تأزمت العلاقات مع اعتلاء الداي محمد بن عثمان باشا الحكم [18]، إذ لم تلتزم البندقية بالاتفاق السري القاضي بتقديم الهدايا في مثل هذه المناسبات وكان رد الداي عنيفاً فألغى العمل بالمعاهدة، بل ومزقها إذا صدّقنا رواية فانتور دي بارادي وتعرض القنصل البندقي للطرد [19]. ولم تمنع هدنة أربعة أشهر إلا بعسر، ولم يرض محمد بن عثمان باشا مباشرة المفاوضات إلاّ وفق شروط جديدة تمثلت في تقديم هدية سنوية قيمتها خمسون ألف سكينة، فضلاً عن اثني عشر ألف سكينة سنوياً بدلاً من عشرة آلاف التي نص عليها الاتفاق الأول [20].

وفي عام 1767 سعت جمهورية البندقية عبثاً التحلل من الشروط السابقة، فأرسلت أسطولاً حربياً بقيادة الأميرال «أنجلو امو Engelo-Emo في 13 يوليو، للضغط على الداي محمد بن عثمان باشا للعمل بنصوص معاهدة 1763. أي دون البنود السرية التي أشرنا إليها أعلاه، لكن دون جدوى، فرجع أنجلو امو» ثانية على رأس حملة عسكرية [21]، وعلى الرغم من هذه الاستعراضات العسكرية فإن جمهورية البندقية لم توفق في إبرام الصلح الا بعسر، وتعهدت بتقديم هدية قيمتها 31,000 سكينة، وبدفع الهدايا كل سنتين [22].

وعن هذا السلم الممنوح لجمهورية البندقية يبدو لأول وهلة أكثر تكليفاً، وإذلالاً، ولكنه في الواقع أكثره واقعية وأقله إثارة لاحتجاجات خطيرة» [23]

وصفو القول ، إن جمهورية البندقية لم يكن لها في بادئ الأمر تجربة كافية تسمح لها بتصفية مشاكلها مع الجزائر، فهي لم تقتنع بضرورة التفاوض رأساً مع حكومة الجزائر إلاّ في العشرينيات من القرن الثامن عشر، ولم توفق في عقد السلم إلا في الستينيات وهكذات دامت مرحلة المساعي أربعين حولاً.

الهوامش:

---

(1) إن اتصال التجار البنادقة بالسواحل المغاربية يعود إلى القرن الثالث عشر. إذ يبدو أن أول اتفاق أبرمته جمهورية البندقية مع حكام بلاد المغرب يعود إلى عام 1251. وقد تضمن امتيازات شتى كحرية الاتجار في جميع أنحاء البلاد وبناء مقر للقنصل والتجار، والسماح لهم بتوظيف كاتب مسيحي يسهر على عملية التسجيل في الميناء، والمحافظة على أمتعة التجار البنادقة. وحددت الضريبة على الواردات بالعشر كما سمح لجمهورية البندقية في حالة تعرضها للمجاعة بشراء الحبوب. وفي عام 1317 أبرمت معاهدة تجارية مع الملك «زكريا أبو يحيى» وكانت أكثر شمولية، ففضلاً عن تأكيدها لحرية المتاجرة، فقد أباحت للبنادقة حق امتلاك الحوانيت والمنازل وفرن، ومقبرة وحمام، بل وإقامة كنيسة أيضاً في المدن الهامة.
عن هذا الموضوع أنظر:

Laprimaudaie (elie de), Le commerce et la navigation en Algérie avant 1830. Paris, Lahure et Cie 1861 pp. 143-145

(2) تتضمن هذه المجموعة مثلما هو واضح من العنوان مجموعة من المعاهدات أبرمتها الجزائر مع عدد من الدول الأوروبية خلال القرن الثامن عشر، كمملكة الدانمارك وجمهورية هامبورغ... وجميعها مترجم إلى الفرنسية، وهي ترجمة تعود على ما يبدو إلى القرن الثامن عشر أيضاً، وهو ما ينم عن اهتمام فرنسا الشديد بكل ما كان يجري بالجزائر حينئذ.

(3) كانت هذه المعاهدة بين الدولة العثمانية والنمسا وروسيا وبولونيا بتاريخ 26 يناير 1699، وبمقتضاها تخلت عن جزء من ممتلكاتها بأوروبا. كما تنازلت عن شبه جزيرة المورة لصالح البندقية.

(4) عقدت المعاهدة بين الدولة العثمانية وجمهورية البندقية في 21 يوليو 1718 وجُرّدت بمقتضاها من ممتلكات عديدة. عن هاتين المعاهدتين أنظر: Driaut, La question d'Orient, Paris, Felix Alcon 1905.
- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، بيروت، دار النفائس.

(5) Letourneau (R), «La régence d'Alger et le Monde Turc» 4eme numéro spécial de l'Ecole républicaine. Année 1953-1954 p.60

(6) في الحقيقة إن النزعة الاستقلالية هذه نلاحظها منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر وسأكتفي هنا بالإشارة إلى بعض الأمثلة:

في عام 1556 تشبثت الانكشارية بمرشحها الذي عينته خلفاً لصالح رايس وأقدمت على اغتيال الباشا محمد تاكارلي المعيّن من طرف البابا العالي. وفي عام 1604 بينما نجحت فرنسا في تجديد معاهدة الامتياز في عهد السلطان أحمد أقدم الجزائريون على تدمير المراكز التجارية الفرنسية بشرق البلاد ـ القل، القالة، الباستيون ـ لعدم احترام فرنسا للاتفاق ثم إن المفاوضات التي أعقبت هذا الحادث تبرز بكل وضوح استقلالية القرار السياسي. ففي عام 1606 رفض الديوان الامتثال لأوامر السلطان التي كانت تقضي بتسوية الخلاف وثارت ثائرته ضد المبعوث العثماني وأصرت الجزائر على عدم مباشرة المفاوضات مع فرنسا.

(7) لقد جاءت سفارة سالفاقو عقب نهب البحارة الجزائريين والتونسيين لقرية بيراستو Perasto الواقعة على ساحل دالماسيا عام 1624، فكلف بالتفاوض بشأن الافراج عن الأرقاء البنادقة وعلى الرغم من أنه زود بفرمانات سلطانية فإن الباشا رفض أي تفاوض معه فعاد من حيث أتى، بل ولولا لوذه بالفرار لتعرض للحرق لإن السلطات الجزائرية شكت في أن يكون جاسوساً. وفي الحقيقة فإن مهمته لم تكن فقط من أجل مفاداة الأسرى بل كانت مهمة جوسسة أيضاً حيث طلب منه اعداد تقرير شامل عن وضعية الجزائر وقتذاك.

(8) Grandchamp (p), «Une mission délicate en Barbarie, jean Baptiste Salvago, extrait de la revue Tunisienne, 1937 p.19.

(9) Sacerdoti (A), «Venise et les régences d'Alger, Tunis et Tripoli 1699-1764» Revue Africaine 1957 p.277

(10) Ibid, pp. 282-283.

(11) Ibid, p. 285.

(12) Sacerdoti (A); «La mission à Alger du Consul de venise Nicolas Rosalem» in Revue Africaine 1952, p. 66.

(13) لقد حاول التجار اليهود عرقلة المفاوضات، وعقد السلام بين الجزائر والبندقية حرصاً على عدم ضياع مصالحهم التجارية، فاحتكارهم للتجارة كان يدر عليهم الأرباح الوفيرة.

(14) Sacerdoti, «La mission ....» p. 103.

(15) Sacerdoti, «Venise ....» p.294.

(16) بعد انتهائي من كتابة هذا المقال، حصلت على دراسة بعنوان: «عن الوثائق المحفوظة بأرشيف البندقية، وبعد اطّلاعي عليها تبين لي أن النص الأصلي للمعاهدة موجود وهو باللغتين العثمانية والإيطالية.

(17) Sacerdoti, «Venise ....» p. 296.

(18) Sacerdoti, «Les fortifications d'Alger en 1763 décrites par l'Amiral venitien Angelo Emo» in Revue Africaine 1951 p.187.

(19) Venture Deparadis, Alger au XVIII siècle, Tunis Ed. Bouslama p.140

(20) Grammont (H. de), Histoire d'Alger sous la domination Turque (1516-1830). Paris, Larouse 1887 p.318.

(21) Sacerdoti, «Les fortifications .... » p. 187.

(22) Venture de paradis, Alger au XVIII siècle .... p. 167.

(23) Chaillou (R), L'Algérie en 1781, mémoire du Consul C. Ph. Vallière, Toulon, S.D. p. 52.

tous les pays et Batiments apartenants aux Sujets venitiens en consequence de quoy le Dey D'alger ali Bapa, L'aga de L'armée et les apeteurs du Divan ordonnent que les dits Batiments et les corsaires sous D'alger venant a se rencontrer, ils ne se Molesteront en aucune facon, et se donneront mutuellement des temoignages de provenance et d'amitié; mais si a L'avenir on accordoit des patentes ou passeports a quelqu'autre nation, la presente paix par nous conclue sera rompue, et nos conventions seront annulées.

2° Lorsque les vaisseaux soit grands ou petits de la Serenissime Republique de Venise notre amie et les Batiments des Sujets a elle Soumis Relacheront dans les ports D'alger ou dans d'autres lieux de la Domination

de ce royaume, Il sera exigé seulement selon L'ancienne coutume ~~5~~ cinq pour cent pour les Marchandises quils vendront, de quelque endroit quelles viennent, pourvu que ces marchandises soient embarquées sur quelque Batiment qui ait le Pavillon Venitien pour le compte des Marchands Venitiens et rien de plus ne pourra leur etre demandé de sorte que s'ils voulaient rembarquer les marchandises dont ils n'auroient pu trouver Le debit et les transporter ailleurs, personne ne pourra exiger d'eux aucun droit pour les memes Marchandises, et dans les dits ports personne ne pourra ni les molester, ni retarder leurs voyages. Pour ce qui est des Marchandises de contrebande, telles que sont La Poudre le Souffre, les planches, et tous les autres

Traité de paix entre la Sérénissime République de Venise et la Regence D'alger et de Tunis —

L'an 1177 le 7 de la Lune de Muharram a été conclue la paix entre la Sereniss.me République de Venise et Ali Bapa et Dey D'alger avec l'Aga de l'armée, le Divan, comme aussi avec tous ceux qu'il convenoit, le tout s'etant executé par l'entremise du Sieur Gaetano Gervasoni Ministre de la Sereniss.me Republique — et ayant été préalablement arreté par Ali-Bapa, tout le Conseil du Divan, et toute l'armée la paix acté conclue avec la Sérénissime Republique de Venise aux conditions suivantes —

1° Il acté conclue et arreté ce jourd'hui 7 de la Lune de Muharram 1177 avec la Sereniss.me Republique et toute sa Dominations une paix solide et sincere, qui s'étend sur

صفحات من جهاد الشعب الصومالي ضد الإحتلال الإيطالي

[redacted] محمد حاج عمر [redacted]

(مدرس بكلية التربية لغولي بالصومال)

بعد أن ثبت الطليان أقدامهم في مدن ساحل بنادر وجعلوا مقدشو مركزاً لنشاطهم الإستعماري، تحركت بعثة كشفية في 1886م، بغية الوصول إلى داخل إقليم بنادر بقيادة القنصل والحاكم الإيطالي العام للمنطقة سينور أنطونيو سيكي.

وفي قرية مردف «لفولي» حاليا، وقع اشتباك مسلح بين الطليان وسكان القرية ونواحيها تعبيرا عن رفضهم التام لحكم الكفار وسيطرتهم على البلاد وكان يقودهم شيخ القرية ومربيها وهو الشيخ العالم الفاضل محمد أبيكر أوباي الذي كان يجمع بين تربية أهالي القرية وتعليمهم العلوم الدينية والعربية وبين فصل القضايا والأمور الدنيوية البحتة مما جعله يجمع في يده السلطة الدينية والزمنية.

وبالرغم من عدم التكافوء في السلاح حيث كان الإيطاليون يركبون الخيول وهم جنود نظاميون عندهم التدريب الكافي بالأسلحة الحديثة التي يستخدمونها بينما الصوماليون في المنطقة كانوا يستخدمون الرماح والسهام وغيرهما من السلاح الأبيض بالرغم من ذلك قاتل المجاهدون على ضآلة حجم إمكانياتهم المادية. كما ذكرنا قتالا شديدا، وأظهروا شجاعة نادرة وأبادوا رجال البعثة الإيطالية عن آخرهم في ساحة معركة الشرف ولم ينج منهم الا ستة وهؤلاء طاردوهم حتى لحقوهم في هولس مقر الجامعة الوطنية الصومالية الحالي وقتلوا هناك.

وكان السنيور سيكي من بين القتلى الايطاليين ومن ذلك الوقت سميت قرية مردف «لفولي» نظرا لعدد القتلى من الجانبين، حيث تعذر دفنهم جميعا ومعناها ذات العظام وقال لي أحد الذين لقوا بعض شهود الوقعة أن عدد القتلى من الايطاليين كانوا (500) قتيلا، 494 منهم قتلوا في مردف والستة الباقون قتلوا في هولس كما ذكرنا بالإضافة إلى المئات الذين استشهدوا من جانب المواطنين وعددهم أكثر من عدد القتلى الايطاليين.

وبنت سلطات الإستعمار الايطالية تمثالا للسنيور أنطونيو سيكي في «لفولي» ومازال قائما تقديرا لجهوده في إرساء قواعد الإستعمار الايطالي في إقليم بنادر كما دفن الشيخ المجاهد محمد أبيكر أوباي في نفس القرية ويزور الأهالي قبره للتقدير والاعتبار بموقفه الشجاع ضد المحتل الأجنبي.

وكانت مردف قرية كبيرة عامرة ثم خربت بعد هذه الموقعة لأنها تعرضت لحرب انتقامية من الايطاليين كما سنذكر، وكانت مركزا دينيا يفد إليه الطلاب من المناطق القريبة له لتعلم القرآن وتعلم العلوم الدينية والعربية ،وفي موقع مسجد كلية التربية «لفولي» الحالي كانت مدرسة كبيرة لتحفيظ القرآن وكان معلم القرآن فيها عند وقوع حرب لفولي هو معلم أيوب بن معلم فارح بن معلم دينله. وكلهم قد درسوا ودرّسوا في هذه المدرسة التي خرّجت العشرات من معلّمي القرآن منهم معلم أحمد زياد ومعلم عمر العلي ومعلم أبو بكر بن معلم أيوب، والثلاثة كانوا من تلاميذ معلم أيوب آخر معلم قرآن في قرية مردف قبل خرابها.

وكان الشيخ محمد أبيكر أوباي ومثله سائر علماء الصومال بعد أن يقوم بتعليم التلاميذ وتربيتهم التربية الروحية العالية ولثقته في كفاءتهم وأهليتهم للتعليم والتربية يأذن لهم أن يعودوا إلى قبائلهم أو إلى إحدى القرى التي تحتاج إلى من يعلم أهلها دينهم وذلك طبقا للآية الكريمة:

﴿فلو لا نفر من كل فرقة طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون﴾

وتخليدا لذكرى هذه المقاومة وتقديرا لجهود أهالي المنطقة في رفض احتلال الكفار لبلادهم وكون المنطقة مركزا دينيا دمرها الإستعمار قرّرت حكومة الصومال بعد الإستقلال بناء مدرسة المسلمين التابعة لوزارة التربية والتعليم التي صارت فيها

بعد كلية التربية والتعليم «لفولى» في مكان مدرسة مردف في عام 1964م.

هذا وقد واصل الكفاح ضد الإستعمار الايطالي الشيخ عبد الله حسن الذي ولد في 17 أبريل 1864 «بوهودله» في شمال الصومال وحفظ القرآن وهو صغير، ثم درس العلوم الدينية على أيدي علماء المنطقة وبعد ذلك ذهب إلى مدينة هرر وهي أكبر مركز من مراكز تدريس العلوم الدينية والعربية في غرب الصومال وهناك تلقى الشيخ محمد عبد الله مختلف فنون العلم وأجاد اللغة العربية إجادة تامة.

وفي عام 1885م، توجه السيد محمد عبد الله إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وهناك لقى الشيخ محمد صالح وأخذ عنه الطريقة الصالحية، وفي الحجاز تعرّف السيد محمد عبد الله على كثير من الفقهاء والعلماء المسلمين الذين جاؤوا من أقطار مختلفة وتبادل معهم الأحاديث والآراء حول مقاومة الإستعمار الغربي الذي منيت به معظم البلاد الإسلامية آنذاك ومنع محاولات البعثات التبشيرية للدعاية إلى الدين المسيحي وتحويل أبناء المسلمين إليه، وهناك أيضا عرف ما يجري في جنوب الصومال من مقاومة للاستعمار الايطالي التي استمرت قرابة ثلاثين سنة من 1870 ـ 1900م، واشتعل غيرة وحماسة وقرّر أن هو عاد إلى وطنه أن يساهم في مقاومة الدس الشعوبي الأوربي الذي يهدف إلى القضاء على السيادة الإسلامية ومحو ثقافته واحلال السيادة الأوربية وثقافتها وعاداتها محلها. وعندما عاد في عام 1895م، لقى في ميناء بربرة ما اعتبره إهانة لشرفه وشرف أهله ووطنه حيث طلبت منه السلطات الإنجليزية التي سيطرت على بربرة وبلهار وزيلع آنذاك أن يدفع الضرائب الجمركية على أمتعة فقال لهم: كيف أدفع رسوما لغرباء عن بلدي. وبعد نزوله إلى المدينة وجد أطفالا مسلمين يذهبون إلى مدارس البعثات التبشيرية التي فتحت في بربرة عام 1891م، لتنصير أبناء المسلمين وتعليمهم الثقافة الأوربية والدين المسيحي وعلى الفور كتب السيد محمد احتجاجا على هذه الظاهرة المنكرة إلى المندوب السامي البريطاني في بربرة.

وإيقافا لهذه الأعمال المذكرة وأمثالها في المستقبل تفرغ السيد محمد عبد الله لتنظيم صفوف إخوانه وتربيتهم التربية الإسلامية الصحيحة بتعليمهم القرآن واللغة العربية والتقاليد الإسلامية العربية مدّة تسع سنين لأن الشعب بدون وعي إسلامي كاف لا يمكن أن يحارب بالصدق وبالكفاءة المطلوبة.

وفي عام 1914م، أصدر السيد محمد مرسوما بحث فيه الشعب الصومالي على

الكفاح المسلح ضد الإحتلال البريطاني، وجاء فيه

(حاربوا الوثنيين بالسيف والمنافقين باللسان، ولكن نظرا لأن بلادنا في هذه الأيام قد دخلت حوزة الوثنيين الذين أخذوا أموالنا ونقلوا عنا أخبارنا فإن حرب الوثنيين والمنافقين يجب أن يكون بحد السيف)

وبعد هذا الإعلان بدأ الجهاد ضد الإحتلال البريطاني للدفاع عن المقدمات الإسلامية التي يهدف إليها الإستعمار أول ما يهدف وخاص السيد محمد غمار معارك شرسة في مواجهة عدو يفوقه في العدد وفي التنظيم، واستمر هذا الجهاد ما يقرب من عشرين سنة أظهر فيها السيد وجيشه البطولة الفذة والشجاعة النادرة مستلهمين من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم ومن سيرة الصحابة التي كان العلماء والفقهاء يروونه للجنود أثناء قتالهم مما شجعهم وربط جأشهم عند مواجهة عدوهم.

وهكذا نرى أن جهاد السيد محمد لم يكن مجرد انتفاضة شعبية ضد احتلال أجنبي وإنما كان مواجهة الشعوبية الأوربية الحديثة وعدم تمكينها من سحق الإسلام والعروبة في قرن افريقيا لأن السيد محمد عبد الله لم يكن في مواجهة الإنجليز فقط وإنما كان في مواجهة شعوبية ثلاث جهات صليبية ورابعة محلية، الإنجليز في الشمال والطليان في الجنوب والحبشة في الغرب وسلطان إحدى القبائل الصومالية المتعاون مع إيطاليا في الشرق فانتصرت قوى الشعوبية في المظهر ذلك أن السيد انهزم عسكريا إلا أنه وجيشه انتصروا فكريا وروحيا لأن شعب المنطقة تنبه على خطر احتلال الإستعمار ومخططاته وأقبل على تعليم أبنائه للقرآن والعلوم العربية أكثر من ذى قبل.

بعد ذلك تزعم المقاومة ضد الإستعمار الإيطالي الشيخ حسن يوسنى نور الذي ولد في إحدى قرى منطقة دافيت شمال غرب إقليم بنادر وهناك تعلم القرآن والمبادىء الأولية للإسلام ثم سافر إلى مدينة أفجوى الواقعة على نهر شبيلى قرب مقديشو وتلقى العلوم الدينية من فقه وتفسير واللغة العربية على أيدي علمائها حتى صار شيخا كبيرا وعالما فاضلا معروفا بالصلاح والتقوى محببا إلى العامة.

وبعدمدة ذهب إلى الحجازلأداء فريضة الحج وهناك التقى بالشيخ محمدصالح الرشيدي أكبرمرشدي الحركة الإسلامية في الحجازآنذاك هذاومن المعروف أنه كان

في الصومال حركة إسلامية تهدف إلى مقاومة الاستعمار الأوربي ومخططاته يقودها خلفاء الطريقة الصالحية وهدفهم إحياء الشريعة الإسلامية وتطبيق أحكامها وإقامة خلافة ودولة إسلامية في الصومال وإحياء التراث الإسلامي ومقومات الحضارة الإسلامية والعربية التي ضعف شأنها في الصومال في الفترة الأخيرة وخاصة بعد ما بدأ التدخل الأوربي في شؤون المنطقة إبتداء من الغزو البرتغالي وانتهاء بالإحتلال الغربي الجديد الذي قسم الصومال إلى خمس مناطق نفوذ إستعمارية وعلى رأس هؤلاء العلماء سيد محمد قوليد وسيد محمد عبد الله وسيد علي نيروبي والشيخ أحمد فقيه والشيخ محمد حسين والشيخ حسن برسني الذي نحن بصدد الحديث عنه وغيرهم. وحركات هؤلاء الشيوخ الأجلاء لا تقل شأنا عن نظيراتها في سائر البلاد العربية مثل حركة الشيخ عمر المختار في ليبيا وحركة الشيخ عبد القادر الجزائري في الجزائر وحركة الشيخ محمد أحمد المهدي في السودان وحركة الشيخ محمد عبد الكريم الخطابي في المغرب، ولكن حركات المشائخ الصومالية لم تحظ ولم تجد الإعلان الذي يبلغ خيرهم إلى العالم الإسلامي والعربي لذلك لم يعرف عنها كثيرا ماعدا حركة السيد محمد عبد الله حسن.

ونعود إلى الحديث عن الشيخ حسن برسني فإنه عندما حمل شعلة الكفاح والجهاد ضد الكفار من الحجاز عاد إلى البلاد وقد تمت سيطرة الطليان لمنطقة ساحل بنادر. وقد حزن لذلك حزنا شديدا ولكنه تجرع حزنه وغيظه على الإستعمار ولم ينشغل به كثيرا، بل تفرغ لتربية جيل مسلم عنده الفهم والوعي الكافي لحقيقة الإسلام في قرية «جليالي» حيث نظم الأهالي هناك وحفر لهم الآبار وبنى لهم المدارس القرآنية كما جلب لهم علماء من أماكن نائية ليدرسوا العلوم الدينية والعربية في المسجد الجامع في القرية.

وعندما بدأ الإيطاليون في التوغل إلى الداخل، اصطدموا ببعض المقاومات الشعبية منها: مقاومة الشيخ حسن برسنى الذي رفض الخضوع للفرنجة النصارى، وأرسل إليه الطليان بعض الصوماليين العاملين لحسابه ليتفاوضوا بإسمهم وعرضوا على الشيخ إيقاف الحرب ضد الطليان مقابل اعتراف الطليان له شيخا للمنطقة وأميرا لها يحكمها نيابة عن الحاكم الإيطالي العام في إقليم بنادر ولكنه رفض أي تبعية للإستعمار وقال للمفاوضين المتخاذلين الذين باعوا شرفهم للإستعمار كيف أقبل الولاية ممن لا

يملك، ثم أن الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا للتولية عليهم. فعند ذلك قام الطليان بهجوم كبير على مركز الشيخ حسن برسنى ودار هناك قتال شديد سقط فيه قتلى كثيرون من الجانبين، ونظرا لعدم تكافؤ الطرفين في السلاح والتدريب تغلب الطليان على أنصاره، واعتقلوا الشيخ حسن برسني حيث مات في السجن ولكن التربية والنظام الذي أرسى قواعده في القرية لم يمت بموته بل مازال قائما فترى نساء قرية «جليالي» محجبات إلى اليوم وترى الإقبال على تعلم القرآن والعلوم الدينية والعربية من أهالي القرية أكثر من أهالي القرى المجاورة لهم.

وقد سبق أن قلنا أن الشيخ حسن برسنى أخذ نظام الطريقة والإجازة من الشيخ محمد صالح إلا أنه أمر أن يعمل تحت أمر الشيخ محمد قوليد الأكثر منه خبرة في نظام الطريقة ولكنه اختلف معه في الرأي حيث أن الشيخ محمد قوليد وإن لم يكن مانعا للكفاح المسلح بدليل أنه أخذ بنفسه البيعة من أهالي ثلثمائة وستين قرية لمحاربة الطليان وأن للشيخ محمد قوليد التصرف في أموالهم لتمويل ذلك الحرب إلا أنه كان يرى أنه لم يحن الوقت المناسب للحرب لأنه لابد أن يسبقه استعداد طويل، بينما الشيخ حسن برسنى يرى عدم تأجيل المقاومة وبدءها فوراً.

بعد ذلك تزعم المقاومة ضد الطليان الشيخ نور الدين المركى.

في الثمانينات من القرن التاسع عشر قبل السلطان سعيد برغش بضغط من إيطاليا أن يتنازل لها عن ساحل بنادر في الصومال ورفض الشعب الصومالي هذه الإتفاقية الجائرة وقام بسلسلة من الثورات ضد الإستعمار الإيطالي، وتعاهد الأهالي في أن يدافع كل قوم بما يليهم من الساحل ويمنع نزول الطليان منه، وحركة الشيخ محمد نور المركى تعتبر امتدادا لتلك السلسلة الطويلة من الثورات.

لا نذكر تاريخ ولاة الشيخ محمد نور المركى ولكنه ولد في قرية «عيل أرى» شمال شرق مدينة مركة في أوسط القرن التاسع عشر وبعد أن تعلم القرآن في قريته ذهب إلى مركة ليواصل تعليمه الديني هناك، كما درس فترة على أيدي كبار علماء مدينة كندرش.

وبعد مدّة، ذهب إلى الهند بعد أن سمع عن علمائها ونشاطهم العلمي والفكري عن جالية الهند المسلمين في مدينة مركة الذين كان لهم نشاط تجاري كبير في المنطقة. في تلك الفترة، وفي الهند استكمل دراسة العلوم الدينية والعربية التي بدأها في

الصومال وخاصة علوم الحديث التي كان يندر دراستها في الصومال في ذلك الوقت.

وفي الفترة التي قضاها في الهند، كان يسمع من شيوخه عن أخبار مآسي الإستعمار الإنجليزي ومحاربته للثقافة الإسلامية والعربية وكان العلماء يحرصون أثناء تدريسهم على إيقاظ المسلمين عامة وتلاميذهم خاصة وعلى غرس روح المقاومة للكفار الذين سيطروا على مقاليد الأمور في جميع البلدان الإسلامية تقريبا.

وبما أن معظم حركات المقاومة كان يقودها مشائخ الطرق الصوفية آنذاك، إنضم الشيخ محمد نور الدين المركى إلى الطريقة الرفاعية وأخذ من أحد علمائها في الهند الإجازة وعاهده على أن يربي المسلمين في الصومال تربية إسلامية ويعدهم لتحرير البلاد من نير الكفار.

وفي طريق عودته عرج على الحجاز وأدّى فريضة الحج، وهناك التقى بعلماء مسلمين جاؤوا من مشارق الأرض ومغاربها وازداد شيخنا حماسه وحبه للدين الإسلامي وعاهد نفسه على أن ينقطع لخدمته وتربية النشء على تطبيق حياته في حياتهم، فالمبادئ في حكم العدم إذا لم تخرج إلى واقع الحياة.

وبعد عودته إلى الصومال، إتخذ قريته عيل أرى قاعدة لنشاطه الديني يفد إليها الطلاب من القرى والمدن القريبة والبعيدة يعلم التلاميذ ما تلقى من علوم الدين واللغة العربية على أيدي علماء الصومال والهند كما كان يعبئهم روحيا على نظام طريقته الرفاعية.

وكان الشيخ محمد نور الدين يقوم بجولات عملية في النواحي البعيدة عن قريته بصحبة بعض تلاميذه للدعوة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية لأن شعب الصومال وإن كان مسلما مائة في المائة إلا أنه في حياته العملية يحتكم ويرجع إلى عاداته وتقاليده المتعارفة لديه في كثير من الأمور فكان يذهب إلى مدينة مقدشو ومركة وبراوة وطنانى وجزيرة وغيرها من المدن الساحلية.

وكان الطليان يتوجسون خيفة من حركات الشيخ المريبة لديهم لأنه وإن لم يعلن للذين يتحدث إليهم مقاومة الطليان المسلّحة إلا أنه كان يدعوهم إلى الإعتزاز بالله وأن تكون عندهم الانفة والغيرة وأن لا يرضوا بالذل والإهانة لأن الإسلام يحرم ذلك على المسلمين وكان ينتقد انتقادا مرا نظام السخرة الذي يمارسه الطليان في مزارعهم الكبيرة على ضفاف نهري جوبا وشبيلى ويعتبره نوعا من الاسترقاق

والشريعة لا تبيح استرقاق الكافر للمسلم وهذا في الحقيقة دعوة خفية إلى مقاومة الإستعمار وإخراجه من البلد، ولذلك كان الطليان يرسلون إلى الشيخ محمد نور الدين بعض الشيوخ الذين يثقون بهم لينصحوه بترك التعبئة وكراهية الاستعمار التي يغرسها في قلوب أتباعه ومن هؤلاء الذين أرسلهم الطليان إليه الشيخ علي ميه الذي نصحه بعدم إثارة السلطات الإيطالية ضده وهو في عافية منها الآن ومما قال الشيخ علي ميه له: «كلنا نكره الكفار ونكره حكمهم للبلاد ولكن لا طاقة لنا بظروفنا وإمكانياتنا الحالية أننواجههم»، ولكن الشيخ محمد نور الدين رفض رأيه رفضا باتا ولم ينقل الشيخ على ميه إلى الطليان كل ما سمعه من الشيخ بل قام بتهدئتهم ونصحهم أن يتركوا الشيخ محمد نور الدين وشأنه لأنه لا يرى فيه خطرا على حكمهم كما ظنوا.

المعركة الدائمة في «عيل أرى» بين الطليان وأنصار الشيخ محمد نور:

في عام 1925م، بعد أن تمت سيطرة الطليان لمعظم مدن الإقليم الجنوبي في الصومال وقعت معركة دموية عنيفة في قرية عيل أرى والمناطق القريبة منها والسبب المباشر لقيامها هو أن اثنين من المواطنين الصوماليين قتلا إيطاليا في مدينة أفجوي الواقعة على بعد ثلاثين كيلو مترا غرب مقديشو العاصمة ثم هربا ولجأ إلى قرية «دبلاي» التابعة لناحية مركة قرب مدينة «جلوين» وهي من المراكز الدينية التي أسسها أحد تلاميد الشيخ محمد نور المركى وهو الشيخ أبيكر شيغال.

وعندما جاء العساكر إلى الشيخ أبيكر شيغال وهم يطلبون القاتلين رفض تسليمها إليهم حتى يتشاور في أمرهما مع شيخه وعلى الفور ذهب بالقاتلين إلى الشيخ محمد نور المركى وقال الأخير بحسم للعساكر أنه لا يسلم إليهم القاتلين المسلمين لأنه لا يجوز الاقتصاص من المسلم للكافر وأصرّت السلطات الإيطالية على تسليم القاتلين للحكومة للاقتصاص منهما لأنهما قتلا شخصا عمداً.

وإذ أصبح الموقف ينذر بوقوع الحرب لا محالة قام الشيخ محمد نور بتعبئة جيش المقاومة الشعبية وأرسل إلى رؤساء أنصاره من علماء دين وشيوخ قبائل واجتمع لديه قوّة كبيرة من المحاربين وكلهم حماسة واستعداد للدفاع عن بيضة الإسلام والعروبة التي أصبحت في خطر أمام إزدياد النفوذ النصراني ممثلا في

الإستعمار الإيطالي، وكان الشيوخ الآتية أسماؤهم أبرز قواد القوات التي تجمعت لديه، وهم: الشيخ بنيامين أحمد نور القائد العام للقوات، والشيخ محمد عبدله اليمني أقرب التلاميذ إلى الشيخ وهو في نفس الوقت تاجر كبير في مدينة مركة ولو لا سخاؤه البالغ وتمويله لمركز الشيخ محمد نور لم يستقر أمر الشيخ في المركز ولم يتمكن من نشر دعوته في المدن والقرى القريبة من المركز، ومنهم الشيخ محمد شيخ عبد الله والشيخ عمر نور وهما ينتميان إلى قبيلة وعظان التي تقطن أفجوى ونواحيها والشيخ حاج سعيدو من قبيلة باحسن العربية التي تسكن في مدينة «جزيرة» وهؤلاء الشيوخ كانوا قبل ممارسة عملهم الجديد كقواد القوات المقاومة الشعبية كانوا يقومون بتدريس الكتب الدينية والتربية الروحية على نظام الطريقة الرفاعية التي جاء بها الشيخ محمد نور المركى من الهند.

وفي يوم الخميس 27 من شهر جمادي الأول عام 1346هـ، انطلقت الشرارة الأولى للمعركة، وحارب تلاميذ الشيخ محمد نور المركى وأنصاره ببسالة وأظهروا الروح الإسلامية التي لا تهن ولا تضعف أمام قوى الكفر والطغيان وسقط أول قتيل إيطالي بسيف الشيخ بنيامين القائد العام للمسلمين في هذه الموقعة ثم التحم الجيشان في قتال مرير برغم عدم تكافؤ الطرفين.

وفي 14 من شهر جمادي الثاني، استشهد الشيخ بنيامين القائد واستشهد كذلك الشيخ محمد نور المركى في تلك الأحداث ولكن الحرب استمرت بعدهما مدّة سنتين، وامتد نطاق الحرب واشترك فيه جميع سكان المدن الواقعة بين مركة ومقدشو كجزيرة وطناني وجلب ونيمو وكندرشه وغيرها، وسكان هذه المدن كلها عرب بيض كما اشتركت القبائل البدوية التي تسكن في تلك المنطقة كقبيلة بيال التي ينتمي إليها الشيخ محمد نور المركى وكقبائل وظلام ووعظان وأبكال وغيرها.

وبالرغم من الشجاعة الفائقة والروح الإسلامية الحقة التي أبرزها قوات المقاومة الشعبية إلا أن الجيوش الإيطالية المدججة بالأسلحة الحديثة تمكنت من هزيمة الأهالي وسحق قواتهم ثم قامت بحركة انتقام فظيعة. فدمّرت كل المدن التي اشتركت في الحرب وفر أهاليها إلى مقديشو ومركة والمدن الواقعة على نهر شبيلي القريبة وتتبعت القبائل البدوية وأخذت منهم الآلاف كأسرى حرب وسيقوا إلى سجن طناني الكبير الذي بنى خصيصا لهذا ولم ينج منهم إلا واحد لأن هناك نفقا في السجن يصل

إلى البحر عن طريق فجوات وقنوات مائية، فكان الأسرى يرمون في هذا النفق واحدا بعد واحد، فيموتون أما الذي نجا فكان مصلوبا وهو حي بأخشاب. فاعترضت هذه الأخشاب النفق ولم ينزل السجين إلى العمق وتعلق بصخرة واستطاع أن يتسلل من هناك وينجو بأعجوبة.

وانتقاما من الشيخ محمد نور الدين المركى وقائده العام الشيخ بنيامين، ونظرا لأنهما السبب في اشتعال الثورة ضد السلطات الإيطالية التي تهدف من بين ما تهدف إلى القضاء على الإسلام وتقاليده في المنطقة واحلال التقاليد والقيم الأوربية النصرانية محلها قرّرت سلطات الاستعمار في جنوب الصومال إرسال أولادهما إلى إيطاليا لتعليمهم في مدارس الكنيسة الكاثوليكية ولتنصيرهم وتغيير عاداتهم ومفاهيمهم الإسلامية. فتمكنت السلطات من أخذ ولدي الشيخ محمد نور إلى روما وهما: شيخ محمد عبد الرحيم وشيخ محمد نور الذي انضم بعد عودته إلى حرب وحدة الشباب الصومالي (S.Y.L) وصار عضوا في اللجنة المركزية في الحزب ليشارك في تحرير وطنه، وأما الثاني فلم أعثر على إسمه ولكنه عاد أيضا إلى الصومال، ولم ينتصر أي منهما بل حافظا على إسلامهما والتزما أحكامه وهما في إيطاليا وبعد عودتهما منها.

أما أولاد الشيخ بنيامين الثلاثة وهم الشيخ عثمان بن شيخ بنيامين والشيخ إبراهيم بن شيخ بنيامين والشيخ محمد بن بنيامين فنجوا من قبضة السلطات الإيطالية بحيلة دبرتها إحدى زوجات تلاميذ الشيخ محمد نور الدين المركى بأن صرحت أمام السلطات بأن هؤلاء الأولاد ليسوا من أبناء الشيخ بنيامين وإنما هم أولادي وأنا أنتمي إلى قبيلة تسكن في منطقة نائية وكذلك زوجي المتوفي أبو الأولاد وإنما جئنا إلى هذا المركز لنتتلمذ على الشيخ محمد نور الدين المركى ثم نعود. فصدقوها وسلموا إليها أولاد الشيخ بنيامين ثم أخذوا إلى الشيخ عثمان بغل صون في مدينة كسمايو وتربوا عنده حتى صار الثلاثة شيوخا كبارا معروفين يعظمهم الأهالي لأنهم أنجال الشيخ بنيامين القائد العظيم، وهكذا أضل الله سعي السلطات في تضليل أبناء أولئك الأبرار وإفساد أخلاقهم.

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

صدق الله العظيم

وعقاباً لما قام به شعب الصومال من ثورة على الطليان في ساحل بنادر ونظراً لاحتياج السلطات الإستعمارية إلى أيدي عاملة رخيصة، قرّرت هذه السلطات أخذ عمال السخرة الذين يقومون بتعبيد الطرق وإقامة المزارع الكبيرة التي توطد أركان الإستعمار من القبائل الثائرة والمجاورة لها، وهناك القصص المخزية والمزرية التي يرويها المعمرون عن سواء أحوال عمال السخرة والإجراءات التعسفية التي كان يقوم بها المستعمرون القائمون بتنفيذ تلك المشاريع.

حرق الإيطاليين لبعض المراكز الدينية في إقليم بنادر:

بعد أن استب الأمر لإيطاليا في الصومال قرّرت أن تقوم بحركة انتقام لهزيمتها وقتل جنودها في موقعة لفولى، وبما أن العلماء هم طليعة الشعب وقادتهم في حركة المقاومة ضد الاستعمار الأوربي الذي بدأ يتحسس مواطىء قدم له في المنطقة قرّرت السلطات الإيطالية ضرب المراكز الدينية في إقليم بنادر والتي هي مركز إشعاع تصدر منه الحماسة الدينية ويبث في الجماهير روح الجهاد في سبيل الله ومقاومة المحتل الذي جاء من وراء البحار.

ومن المدن والقرى التي نكبت بحركة الإنتقام الإيطالي مدينة جزيرة ونيَّمو وطناني وجندرشي ومريري ولفولي وكلها تطل على المحيط الهندي بين مقديشو ومركة، الامريري فإنها تقع بين مقديشو وأفجوي، وتم تعطيل حلقات الدروس الدينية والعربية التي كانت تلقى في مساجد هذه المدن وخلواتها وفر كثير من سكانها إلى الداخل وإلى مقديشو ومركة، أما مدينتا نيمو ومردف «لفولي» حاليا فدمرتا تدميرا تاما ولم يعد إليهما سكانهما، وأما مدن طناني وجزيرة ومريري وكندرشي، فعاد إليها بعض سكانها لكن لم تعد عامرة كما كانت من قبل.

ومن بين الذين فروا من وجه الطليان عند تدميرهم لتلك المراكز العلماء الذين كانوا يقومون بالتدريس في مساجد تلك المدن وخلواتها مثل الشيخ أحمد حاج مهدي شيخ مدينة نيمو المشهور بأحمدو معلم قاضي المدينة وخطيب المسجد الجامع في مدينة نيمو الواقعة بين مقديشو وجزيرة.

أما الشيخ أحمد حاج مهدي فقد استقر في إحدى قرى ناحية جوهر على بعد تسعين كيلو متر من مقديشو ناحية الشمال بعيدا عن سطوة الإيطاليين وعيونهم الذين

ينقلون إليهم الأخبار لأنه كان المحرك والموجه لجميع الثورات والمقاومات التي كانت تقوم هنا وهناك في إقليم بنادر، وهناك في مقره الجديد تفرغ الشيخ للتربية والتعليم وتخرج على يديه الكثير من العلماء مثل الشيخ عثمان بغل صون الذي استقر في منطقة كسمايو فيما بعد ومثل الشيخ آذن محمود المعروف بشيخ آذن أولياهان الذي صار عالم بنادر ورأس المقاومة للإستعمار وهو الوحيد الذي سكن مقدشو من تلاميذ الشيخ أحمد حاج مهدي لأن السلطات الإيطالية كانت لا تسمح للشيخ أحمد حاج مهدي وتلاميذه الإستقرار في المدن الكبرى ومن تلاميذه الشيخ إبراهيم علي جعل الذي استقر في قرية جرس بالي والشيخ أحمد عدو الذي استقر شرق مدينة جوهر ومنهم العالم الكبير شيخ أبو بكر بن شيخ أحمد حاج مهدي الذي كان يقوم بالتدريس في كل من مقديشو وقرية ورابالي الواقعة جنوب لفولي قرب مدينة أفجوي.

ومن حكايات شيخ أبو بكر أنه بعد اخماد ثورة شيخ محمد نور الدين المركي جمعت السلطات الإيطالية العلماء لتأييد موقفها وإعلان الولاء للحكومة الإيطالية ولكنه قال للسلطات علنا دون وجل أن الشيخ محمد نور كان على حق فإنه وأتباعه كانوا مجاهدين ولم يكونوا متمردين ونحن على طريقهم سائرون إن سمحت لنا الفرصة فتعجب الحاضرون من كلام الشيخ وخافوا على حياته من بطش الطليان ولكن الله نجاه من كيدهم.

وعلى كل حال كان الشيخ أحمد حاج مهدي عالم إقليم بنادر وأعظم تلاميذ الشيخ أبيكر بن مضار وأكثرهم تلاميذا وأطولهم باعا في مجال التربية والتعليم وفي مجال المقاومة ضد الإحتلال الإيطالي ومحبوبا لدى الأهالي في إقليم بنادر من كسمايو إلى عدلى.

وبعد قتل أنطونيو سيكى في لفولي جاء بعض رجال المقاومة إلى بيت كبير علماء بنادر وهو الشيخ أحمد حاج مهدي تهنئة له على انتصار المسلمين كعادة الصوماليين في اجتماعهم لدى الزعيم أو الشيخ العالم في المناسبات العظيمة وكانوا ينشدون الأراجيز أمام بيته باللغة الصومالية ومنها هذا البيت:

شين طغو شيخ أحمد جاجي شيكي شيـــدان ما أهو

ومعناه:

يا شيخنا شيخ أحمد حاج أليس شيكي شيطاناً رجيماً

ومن العلماء الذين فروا من وجه الاستعمار في مركة الشيخ عمر سعدو واستقر في قرية «سريرة» قرب قرية «لانت بور» وهناك تفرغ للتدريس والتعليم ووجد عيون الطليان أخباراً عن نشاطه التربوي هناك ونقلوها إلى السلطات في أفجوى وعلى الفور قرر حاكمها إلقاء القبض على الشيخ وإعدامه وقال لتلاميذه مودعاً لهم ومحتسباً عندما علم قرار السلطات الإيطالية: «غداً إن شاء الله لقاؤنا في ظل العرش وفي الفردوس العلي»، ولكن أحد التلاميذ أسرع إلى مدينة أفجوي وأحاط علي بادل شيخ قبيلة وعظان علماً بتفاصيل الموقف، فعند ذلك قال شيخ القبيلة للتلميذ أتوا لي الشيخ هذه الليلة، فأتوا به إليه، وفي الصباح كلّم شيخ القبيلة حاكم أفجوي الإيطالي في أمر الشيخ وقال له موهماً إياه أنه شيخ مجذوب وليس شيخاً ثائراً يحرك الشعب ضد سلطات الاستعمار كما سمع، فهدأت ثورة الحاكم وعفا عن الشيخ عمر سعدو ولكن أمر بإيقاف نشاطه التعليمي والتربوي في قرية «سريرة».

ومنهم الشيخ محمد إسحاق الكندرشي الذي تضرر بالإستعمار الإيطالي وذلك أن الطليان بعد أن استقرّت لهم الأمور في بنادر طلب العلماء من السلطات الإيطالية أن تحكم المحاكم بالشريعة الإسلامية ووافقت السلطات على ذلك ولكن احتفظت لنفسها تسنين عقوبات بعض الجرائم مثل: عقوبات جرائم الزنا والسرقة والخمر والقصاص، وبعد مداولات ومشاداة بين العلماء والسلطات اتفقوا على استثناء عقوبات هذه الجرائم إلا الشيخ محمد إسحاق الكندرشي فإنه أصرّ على أن تحكم المحاكم بالشريعة الإسلامية في جميع الأمور والقضايا فعند ذلك حبسته السلطات ونفته إلى حافون ثم خففت عند العقوبة وسمحت له بالعودة إلى قرى إقليم بنادر ولكن كان محظورا عليه سكنى المدن إلا شهر رمضان فإنه سمح له أن يصوم في مدينة كاندرشه.

ومن العلماء الذين لحقهم الضرر من الإستعمار الشيخ أويس بن أحمد بن حاج محمد المعروف بالشيخ أويس القادري المولود في مدينة براوة وبعد أن درس القرآن وبعض كتب الفقه واللغة العربية في مدينته رحل إلى طناني لطلب العلم ومن الشيوخ الذين تلقى منهم العلوم شيخ حاج يحيى عدو المشهور بن حاج وهليه الأحمدي وصار الشيخ أويس عالما مشهورا يشار إليه بالبنان ثم أشار إليه الشيخ حاج وهليه لما رأى منه النبوغ والذكاء أن يواصل رحلة العلم وأمره أن يسافر إلى حضر موت وسافر فعلا إليها وتتلمذ على أيدي كبار علمائها ومن حضر موت واصل رحلته في

طلب العلم إلى الحجاز. فدرس الحديث في مكة والتفسير في المدينة ثم ذهب إلى العراق والتقى بكثير من علمائها ولكنه لزم حلقات الشيخ مصطفى القادري وأخذ عنه الطريقة القادرية.

وبعد عودته إلى الصومال عرضوا عليه أن ينزل في طناني، فرفض بل استقر في مدينة براوة وبدأ يدرس ويربي الناس تربية إسلامية وافتتح محلا تجاريا كبيرا ينفق من دخله على اليتامى والمساكين وعند ذلك توجست السلطات الإيطالية منه خيفة وجمدت نشاطه في براوة ثم انتقل منها نهائيا واستقر في مدينة بلد أمين واتخذ منها قاعدة لنشاطه الديني وكانت القافلة التي تحمل رحله ورحال تلاميذه تتكون من أربعين جملا.

ولم يكن الشيخ أويس مجرد داعية إلى الإسلام ومجرد مدرس يقوم بتدريس العلوم الدينية بل كان مصلحاً اجتماعياً كبيراً قام بإصلاح ذات البين بين قبائل كثيرة في إقليم بنادر، مثل إصلاحه بين قبيلتي تني وبيال وبين قبيلتي وعظان وبيال، وبين قبيلتي هلبي ووعظان، وبين سلطنة جلدي وبيال وغيرها من القبائل. كما قام بإصلاح ذات البين بين علماء كثيرين وخاصة بين الفقهاء وبين خلفاء الطرق الصوفية وكوّن مجلساً استشارياً للعلماء، ومن العلماء الذين رحبوا بفكرته هذه ولقيت عندهم القبول الشيخ أحمد حاج مهدي وشيخ صوفي وشيخ أبيكر أحلاوي وشيخ سرير وكلهم من تلاميذ الشيخ أبيكر محضار الذين تلقوا التعليم لديه في مدينة ورشيخ ثم ذهب الشيخ أويس إلى شيخ علي ميه في مركة وعرض عليه الفكرة وقبلها بحرارة ثم اتفقا على توحيد الطرق الصوفية وتوحيد الأهداف وإصدار كتيباً أو وثيقة تضمنت ذلك، ثم كتبا عليها نحن إخوان مسلمون وختما بخاتمها الخاص، ومما اتفقا عليه أن يرأس بعثة الحج الصومالية أحد شيوخها كل سنة، ورأس أول بعثة بعد هذه الإتفاقية الشيخ علي ميه.

وكان الشيخ أويس يهتم بمقاومة الاستعمار عمليا كما اهتم بتربية الناس وتهذيبهم، وكان الهدف من رحلته الأخيرة إلى بيولي هو تنظيم صفوف الشعب لبدء المقاومة واشترى بعض الأسلحة وعرف الطليان بخطة الشيخ أويس ودبروا له مؤامرة لاغتياله وتم ذلك فعلا، ويقال أن خطة قتل الشيخ أويس لم ينفرد بها الطليان وحدهم وإنما اشترك معهم الإنجليز والحبشة لأن كلا منهم كان يرى أن خطرا جديدا

قادم من هذا الشيخ وأعوانه وهو أشد خطورة من حركة السيد في شمال الصومال لأن الشيخ أويس نجح في تجميع صفوف العلماء وتجميع صفوف القبائل وإصلاح ذات بينهم وحيث امتد نشاط دعوته وتربيته من إقليم بنادر شمالا حتى موزنبيق جنوبا.

وكان الشيخ أويس شاعرا بليغا متضلعا بالعربية وله ديوان شعر يضم قصائد دينية وخاصة في مدح رسول الله ﷺ وفي توحيد صفوف المسلمين وكان يكره التعصب القبلي، والدعوة إلى التجمع تحت لواء القومية بل كان يرى أن توحيد المسلمين تحت لواء الإسلام كفيل بحل مشاكلهم السياسية والإجتماعية والإقتصادية وغيرها، كما كان ذلك رأي غيره من العلماء والمصلحين المسلمين المعاصرين له كالشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده المصري وغيرهما وكان شعاره الذي يهتف ويهتف به أتباعه دائما وخاصة في حلقات حضراتهم «هو الله ربنا وطه نبينا، والجيلالي شيخنا والتقوى لباسنا»، وكان هذا جوابا عن سؤال متعنت دبّر له بعض المعاندين حيث قالوا له: من أي قبيلة أنت والي أي طريقة تنتمي. فقال: ليس لي قبيلة ولكن الله ربي وطه نبيي والجيلالي شيخي في الزهد والتقوى لباسي، وهل هناك شيء أفضل من ذلك أفتخر به.

يتضح لنا مما سبق كيف هاجمت الشعوبية الأوروبية الحديثة على الإسلام والعروبة في قرن إفريقيا هجوماً مركزاً ومحاولة طمس معالمها وفرض عادات وتقاليد وافدة محلها، ولكن العلماء ومن ورائهم الشعب الصومالي المسلم قاوموا ذلك بكل ما عندهم من جهد وتعرضوا بسبب ذلك للقتل والنفي والسجن والتعذيب وتجميد النشاط وقفل المدارس وغير ذلك من الإيذاء كما حاولت عرضه في هذا المقال الذي يذكر القارئ العربي بأمجاد الصومام ومساهمته في العطاء العربي الإسلامي المشترك.

محمد حاج عمر: ديسمبر 1989

كلية التربية لفولي بالصومال

النوادي الثقافية الجزائرية التي كانت تنشط قبيل الحرب العالمية الثانية

د. عمّار هـلال

إرتأينا في هذا الظرف التاريخي المتميز التي تمر به البلاد، أن نلقي نظرة خاطفة على دور النوادي الثقافية التي وجدت في الجزائر إبان الثلاثينات من هذا القرن، وعن مدى انتشارها في البلاد والرسالة الموكولة لها، خاصة وأن قضية الثقافة مطروحة بإلحاح، في هذا القرن بالذات، الأسباب عدة: أهمها تسييس الثقافة وإتخاذها ذريعة للوصول إلى أغراض معينة، وتسييس الجامعة في آن واحد. وجميل أن تتسيس الجامعة وتعرض سياستها على المحيط الخارجي، ولكن أن تكون لعبة في يد الساسة والمتسيسين، فذلك أمر غير طبيعي بالمرّة.

حقا أنه من وجهة نظر أخرى، فالكلام عن حياد الثقافة قد لا يفهمه البعض، بل هناك منهم من لا يفرق بين النشاط الثقافي والسياسي البحث، وهي ظاهرة عاشتها الجزائر خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية. والخلط بين الثقافة والسياسة خلال هذه الفترة بالذات كانت له مبررات أهمها مغالطة الاستعمار الفرنسي واتخاذ الجانب الثقافي من قبل الجمعيات والنوادي ستارا واقيا يحميها من قمع واضطهاد المستعمر لها والحيلولة دون حلها ومتابعها والتنكيل بأعضائها والمشرفين عليها.

ولكن اليوم، ونحن نعيش التعددية السياسية، ونخوض التجربة الديمقراطية، فماهي مبررات الخط بين الثقافة والسياسة؟

سؤال يطرح نفسه بإلحاح شديد... فمن السذاجة اعتبار بعض الأطراف التي في نيتها احتراف السياسة لا لشيء، ولكن لتوظيفها في تحقيق مآربها الخاصة، أو للاستحواذ على السلطة، ولو كان ذلك على حساب المبادىء والمثل العليا الوطنية،

أو حتى ولو كان ذلك على حساب وحدة شعب بأكمله، بل المشكلة أعمق من ذلك بكثير.

ومن السذاجة أيضا أن نعلل ونرد كل الأمراض الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وبخاصة منها المعضلة الحضارية التي تتخبط فيها إلى العواصف الهيجاء التي تأتينا من الضفة الأخرى للبحر الأبيض المتوسط، وأنه كلما تحرك ساكن بيننا، نرد تحركه إلى تعامله مع الأيادي الأجنبية، وأنه لولاها لما تحرك وبقي ملازما الصمت إلى ما لا نهاية.

حقا أن كل تحرك، مهما كانت طبيعته، لابد وأن يكون له مبرر، إمّا شخصي أو غير ذلك، يستهدف مثلا تحطيم جدران الصمت، والتعبير عما يجول في كيان صاحبه من أفكار إزاء وضعية مزرية، يعيشها أولا وقبل كل شيء المعني بالأمر، وكم هم كثيرون الذين يريدون الصراخ ولكن لا يجدون سبيلا إلى ذلك، وعلى عكس ذلك، فهناك من يستطيع تناول الكلمة متى شاء، وأن يوصلها إلى من يحب، وبالوسائل التي يريد، ولكنه لا يفعل...! وهناك من ينتهز الفرص ولا يفوت عليه أدناها للظهور أمام الجماهير لكي لا يقول شيئا حتى وإن فعل.

والحق أن الذين «يقولون» في وقتنا هذا، والذين «يفعلون» مجهولون لا يظهرون بأي شكل من الأشكال أمام العامة ولكنهم معروفون لدى الخواص فردا فردا.

إذن نحن أمام المرأيّ والمخفي قوتان متفاعلتان فيما بينهما، الأخير يوحي للأول مواقفه وتصرفاته، وفي آخر المطاف إن فعلت شيئا هذه القوة المخربة، فإن فعلتها تتمثل في تطويق الجهود المخلصة ونسف كل ما من شأنه أن يقدم أبسط الخدمات للصالح العام، وذلك هو المرض بعينيه.

والأخطر من هذا كله، أننا نعيش في أيامنا هذه ظاهرة خطيرة ديماغوجية نفعية قاعدتها: «شراء الصمت بالدفع أو بدونه، إلى أن تلعب اللعبة ويظهر الخاسر والرابح»، ذلك لأن القضية قضية محافظة على مكاسب وامتيازات، بالنسبة لأهلها، فهي قضية موت أو حياة، فويل لمن خولت له نفسه المساس بها أو تهديدها في وقت من الأوقات.

في هذا السياق تلعب لعبة الثقافة، وباسم الثقافة، وباسم العلم والمعرفة، فكلما «ثار ثائر» إلا وأن تأبط يسرةً مذهبه أو إيديولوجيته ويمنة الثقافة المسكينة ليقدمها

ضحية ويتخذها ذريعة للوصول إلى ما يصبو إليه.

هل ذلك يعني غياب قاعدة ثقافية أصيلة للجزائر؟ بالطبع لا. أم ذلك مرده إلى تصارع ثقافات مختلفة تأصلت في الوطن؟ والجواب هنا كذلك بالنفي. ثم أن هذه التيارات الثقافية التي تدعي أن لها الحق في العيش على أرض المليون ونصف المليون شهيد، هل تساءلت يوما ما على ما ينجر عن ذلك من عواقب وخيمة بالنسبة لمستقبل البلاد حضاريا وسياسيا؟

والباحث في البينة الثقافية للجزائر المعاصرة ما عليه إلا أن يرجع لعقد الثلاثينات الفارطة، وهو العقد الذي يبرهن بدون شك على إثبات الهوية الثقافية العربية الإسلامية للجزائر وذلك بانتشار النوادي الثقافية العربية في كامل مناطق الوطن. ومنها ما كان معروفا لدى الباحثين والدارسين لهذه الفترة، ومنها من لم يكن يمثل شيئا، لا بالنسبة للمواطنين ولكن أيضا بالنسبة للأجانب المهتمين بتاريخ الجزائر.

والملاحظ، أننا خلال هذه الفترة، لم نجد سوى النوادي ذات الطابع العربي الإسلامي، حتى تلك التي كان يشرف عليها ويسيرها جزائريون مثقفون، أو متعلمون بغير اللغة الوطنية. وبالتالي فقضية اللغة المستعملة آنذاك لم تشكل حاجزا أمام توحيد الرؤية الثقافية ومن ثم توحيد الجهود لدحر الاستعمار الفرنسي. فكيف، ونحن في هذه الحال نتخبط، لا نرجع قليلا إلى الوراء لتصحيح رؤيانا ومواقفنا من هذه القضية أو تلك؟

إن فيديرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين نفسها قد أسهمت في إنشاء نوادي ثقافية في بعض أنحاء الوطن ولم تعط هذه النوادي صبغة أخرى غير الصبغة العربية الإسلامية، ولم توجه المتوافدين عليها توجيها آخر سوى التوجيه العربي الإسلامي، وذلك ما نفهمه نحن بفصل السياسة عن الثقافة عمليا. فسياسة هذه الفئة معروفة بموالاتها وسيرها في فلك السياسة الاستعمارية ولكن ذلك لم يمنع أعضاءها من إيجاد نوادي ثقافية عربية إسلامية، بعضها كان يدرس مساء اللغة العربية ويخصص دروسا للوعظ والإرشاد للشباب الذي كان يتردد عليها، والجدول المرفوق لهذه الدراسة يبين ذلك بطريقة لا غبار عليها.

إن هذه الفئة لم تر تناقضا بين عروبتها وإسلامها واللغة التي تستعملها في حياتها

اليومية، فكل ذلك بالنسبة إليها يذوب في بوتقة واحدة هي جزائريتها على الأقل فيما يتعلق بالجانب الثقافي البحت، أما فيما يخص جوانب أخرى فذلك شأن آخر. وقد التقى هؤلاء فيما يخص هذا الصدد في كثير من الأحيان بالعلماء المصلحين الجزائريين والمثال على ذلك هو التقاء الدكتور سعدان باشيخ محمد خير الدين في بسكرة، حيث جمعت بينهما كثير من القضايا ذات الاهتمام العام. وبخاصة القضية الثقافية التي لم تكن محل خلاف بينهما، في أي وقت من الأوقات وفي الوقت ذاته قرّب الشيخ عبد الحميد بن باديس الأمين العمودي، ولم ير مانعا أنه كان متضلعا في اللغة الفرنسية، بل حبذ ذلك واستغله في عدّة مناسبات خاصة في اتصالاته المباشرة مع الإدارة الفرنسية على مختلف مستوياتها. ذلك ما نفسره نحن بوضع القضية الوطنية فوق كل اعتبار.

وفي نفس السياق، أسس قدماء تلاميذ المدارس الأهلية سنة 1937 جمعية في الميلية، ولم تخف تعاطفها مع جمعية العلماء ومبادئها الحضارية وانتمائها العربي الإسلامي على الرغم من أن هؤلاء «التلاميذ» لم يتلقوا تعليما آخر سوى التعليم الاستعماري، غير أن متّكأهم كان صلبا لا يلين ولا يتأثر إلا بغير الثقافة التي تغذوا بها وهم في المهد.

إن الرجوع للتاريخ والاصغاء إليه أمر ضروري لفهم أنفسنا وإدراك ذواتنا، ولكن الأشكال هنا؛ خطابنا هذا إذا قرىء، من سيقرأه؟ هل يقرأه المقتنع أم غيره؟ وكيف الوصول إلى هذا الأخير؟ وافتراضاً أننا وصلنا إليه، فإذا تعنّت وبقي مصرا على مواقفه، فما هو العمل في هذه الحالة؟ ثم أن التعنت هذا، ما هي خلفياته الحقيقية؟ ألا يكون سببه الرئيسي الحفاظ على مصالح خاصة، والاحتفاظ بالسلطة والهيمنة على تسيير دواليب الإدارة الجزائرية حسبما تقتضيه مصلحة المتعنتين هؤلاء؟

وقد تبلورت مظاهر التعنت هذه، وتمخضت عنها نتائج وخيمة قد تضرب الوحدة الوطنية في الصميم عاجلا أم آجلا ان لم ننتبه إليها في وقتها ونتصدى لها جميعا كرجل واحد، قولا وعملا.

وما يتوجب على كل وطني غيور على وطنه في الوقت الحالي، هو الرفض القاطع وعدم الاستجابة للكيفية المائعة التي تطرح بها بعض القضايا التي تتعلق بالشخصية الجزائرية، كالهوية الوطنية مثلا التي هي في نظرنا أمر مفروغ منه، ومثله

قضية التعريب، والدين، وهي قضايا، قانونا وشرعا، لا يمكن لأي كان أن يطرحها إلا في إطار مواثيق الجمهورية الجزائرية، علما أن هذه المواثيق تعبر في حد ذاتها على إرادة الشعب الجزائري، وكيانه وصيرورته، فليس بالإمكان أن تبت فيها جماعة من الجماعات أو جهة من الجهات بل الشعب الجزائري كاملا دون نقصان.

والحق أن الشعب الجزائري قد عبّر عن إرادته هذه خلال الفترة الاستعمارية، أكثر من مرة متمسكا بشخصيته العربية الإسلامية، وما يثبت ذلك بدون جدال تأسيسه لمؤسسات روحية وثقافية تستجيب لإشباع رغباته والتعبير عن هويته وكيانه.

خلال فترة الصحوة الثقافية التي عرفتها الجزائر في الثلاثينات الفارطة حسب وثائق إدارة الاحتلال الفرنسي نفسها، أحصينا في باتنة ومناطقها، أي ولاية الأوراس حاليا ما يزيد عن أربعة وثلاثين (34) ناديا وجمعية دينية وثقافية صرحت بنشاطها لإدارة الإحتلال فيما بين سنتي 1934 ـ 1937، احتضنت منها جبال الأوراس تسعة (9) نوادي ثقافية وأربع جمعيات تربوية دينية، وفي نفس الفترة التاريخية نجد في القنترة قرية صغيرة توجد في الطريق المؤدي من باتنة إلى بسكرة في الجنوب الغربي من المدينة الأولى ثلاثة نوادي ثقافية، حلّت منها إدارة الاحتلال في سنة 1937، ناديا واحدا، وهو نادي السعادة الذي عوضه نادي الشبات الذي أسس في نفس السنة والشهر الذي حلّ فيه الأول (أنظر الجدول المرفوق لهذه الدراسة).

وبالنظر إلى أن فكرة الإصلاح كان منبعها الشرق الجزائري، ولأن رواد الإصلاح وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس أصلا من شرق أو جنوب الجزائر، نلاحظ مقارنة بمناطق الوسط والغرب تزايد عدد النوادي الثقافية والجمعيات التهذيبية التربوية بالنسبة للشرق الجزائري، بحيث نجد دوارا مثل دوار لقرن (عين التوتة)، وجمورة، وعين زعطوط، بنفس المنطقة تحتضن نوادي ثقافية حملت مشعل الثقافة العربية الإسلامية وبلغته بكل أمانة لأجيال متتالية.

وفي قلب الأوراس، حسب تعداد إدارة الاحتلال للنوادي الثقافية الجزائرية، نجد قرى صغيرة نائية، آنذاك مثل حدوسة، بوزينة دورا شير، تاغوست، تفلفل، منعة، غسيراه، تحتضن كل منها ناديا ثقافيا.

وقد نشطت هذه النوادي الثقافية قبيل وبعد الحرب الكونية الثانية وأدت

أدوارها الثقافية حسب ظروفها المعنوية والمالية والبشرية، ففي بوزينة، أين كان يقوم الشيخ عمر دردوري وهو عضو ناشط في جمعية العلماء، نشط نادي الإصلاح، نشاطا يكاد يضاهي نشاط نادي الإصلاح لمدينة باتنة، الشيء الذي أقلق إدارة الإحتلال الفرنسي التي سارعت إلى حلّه في سنة 1937، ولكن ذلك لم يمنع الشيخ عمر دردوري في نفس السنة من تأسيس نادي ثقافي آخر، أطلق عليه اسم نادي الإرشاد الذي كان امتدادا من حيث نشاطه ومبادئه لنادي الإصلاح الذي أسس في سنة 1935.

وهكذا نلاحظ انتشار الجمعيات والنوادي الثقافية في الجزائر إبّان الثلاثينات الفارطة من أقصاها إلى أقصاها، عدا مناطق الجنوب التي كانت لها وضعية خاصة، خصّصها بها نظام الاحتلال، بحيث كانت موضوعة تحت رقابة النظام العسكري الفرنسي الذي كان يتحكم فيها بيد من حديد، وقلما يسمح بوجود مؤسسات ثقافية أو سياسية قد يكون نشاطها مناوئا له، لذلك نلاحظ حسب الجدول المرفوق لهذه الدراسة ندرة النوادي والجمعيات الثقافية في هذا الجزء من الوطن، بحيث اقتصر وجودها على ثلاث مدن وهي الأغواط، وغرداية، وبسكرة، وماعدا ذلك خلال الفترة الزمنية لدراستنا، فوثائق الأرشيف الفرنسي لا تشير لأي نادي أو جمعية ثقافية أخرى كانت تنشط في الجنوب الجزائري.

ومهما يكن، فالعبرة ليست بالكم، إنما بالكيف، بحيث كان نادي الشباب لمدينة بسكرة حاملا لمشعل الثقافة العربية الإسلامية، وبذلك كان محطة تستوقف عندها كل أبناء الجنوب في ذهابهم أو إيابهم نحو مناطق الشمال الجزائري.

أما عن وسط الجزائر، فقد استطعنا حسب وثائق الأرشيف إحصاء قرابة ثلاثة عشرة ناديا ثقافيا، أهمها نادي الترقي ونادي الإصلاح بالجزائر العاصمة، ونادي السلام بتيزي وزو ونادي السعادة بدلّس، والنهضة والتقدم بالبليدة، ونادي التقدم ببوفاريك، وغيرها (أنظر الجدول المرفوق لهذه الدراسة).

وإذا كان نادي الترقي في وسط العاصمة حاملا لمشعل الثقافة العربية الإسلامية ولواء الإصلاح ومركزا سياسيا هاما ولدت فيه وترعرعت بعض الشعارات والأفكار الوطنية المخلصة. ففي شرق العاصمة كان نادي الإصلاح يكمل نشاط الأول ويعمل معه بتنسيق تام في أكثر من مجال.

أما في غرب الوطن، فقد تميزت تلمسان باعتبارها مركزا ثقافيا قديما باحتضان أكبر عدد من النوادي الثقافية بحيث تمكننا من إحصاء أربعة نوادي ثقافية وجمعية للتربية والتهذيب التي كانت تنشط خلال الثلاثينات الفارطة بنفس المدينة المذكورة سابقا.

وقد احتضنت مدن الغرب الجزائري: ندرومة، ووهران ومعسكر، ومستغانم، وبني صاف، نوادي ثقافية محلّية تميّزت بجمعها للنشاطات الثقافية، والسياسية معا، بل كان البعض منها مقرا دائما لنشاط حزب الشعب الجزائري، وذلك مثل نادي الرجاء بتلمسان، ونادي الاتحاد الأدبي الإسلامي بمستغانم.

ومقارنة بشرق الوطن فإن النوادي الثقافية في غربه، من حيث تعدادها قليلة جدا، يكاد يقتصر وجودها على أهم المدن المعروفة خلال الثلاثينات الفارطة، وبذلك ارتبط تواجدها وعدمه بأهمية المنطقة ديمغرافيا واقتصاديا واجتماعيا، وثقافيا، خلافاً مثلاً: لمنطقة الأوراس في الشرق الجزائري التي يفوق عدد نواديها بكثير عدد الجهة الغربية للوطن (أنظر الجدول المرفوق لهذه الدراسة).

وعموما، فخلال الثلاثينات وبعدها، انتشرت النوادي الثقافية العربية الإسلامية في كامل أرجاء الوطن، بعضها أدى أكثر مما عليه، ولكن البعض الآخر اكتفى حسب ظروفه بأداء ما عليه فقط، أو دون ذلك بقليل، والسؤال الكبير هنا هو: ماهو مدى انعكاس تأثير هذه النوادي الثقافية على الساحتين: السياسية والفكرية في الجزائر ماضيا وحاضراً؟

أما عن المجال الأول فلقد مثلت بدون شك النوادي الثقافية ملجأً للشبيبة الجزائرية وجدت فيه ضالتها لإشباع رغباتها ثقافيا وروحياً. في وقت كاد الاستعمار الفرنسي أن يقضي فيه على كل مظاهر الحياة في الجزائر، بما في ذلك المظهرين الثقافي والروحي، بحيث لم يسمح إلا بانتشار لغته وثقافته وذلك على حسب اللغة الوطنية والثقافية الجزائرية وذلك شيء ثابت لا يمكن تغييره بأي حال من الأحوال. أما الذي يمكننا النظر فيه ومعالجته بالنظر للمعطيات التاريخية هو الحاضر والمستقبل، في ضوء ما سبقت الإشارة إليه يتضح جليا أن النوادي الثقافية التي وجدت في الجزائر والتي كانت تنشط خلال الفترة المدروسة كان لها تأثير كبير على أكثر من مجال، من ذلك المجال التعليمي، والروحي، والسياسي، ولم يقتصر تأثيرها على الجزائريين

المتعلمين باللغة العربية، بل مس كذلك بعض الفئات الأخرى التي تعلمت بغير اللغة العربية، بحيث تم صهرها في بوتقة الثقافية العربية الإسلامية نهائيا، فتحوّلت هذه الفئات وغيّرت موقفها السابق الذي كان امامو قفّا غير مبال، أو غير مقتنع إلى مواقف محسوسة ثابتة لم تتغير حتى شهر أوت 1960، وهو تاريخ انعقاد مؤتمر الطلبة الجزائريين في تونس. وقد مثل هذا الاتحاد على وجه الخصوص جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، فعلى الرغم من أن تعليمهم كان فرنسيا محضا، فتفكيرهم كان عربيا إسلاما خالصاً، لا غبار عليه. وقد رأى هؤلاء مع التنظيمات السياسية الواعية وغيرها من التنظيمات الأخرى غير السياسية؛ إن وحدة الجزائر تكمن في وحدة لغتها وحضاراتها العريقة، وأنه لا مجال لتحقيق أدنى شيء سياسيا إلا بتكاثف الجهود ووحدة التصور لمصير البلاد. واليوم ونحن على هذه الحال، ففي ماذا تفكر «تنظيماتنا السياسية»؟ وما هي أولوياتها؟ وما هو دورها الحقيقي؟ أهو دور موحد؟ أم مفرق للأمة؟ ولماذا؟ بل أصلا هل لها دور؟ أسئلة لا يسمح لنا المجال هنا للإجابة عنها، ونترك ذلك إلى مناسبة قريبة إنشاء الله.

ملحق الدراسة *

النوادي الثقافية الجزائرية وأهم الجمعيات التي كانت تنشط في الوسط الجزائري قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
الجزائر ومناطقها			
1.1 الجزائر العاصمة			من أهم النوادي المعروفة في الجزائر، اتخذته جمعية العلماء، التي تأسست فيه، مقرا لنشاطها.
نادي الترقي	1927	الجزائر	
نادي الاصلاح	دسمبر 1934	الجزائر	كان مقره في شارع ادمون روسطان بلكور، حاضر فيه العقبي، وهلل بتأسيسه الشاعر محمد العيد.
2.1 دلس			
نادي السعادة	1933	دلس	أسسه حمزة بوكوشة، نادي ثقافي اصلاحي.
3.1 تيزي وزو			
نادي السلام	1933	تيزي وزو	حاضر فيه ابن باديس سنة 1934 والعقبي سنة 1937 . نادي ثقافي اسلامي اصلاحي.
4.1 بوسعادة			
نادي الاخاء	1935	بوسعادة	نادي ثقافي اصلاحي.
5.1 المدية			
نادي المولودية	1932	المدية	حلته الادارة الاستعمارية سنة 1934 .
نادي الشبيبة الاسلامية	1934	المدية	حل محل النادي السابق.

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
6.1 البليدة			اصلاحي، ثم فلت من أيدي الاصلاحيين ليسيطر عليه الشيوعيون المنتخبون.
نادي النهضة	1932	البليدة	
نادي التقدم	1935	البليدة	نادي ثقافي اصلاحي، جاء تعويضا للسابق الذكر.
ج. الشبيبة الاسلامية البليدة	1937	البليدة	جمعية ثقافية من مهامها المحافظة على التربية الاسلامية للشبيبة الجزائرية.
7.1 بوفاريك			
نادي بوفاريك	1933	بوفاريك	نادي ثقافي اصلاحي
8.1 مليانة			
نادي الاتحاد	1936	مليانة	نادي ثقافي اصلاحي
9.1 الشلف			
نادي الاصلاح	1935	الشلف	نادي ثقافي اصلاحي.
10.1 شرشال			
نادي الاخوة	1936	شرشال	نادي ثقافي اصلاحي
11.1 تنس			
نادي السلامة	1936	تنس	مقر اجتماعات شعبة جمعية العلماء والكشافة.

ملحق الدراسة *

النوادي الثقافية الجزائرية وأهم الجمعيات التي كانت تنشط في الشرق الجزائري قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
1.1 باتنة			
ناديالاصلاح	1933	باتنة	حاضر فيه الشيخ ابن باديس نفسه عدة مرات.
الجمعية الاسلامية	1937	باتنة	اصلا جمعية للتربية والتعليم، مقرها في المسجد الجامع.
2.1 بسكرة			
جمعية اعانة الفقراء	1936	بسكرة	كان يسيرها كل من الدكتور سعدان والشيخ محمد خير الدين.
نادي الشباب	1936	بسكرة	مقر اجتماعات "ف.م.ج.م." و"ج.ت.ت."
فرع الكشافة الجزائرية	1936	بسكرة	كان يشرف عليه العلماء وسعدان معا.
فرع الشبيبة الاسلامية	1937	بسكرة	تشرف عليه شعبة العلماء المسلمين الجزائريين.
الجمعية الاسلامية	1934	بسكرة	هي اصلا جمعية للتربية والتعليم.
بجاية ومناطقها :			
1.2 قرقور			
نادي الشباب	1937	قنزات	مواليا لحزب الشعب الجزائري علنا.

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
2.2 جيجل			
جمعية العلماء	1933	جيجل	بعض اعضائها مشتركون في "ف.م.ج.م"
الشبيبة الرياضية الجيجلية	1936	جيجل	متعاطفة مع جمعية العلماء سرا وعلانية.
جمعية المسلمين	1936	جيجل	
3.2 بجاية			
جمعية الاصلاح	1930	بجاية	متعاطفة مع "ف.م.ج.م".
جمعية الاصلاح	1937	بجاية	جمعية انشأها تلاميذ المدارس العربية.
الشباب الفني			جمعية موسيقية متعاطفة مع العلماء علنا.
	1937	بجاية	جمعية للتربية والتهذيب
4.2 سيدي عيش			
جمعية الاتحاد	1937	فناي	(اهتم النادي كذلك بالتعليم، له مدرسة عربية).
واديدة بني ورغليس	1937	بنواو رغليس	
5.2 سكيكدة			
نادي الامل	1936	سكيكدة	اهتم النادي كذلك بالتعليم، له مدرسة عربية
قسنطينة ومناطقها			
1.3 تبسة			
الاوتار الجزائرية	1937	تبسة	جمعية موسيقية متعاطفة مع العلماء علنا.
نادي الشبان المسلمين	1930	تبسة	اشرف عليه الشيخ العربي التبسي.

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
2.3 أم البواقي			
نادي التهذيب	1937	أم البواقي	محل اجتماعات وتنسيق شعبة العلماء
3.3 وادي ازناتي			
نادي الثقافة الاسلامية	1936	و. ازناتي	
4.3 ميلية			
ج قدماء تلاميذ المدارس الأهلية	1937	ميلية	متعاطفة سرا وعلانية مع جمعية العلماء
5.3 عين مليلة			
الجمعية الاسلامية	1937	عين مليلة	نشاطها ديني اصلاحي
الجمعية الاسلامية	1934	عين مليلة	تهتم بالتربية والتعليم اساسا.
نادي الاخوة	1933	عين مليلة	
6.3 قسنطينة			
فرع كشافة الرجاء	1936	قسنطينة	علاقة وطيدة مع العلماء
الشباب الفني	1937	قسنطينة	جمعية موسيقية متعاطفة مع العلماء
نادي صالح باي		قسنطينة	
7.3 ميلة			
النادي الاسلامي	1935	ميلة	اشرف عليه وسيرة الشيخ مبارك الميلي
يحيى الشباب	1931	ميلة	
الجمعية الاسلامية	1936	ميلة	تهتم بالتربية والتعليم اساسا.
8.3 وادي سقين			
الجمعية الدينية	1936	و.سقين	
ڤالمة ومناطقها			
1.4 سوق اهراس		سوق	
نادي الشباب الاسلامي	1934	اهراس	

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
2.4 ڤالمة			
جمعية العندليب	1931	ڤالمة	جمعية موسيقية متعاطفة مع العلماء
نادي الترقي	1936	ڤالمة	يخصص دروسا بالعربية للمنخرطين فيه وغيرهم.
نادي الشبيبة الاسلامية	1936	ڤالمة	
سطيف ومناطقها			
1.5 سطيف			
نادي الارشاد	1935	سطيف	يرأسه فرحات عباس دروس وعظ وارشاد كل مساء.
2.5 العلمة			
نادي الثقافة الاسلامية	1932	العلمة	
3.5 العروسية			
نادي الاتحاد	1936	العروسية	توجد به مكتبة على جانب كبير من الاهمية.
4.5 عين عبيسة			
نادي الاصلاح	1937	ع. عبيسة	
5.5 برج بو عريريج		برج	
جمعية الاصلاح	1932	بوعريريج	
عنابة ومناطقها			
جمعية مزهر البوني	1931	عنابة	ج ثقافية اهتمت أيضا بالتعليم والتربية.
الجمعية الاسلامية "الاعتدال"	1935	عنابة	جمعية ذو ميول سياسية تلتقي مع "ف.م.ج.م."

ملحق الدراسة *

النوادي الثقافية الجزائرية وأهم الجمعيات التي كانت تنشط في الغرب الجزائري قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
1.1 تلمسان			
نادي الشبيبة الاسلامية		تلمسان	أقدم نادي في تلمسان لا نعرف تاريخ تأسيسه.
نادي السعادة		تلمسان	منذ استقراره في تلمسان، كان الابراهيمي من أهم منشطية.
نادي الرجاء		تلمسان	ذو ميول وطنية (ح.ش.ج) واضحة، حديث العهد.
نادي "ش.م.س.ج"		تلمسان	حديث العهد ذو ميول إصلاحية سلفية.
الجمعية الاسلامية	1937	تلمسان	"ج.ت.ت." كان يرأسها السيد طالب عبد السلام.
2.1 بلعباس	1934	بلعباس	لا نعرف بالضبط اسم هذا النادي. ولكن نعرف أن الابراهيمي هو الذي دشنه سنة 1934 .
نادي			
3.1 ندرومة		ندرومة	ثقافي، اصلاحي، أسس بعد الفترة التي ندرسها، أي حوالي 1950، كان يشرف عليه محمد بن رحال.
نادي "ثقافي"			

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
الجمعية الاسلامية		ندرومة	"ج.ت.ت." حديثة العهد.
4.1 وهران			
نادي الفلاح	1938	وهران	مقر اجتماعات الاصلاحيين والوطنيين على السواء
5.1 معسكر			
نادي الشبيبة الاسلامية	قبل 1930	معسكر	عندما حل الشيخ زموشي محمد السعيد بمعسكر اتخذ النادي كمقر لنشاطه الاصلاحي.
6.1 مستغانم			
الاتحاد الادبي الاسلامي	1926	مستغانم	نادي ثقافي، ثم اصلاحي، ثم جمع بين الثقافة والاصلاح والسياسة تحت تأثير "ح.ش.ج".
7.1 بني صاف			
نادي التحدي	1937	بني صاف	نفس الميول للنادي السابق الذكر.

ملحق الدراسة *

النوادي الثقافية الجزائرية وأهم الجمعيات التي كانت تنشط في الجنوب الجزائري قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

اسم النادي أو الجمعية	تاريخ التأسيس	المقر	ملاحظات
1.1 الاغواط			
نادي الادب	1937	الاغواط	أول رئيس له هم الشيخ الحاج عيسى بويكر.
2.1 غرداية			
نادي الاصلاح		غرداية	كان يشرف عليه الشيخ بويكر صالح بلقاسم
جمعية الاصلاح		غرداية	تابعة لنادي الاصلاح.
3.1 القرارة			
ناديالحياة	1935	لقرارة	مؤسسة هو الشيخ بيوض.
جمعية الحياة	1935	لقرارة	تابعة لنادي الحياة.
4.1 بسكرة			كانت تابعة اداريا الى باتنة، انظر الفصل الخاص بمناطق باتنة.

* أرشيف ما وراء البحار آكس لابروفانس : 9 / هـ / 48 .

محطة في مسار الحركة الوطنية التونسية

(1914 ـ 1920)

د. شاوش حباسي

تمهيد :

تجسد نشاط الحركة الوطنية في الفترة الممتدة بين 1881 و 1912 في مظاهر بارزة كانت الترجمان العملي والعلني للوطنية في تونس.

فأولى هذه المظاهر البارزة تلك المقاومة الشعبية المسلحة ضد الدخيل الأجنبي، ثم اعقبتها سنة 1885 حركة الشيخ محمد السنوسي الاحتجاجية إلى ظهور جماعة الحاضرة المصلحين سنة 1888 وجماعة جريدة الزهرة الساخطين على تعديات وتجاوزات الحماية سنة 1890.

أما في الاثني عشرة سنة الأولى من القرن العشرين فقد تمكن الوطنيون بزعامة علي باش حمبه والبشير صفر من تنظيم صفوفهم في إطار ما دعي إصطلاحا «حزب تونس الفتاة»، والذي خرج إلى النور سنة 1907 ملتفا حول جريدة «صوت التونسي»، وهذه الجماعة بالخصوص كانت من وراء حدثين بارزين من جرّاء الوعي القومي الواسع الذي ثبّته في الأوساط التونسية، واللّذين تمثّلا في التظاهر الشعبي مرّتين كانت المظاهرة الأولى ضد محاولة إدارة الحماية المس بمقبرة الزلاج العريقة بضواحي تونس العاصمة سنة 1911، وأما الثانية فكانت أعقاب حادثة الترام في السنة الموالية والتي قامت بعد مقتل طفل تونسي من قبل سائق إيطالي.

هذا علاوة على الخدمات الجليلة بخلفية وطنية التي قدمتها كل من الخلدونية التي تأسّست سنة 1896 ونادي قدماء الصادقية الذي قام على سوقه سنة 1905،

وكذا جرائد هامة مثل: «المستقبل التونسي» و«حبيب الأمة» و«سبيل الرشاد» وكلها من إصدار تلامذة الشيخ الزيتوني المكّي بن عزوز وأبرزهم عبد العزيز الثعالبي الذي أدار العنوان الأخير.

وما من حركة من هذه الحركات أو المؤسسات أو الجرائد إلا وتعرّض لجم غضب المستعمر «الحامي» بما يتلاءم في منطق هذا الأخير وطبيعة الحركة من وسائل: فالمقاومة الشعبية المسلحة التي قامت في الشمال (قبائل خمير وسكان الجبال عموما) وفي الجنوب (صفاقس وقابس) وبالساحل والوسط (قبائل جلاص والهمامة وسكان قرى الساحل) قد سقطت جميعها وأخمدت بحكم تفوق المستعمر عدداً وعُدّة، ولم يصمد آخر قلاعها بالقيروان بعد شهر أكتوبر 1881 [1]، غير أنّها تركت في نفوس التونسيين «ميراثا نفسيا» أليما أذكى ضغائن الحقد ضد الدخيل الأجنبي وأضحى هذا الميراث النفسي رصيدا قابلاً للاستعمال متى سمحت الظروف وهيّئت الأسباب.

أما حركة الشيخ محمد السنوسي التي اعتبرها بحق إبنه زين العابدين أوّل محاولة لتعديل حكومة الاحتلال اعتماداً على الشعب [2] فقد قمعت بمكر لئيم، إذ لانت الإدارة الفرنسية «في أول الأمر، واستجابت حتى أمّنت الأفكار، وانحلّت العصب، ثمّ كرّت على رؤوس الحركة تنكّل بهم وترهقهم على تفرّق شيعهم وتخاذل أنصارهم (...) فآلت الحركة إلى الاخفاق في جوهرها وإن نجحت في ظاهرها» [3].

ولعلّ الظاهر الذي نجحت فيه هذه الحركة والذي يقصده كاتب السطور السابقة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور هو كسرها لجدار الصمت ورفعها لهيبة سلطة الحماية على النفوس والتحدي لها جهارا بعد تراكم ظلمها ومسّها بتطبيق الشريعة الإسلامية في دفن الأموات وامتداد يدها إلى الأوقاف وتوسّع تمثيلها الإداري على حساب التونسيين واستيلائها على المقدرات الاقتصادية المحلية وإحكام قبضة الجالية الأوربية على ناصية المجتمع التونسي بعد أربع سنوات من تنصيب نفسها بالقوة على الايالة التونسية.

واختارت سلطة الحماية بعد ذلك أسلوبين لمواجهة المصلحين المتأنيين المتلفين حول جريدة «الحاضرة» وجماعة الساخطين وهم جماعة «الزهرة». فأما عن أسلوبها في مواجهة الفريق الأول فقد تمثل في الإشراف والتوجيه ما أمكن خصوصا وأن مسيّري هذه الجماعة ومحرّري مقالات «الحاضرة» كانوا جميعا من موظّفي الدولة.

وأما بخصوص الفريق الثاني فقد اختار المحتل لمواجهة أسلوب التضييق والمتابعة وفي حالة صمود أصحاب الجريدة كانوا يُمنعون من إصدارها، وهذا ما حدث فعلا للزهرة إذ أُوقفت سنة 1896.

ثم إن المشادات الكلامية التي كانت قائمة بين المصلحين المتأنّيين وجماعة الزهرة الساخطين وإن كان ظاهرها إختلاف المناهج في التعامل مع المحتل، فقد تكاملا في الواقع. فقد أعانت جريدة الزهرة جريدة الحاضرة «إعانة قوية على تهيئة الفكر العام لتلقي برنامجها الإصلاحي، إذ كانت الزهرة فاضحة للمقاصد الإستعمارية التي لم تستطع الحاضرة أن تفضحها، مع أن إطلاع مسيّريها (أي مسيّري الحاضرة) على تلك المقاصد هو الذي دفع إلى تكوين جريدتهم وتخطيط الطريق الذي قرّروا انتهاجها لنهضتهم» [4]

وهذه الحركة الإصلاحية الدائبة المتواصلة باختلاف مناهجها ووسائلها أفرزت معارضة قويّة للمستعمر كان رجالها من القدماء المتمرّسين والشباب المثقف فتصدرت الواجهة منذ 1907. فظل المحتل يرصد حركاتها ويتربّص بها الدوائر حتى تمكن من نفي زعيميها علي باش حمبه وعبد العزيز الثعالبي بعد أن أحس أنه كان لهما يداً في حادثتي مقبرة الزلاج والترام، ففصل المستعمر بهذه الطريقة بين القاطرة والقطار واقيا لكيانه من خطر مرتقب خصوصا وأن بوادر تأزم علاقات الدول الأوربية كانت قد لاحت في الأفق منذ أزمة أغادير (1911).

1 ـ نشاط الوطنيين داخل تونس أثناء الحرب العالمية الأولى:

ا ـ النشاط السياسي:

بحل سلطات الحماية لحزب تونس الفتاة سنة 1912 ونفي أبرز زعمائه إلى خارج حدود تونس. اقتصر الوطنيون الذين إلتفوا حول الثعالبي بعد عودته من منفاه سنة 1914 على العمل السري إتقاء بطش الإقامة العامة بهم من جديد في وضع حالة الحصار بسبب الحرب الكبرى.

ويمدنا الزعيم الوطني المغربي علال الفاسي بتفاصيل بارزة عن نشاطهم نثبتها بنصها فيما يلي:

«(...) في داخل القطر التونسي، بالرغم من حل الحكومة لحزب «تونس الفتاة» فقد ظل رجاله الباقون هناك يعملون في الخفاء تحت زعامة الشيخ الثعالبي، وقد رأينا كيف أن قلاتي أحد رفقائه كان على اتصال بأنور باشا والباروني (وكان هذا الأخير واليا آنذاك من قبل العثمانيين على المناطق المحررة من الاستعمار الإيطالي في ليبيا).

وقد كان عملهم ينحصر في توزيع بعض المنشورات والقيام بدعاية عظيمة. وكانت السلطة تتابعهم متابعة فعّالة، فكانوا يجتمعون بمنزل الأمير محمد الحبيب الذي أصبح بايا بعد وفاة محمد الناصر إختفاءً عن الناس، ولما لبيت الأمير من الحصانة ومع ذلك فقد اعتقلت السلطة سنة 1914 جمعاً من أنصارهم من بينهم الأستاذ توفيق المدني الذي اتهم بتعليقه في جدران الجامع الأعظم نشرات تحث الجيش على العصيان(...)» [5]

وهذه الشهادة من علال الفاسي تفنّد ما جاء في تقرير العقيد بارون، حيث أكّد هذا الأخير أن «الحزب التونسي» الذي ألجمته حكومة حازمة (ويقصد سلطة الحماية في تونس) قد استلم إلى السبات طوال الحرب» [6]، وكذا ما ورد في مؤلف شارل أندري جوليان [7] من أنه «لم ينقطع إخلاص الوطنيين التونسيين قط ولم تصدر عنهم أي حركة معادية أثناء الحرب العالمية الأولى».

فالسبات على ما يبدو كان ظاهرياً فقط، فلم ينقطع بناء على الشهادة التي أوردناها، العمل الوطني البتة وإن حُصر في نطاق ضيق وإتصالات سرّية. «والإخلاص» الذي يؤكّد عليه جوليان إنما كان في حقيقة الأمر ترقب لمآل الأوضاع وتُقية من طغيان قابع.

ب ـ النشاط العسكري:

إنحصر هذا النوع من النشاط في الجنوب التونسي حيث قامت ثورة مسلّحة سنة 1915 وامتدت إلى السنة الموالية وكان قائدها خليفة بن عسكر القادم من طرابلس. وبعد إعلانه الحرب على فرنسا، هاجم برجاله في شهر سبتمبر كلاً من مراكز «ذهيبات» و«تطاوين» و«رمطة». ولقد انظم إليه يوم 2 من شهر أكتوبر 1915 الشيخ ابن عبد اللطيف وأخوه الحاج سعيد ابن عبد اللطيف. وشنّ جميعهم

مع ثلاثة آلاف مجاهد هجوماً مركّزاً إستشهد فيه القادة الثلاثة. لكن هلاكهم لم يمنع من تواصل الثورة إلا أن المستعمر تمكّن يوم 28 جوان 1916 من إلحاق ضرر بالغ بالمجاهدين الثائرين في منطقة رمادة مما اضطرهم إلى العودة إلى طرابلس [8].

وهذه الثورة في الجنوب كانت على إتصال بهيئة غزو شمال إفريقيا التي أُسِّست في الاستانة سنة 1916 بالتعاون مع المغاربة المتواجدين في تركيا. وكانت هذه الهيئة قد توصّلت إلى نتائج ملموسة في طرابلس الغرب وبرقة بإيفادها الزعيم الليبي الباروني وفي غوّاصة ألمانية إلى حدود ليبيا، والذي كان من وراء الانتصارات العسكرية في المنطقين السالفتي الذكر ضد الإيطاليين.

كذلك كان لهذه الهيئة يد في الثورة التي قادها التوارق في الجنوب الجزائري [9]، وعلى كل حال فإن ثورتي الجنوب التونسي والجنوب الجزائري لم تقلبا ميزان القوى لصالح القطرين وإن شغلتا وأرهقتا الجيوش الفرنسية بضع سنين، وأكّد من جديد أصحابها عملياً رفضهم للوجود الإستعماري في المغرب العربي.

2 ـ نشاط الوطنيين خارج تونس:

أما الوطنيون التونسيون المنفيون الذين لم يعودوا إلى تونس فقد رحّبوا بفكرة التعاون مع المحور (عثمانيين ـ ألمان ـ نمساويين) ضد الحلفاء وبالأخص ضد فرنسا. وتذكر بعض المصادر[10] أن علي باش حمبة وصالح الشريف قد تلقيا تعهدا أثناء الحرب الكبرى بتكوين دولة إسلامية (جمهورية شمال إفريقيا) تضم كلا من المغرب والجزائر وتونس وليبيا في حالة انتصارهم على الحلفاء.

وقد استغل المنفيون المغاربة عموماً والتونسيون خصوصاً إعانة المحور لاستمالة الرأي العام العالمي إلى قضيتهم المشتركة في المغرب العربي ودعوا صراحة إلى التحرر من الاستعمار الغربي.

وقد ساهم محمد باشن حمبة ـ شقيق علي باش حمبة ـ بقسط وافر في هذا الإتجاه عن طريق مجلته الأسبوعية «المغرب» الصادرة باللغة الفرنسية بجنيف إبتداء من سنة 1916، والتي كانت تحظى بالإعانة المالية من الدولة العثمانية.

وشارك محمد باش حمبة كذلك في شهر جوان من نفس السنة رفقة الوفد المصري في مؤتمر القوميات الثلاث بمدينة لوزان السويسرية، أين عرض مطالب تونس والجزائر

مع التركيز على منحها استقلالها الكامل.
وقد دعّم مطالب محمد باش حمبة في شهر نوفمبر من السنة رفقة الوفد المصري في مؤتمر القوميات الثلاث بمدينة لوزان السويسرية، أين عرض مطالب تونس والجزائر مع التركيز على منحها استقلا
وقد دعّم مطالب محمد باش حمبة في شهر نوفمبر من السنة الموالية وفد تونسي مغربي جزائري ترأسه الشيخ محمد العتّابي وصالح الشريف واسماعيل الصفايحي إلى جانب ممثلي الدول الإسلامية الأخرى بحضورهم في مؤتمر اللجنة الهولندية السكندنافية بستوكهولم، فطالبوا هم بدورهم بالاستقلال الكامل لبلدانهم [11]

3 ـ تغيير طريقة النضال بعد الحرب:

غير أن آمالهم قد تبخرت بانهزام المحور، واضطر من بقي على قيد الحياة منهم (هلك علي باش حمبة سنة 1918 بتركيا) على تغيير طريقة النضال وفق متطلبات المرحلة الجديدة التي أفرزتها الحرب الكبرى. فهكذا شكّل الوطنيون التونسيون والجزائريون في المهجر في أواخر سنة 1918 لجنة سباعية كان من أعضائها الشيخ صالح الشريف ومحمد باش حمبة، والتي اتصلت كتابياً بمؤتمر فرساي طالبة منه منح تونس والجزائر حق تقرير المصير، وكذا بالرئيس الأمريكي ولسن (2 يناير 1919) دعته في الرسالة التي وجهتها إليه إلى الوفاء بوعده بتطبيق مبدأ تقرير الشعوب المستعمرة لمصيرها والذي كان أعلن عنه في شهر يناير 1917. [12]

أما في داخل حدود تونس، فقد شعر الوطنيون الذين ظلّوا يعملون في السر منذ حل حزبهم سنة 1912 بضرورة الإجتماع لإتخاذ موقف موحّد والتحرك على ضوء المستجدات السياسية العربية والدولية.
وقد حدّد تقرير للشرطة الفرنسية تاريخ عقد الإجتماع في نهاية شهر جوان 1919 [13]، بينما يرجعه محمد الصالح لاجرى إستنادا إلى شهادة الشاذلي خير الله الذي كان حاضراً في الاجتماع إلى شهر مارس من نفس السنة [14].
وإذا استندنا إلى شهادة الشاذلي خير الله، فإن إجتماع مارس 1919 كان ممهّداً لاجتماع ثان لم يحضره ممثلو الطائفة اليهودية في تونس وتقرّر على اثره إنشاء «الحزب

التونسي» الملتف حول جريدة «التونسي»، ويكون الإجتماع الثاني الذي أشار إليه تقرير الشرطة السالف الذكر قد عقد لدراسة ترتيبات إرسال الثعالبي إلى فرنسا للإتصال بمؤتمر الصلح وبالبرلمان الفرنسي بعد تعثر مساعي زميله أحمد السقا الذي أُوفد إلى العاصمة الفرنسية لنفس الغرض في بداية شهر أبريل 1919 [15].
هذا وقد تعدّدت اللقاءات العفوية بين الوطنيين في بداية سنة 1919، وكانت بمثابة الإرهاصات الأولى للإجتماعات العامة الهامة، وقد ذكر توفيق المدني في مذكراته لقاءاً من هذه اللقاءات [16].

4 ـ وضع دولي مُحفِّز على التحرك:

وقد زاد من حماسة الوطنيين التونسيين على الصعيد العربي تحرك قطرين محاذيين، وأعني ليبيا ومصر.
أما في ليبيا فقد استغل الوطنيون ضعف إيطاليا من جراء الحرب الكبرى فافتكوا منها ابتداءً في أبريل 1919 الإعتراف بالجمهورية الليبية ثم في جوان من نفس السنة الإعتراف بالإستقلال الداخلي لطرابلس تحت سيادة ملك إيطاليا.
وأما في مصر فقد نادى الوطنيون منذ نوفمبر 1918 إلى ضرورة الإتصال بالعالم الخارجي والمطالبة بالتخلّص من الحماية البريطانية. ولما منعت سلطة الحماية البريطانية في مصر الوفد الذي كان يترأسه سعد زغلول من السفر إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح، قامت ثورة عارمة سنة 1919 أجبرت الحكومة البريطانية على الرضوخ لطلب الوطنيين [17].
وأما على الصعيد الدولي فقد تهيّأت الشعوب المستعمرة للتأكّد عملياً من وعود الرئيس الأمريكي ولسن وتصريحات هيئات رسمية ومنظمات ومسؤولين سياسيين فرنسيين وبريطانيين [18]، خصوصاً وأن التونسيين كانوا قد قدموا 45000 من خيرة أبنائهم بين قتيل وجريح لمساعدة الحافاء[19]. وقد ساهمت كذلك في إنعاش الحماس التونسي موجة الفكر التحرري البلشفي، وكذا إنشاء عصبة الأمم (أبريل 1919) والتي «ألزمت» ـ في نصوص مواثيقها على الأقل ـ الدول الأعضاء بأهداف العصبة ومنها وجوب عمل «الدول المنتدبة على رقي مجتمع الدولة المتخلفة» [20].

وإثباتنا هنا لتأثر الوطنيين التونسيين بالمستجدات السياسية العربية والعالمية لا يعد إطلاقا من ضرب التخمين ولا من باب ربط علاقة بلا سند، وحسبنا أن نشير لتأكيد هذا التأثير أن العريضة التي قدّمها التونسيون إلى مؤتمر الصلح جاء فيها ذكر منح إيطاليا الحكم الذاتي لليبيين [21]. وأظهر توفيق المدني ـ وكان حينذاك عوضاً بارزاً ونشيطا في الحزب التونسي ـ اعجابه واكباره بمبدأ التحرّر في الثورة البلشفية [22]. وقد تذكّر سليمان بن سليمان (من الزعماء البارزين في حزب الدستور الجديد ابتداء من سنة 1938) اهتمامه بأوضاع مصر وقتذاك وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، ناهيك عن من كانوا أكبر منه سنا [23].

5 ـ إكتشاف خُدعـة:

لكن سرعان ما تبين بعد انتهاء الحرب الكبرى أن مبدأ حق تقرير الشعوب المستعمرة لمصيرها الذي نادى به ولسن وحلفاؤه كان في الحقيقة تقريراً لمصير الحلفاء أنفسهم، وكان بمثابة سلاح نفسي استعمله هؤلاء لتحريض الشعوب الخاضعة للأمبراطوريتين العثمانية والنمساوية على الانتفاضة وإحداث جبهات داخلية لهتين الإمبراطوريتين حتى تعوق مجابهتهما للحلفاء بقوة من جهة، ومن جهة أخرى كان رفع شعار مبدأ تقرير المصير وتصريحات الساسة الفرنسيين والإنجليز في إتجاه إحداث تغييرات هامة في مستعمراتهم غرضه عزل الشعوب العربية المستعمرة خاصة عن التأثر بالدعاية الألمانية والعثمانية أثناء الحرب.

ولم يراود الثعالبي أدنى شك في زيف وعود ولسن، خاصة وأن هذا الأخير قد صرّح علناً قبل سفر الثعالبي إلى باريس في جويلية 1919 «بشرعية الحماية البريطانية على مصر» [24]، وأن ميثاق عصبة الأمم قد اعترف ضمنياً بالإبقاء على المستعمرات الغربية في بند ذكرنا محتواه في أعلى هذه الصفحة. فالثعالبي لم يلتحق إذن بباريس طامعاً في العودة إلى تونس بتقرير المصير من مؤتمر الصلح، وإنما حل بالعاصمة الفرنسية كما أوضح ذلك لزميله المحامي حسن قلاتي لينتهز الفرصة على حد تعبيره «لعرض أوضاعنا ومطالبنا على الساسة الفرنسيين» [25].

6 ـ نشاط الثعالبي في باريس:

وخلال إقامته بباريس ألّف الثعالبي كتابه الذي عنونه **تونس الشهيدة**، وهو عنوان معبِّر منذ الوهلة الأولى عن حالة البلاد التونسية. وقد نقل كتاب الثعالبي هذا إلى الفرنسية الدكتور أحمد السقا، وقد قام الثعالبي بِعِبْءِ إيصاله عن طريق البريد لوزراء ونواب وموظفين فرنسيين، كما أوصل نسخاً منه إلى تونس والجزائر [26].

والكتاب في مجمله عرض لأوضاع تونس السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية السّيئة منذ حلول الحماية بها، واعتمد الثعالبي على شهادات وإحصاءات الكتاب الأوربيين والفرنسيين على الخصوص ليجعل الشاهد من أهلها كما يقال، وليكون الكتاب أوقع في التأثير على الرأي العام الفرنسي. وفي ختامه ذكر الثعالبي مطالب التونسيين، وهي موجزة كما يلي:

* منح التونسيين الحريات والنظام الدستوري «القائم على المسؤولية وفصل السلطات الإجتماعية».
* المساواة أمام القانون والاعباء العامة وإلغاء الامتيازات والحصانات الضريبية فكل يدفع دون تمييز بالجنسية حسب طاقته ودخله.
* جعل السلطة التنفيذية وراثية في العائلة المالكة على أن يكون الأمير مسؤولاً عن أعماله أثناء ممارسته وظائفه أمام المجلس الأعلى.
* إنشاء مجلس أعلى يختص بالتشريع يتألف من 60 عضواً من التونسيين، يعين عشرة (10) منهم رئيس الدولة ويُنتخب الخمسون (50) الباقون لمدة أربع سنوات من قبل الشعب.
* استقلال القضاء وإلغاء المحاكم الاستثنائية.
* حرية التعليم
* تحديد وتحرير الأراضي والاعتراف بحق الملكية للقبائل على الأرض التي تقيم عليها [27].

وبكلمة موجزة أراد الثعالبي أن يُعاد للتونسيين حق إدارة بلادهم إدارة فعلية على جميع المستويات مستأنساً في تحقيق ذلك بروح دستور 1861 ومطالبا بعودة العمل به، وهو سر اختيار أعضاء «الحزب التونسي» للتسمية الجديدة لحزبهم الذي

أُعلن عن تأسيسه يوم 3 جوان 1920 وأعني الحزب الحر الدستوري. واعتمد الثعالبي كذلك على إتفاقية الباردو (1881) التي ضمنت وجود الكيان التونسي المستقل عن فرنسا، وقد أقرت هذه الوثيقة الرسمية أن يُسيِّر التونسيون بلدهم بمعونة فرنسا لا بإنفرادها في التسيير وفرض نظام على المملكة لا يخدم إلا مصالحها.

7 ـ للبيان حدود في منطق الفرنسيين:

وبطبيعة الحال لم يحمل الكتاب اسم مؤلفه خشية ملاحقة الحكومة الفرنسية والإقامة العامة في تونس له. ورغم هذا الحذر والحيطة فقد كُشف أمره وقُبض عليه يوم 28 جويلية 1920 بتهمة التآمر على تغيير شكل الحكومة التونسية. ثم أحيل على السجن العسكري في تونس يوم 22 أوت من نفس السنة، وبقي سجيناً به إلى يوم 21 أبريل 1921 [28].

وهكذا تنتهي مساعي الثعالبي ورفاقه في باريس بخيبة أمل الوطنيين التونسيين الذين تأكّدوا من تطابق الرؤى ووحدة مصالح الحكومة الفرنسية والإقامة العامة في تونس خصوصاً في غياب تهديد مباشر للسيادة الفرنسية في المغرب العربي في صورة حركة وطنية قوية منظمة [29].

ولم تجد شيئا إعانة المعارضة اليسارية الفرنسية للثعالبي في تغيير مجريات الأمور. ومهما كانت خلفيات هذه «الإعانة» فقد تعمقت عزلة الثعالبي أكثر بفشل الحزب الإشتراكي في الانتخابات التشريعية التي جرت في شهر أكتوبر 1919. غير أن هذه الاستجابة السلبية والقمعية الفرنسية قد حركت إيجابيا الساحة التونسية لمواصلة العمل لتحقيق مطالب **تونس الشهيدة** ـ كما سنبين لاحقاً ـ وجمعت من جديد الزعامة الوطنية في شخص الثعالبي [30].

8 ـ خلاصة وتقييم:

كان التضيق الشديد الذي فرضه المستعمر على زعماء الوطنية في تونس عاملاً هاماً في تقلص عملهم الظاهري خلال الحرب العالمية الأولى. هذا ثم إن التونسيين

عموما قد أدركوا أن عدوهم في عزقوتة لا تدرك منه المنى إلا بقوة مادية لا تملكها أيديهم، فتفرّغوا إلى اهتماماتهم يرقبون المستقبل.

أما الذين فضّلوا المواجهة المسلحة بما أتيح لهم من أسبابها المادية والمعنوية في الجنوب بالتنسيق مع الليبيين والعثمانيين سنتي 1915 ـ 1916، فلم يخرجوا من دائرة الرمال الآنية ولم يقلبوا ميزان القوة العسكرية لصالحهم.

أما الوطنيون التونسيون الذين وُجدوا في هذه الأثناء خارج حدود تونس وخاصة في أوربا وتركيا، فقد جنَّدوا أقلامهم واستغلّوا معارفهم وعملوا جادين، إما فرادى أو بالإشتراك مع الجزائريين والمغاربة والمشارقة، لكسب الأنصار لقضيتهم، بل «تجرّؤوا» على المطالبة باستقلال بلدانهم مجاراة للوعد الولسوني في مؤتمرات أوربية جهوية.

وبإنهزام دول المحور في الحرب تبخَّر أمل قيام «جمهورية شمال إفريقيا» الموعود بها، فتحمّل الوطنيون داخل تونس وخارجها تلك الصدمة وتأقلموا سريعاً مع الوضع الجديد وانتهجوا سياسة واقعية فرضتها عليهم حدود إمكانياتهم فإتّجه بعضهم صوب مؤتمر الصلح للتأكد عملياً من وعد صاحب المبادئ الأربعة عشر، بينما فضّل الثعالبي ـ ليقين عنده من زيف وعد ولسن ـ اتخاذ ذلك الحدث الدولي الهام فرصة لمخاطبة الشعب الفرنسي ومن يأمل فيه أدنى استجابة من الفرنسيين.

فكان الوطنيون في هذه الأثناء ومن بينهم الثعالبي يتمثلون قول الشيخ الإمام محمد عبده ـ وكانوا جميعاً من المُكبِّرين له والمعجبين به والمنصاعين لاستاذيته ـ : «إن الأهم الكبيرة إذا عراها ضعف، ثم صالت عليها قوة أجنبية أزعجتها ونبهتها بعض التنبيه، فإذا توالت عليها وخزات الحوادث، وأقلقتها آلامها، فزعت إلى استبقاء الموجود ورد المفقود، ولم تجد بُداً من طلب النجاة من أي سبيل»[31]. «أي سبيل» وجده الثعالبي في باريس في الحزب الإشتراكي الفرنسي الذي وعد بمناصرة القضية التونسية. ولكن تراكمت المحن: فالحزب الإشتراكي قزّم دوره على الساحة السياسية الفرنسية، وبالتالي إمكانية «مساعدة» الثعالبي بعد فشله في انتخابات 1919. ثم إن الإقامة العامة في تونس شرعت في ملاحقة الثعالبي في باريس بعد نشره لتونس الشهيدة وبإعانة سلطات الجمهورية في فرنسا، فتمكنت منه وعزلته في السجن قرابة تسعة أشهر.

بيد أن آثار مسعى الثعالبي تعدّت أسوار سجنه، فقد حرّك إقدامه جماعة الدستور الطلقاء داخل وخارج حدود تونس، بل أكثر من ذلك جميعاً تدخل الباي محمد الناصر، رمز السيادة التونسية المفقودة، لينتصر لجوهر مطالب الثعالبي، فأقلق هو بدوره الإقامة العامة ومن وراءها فرنسا، فلم تتخلص من خطره المهدِّد إلا بعد أن فارقته الحياة يوم 10 / 07 / 1922، وقد تكون أيديها قد امتدت إليه لأن هلاكه قد فتح الباب واسعاً لكل الإحتمالات.

ثم إن إعلان جماعة «الحزب التونسي» سنة 1920 عن تأسيس الحزب الحر الدستوري قد أبعد عمل الثعالبي من أن يكون عملاً عارضاً، إذ أحرز هذا الحزب بعد الإعلان عنه على ريادة الحركة الوطنية وحقق قفزة نوعية في مجال التنظيم الحزبي إلى غاية سنة 1933.

هوامش البحث:

(1) عن تفاصيل المقاومة المسلحة أنظر مقال الأستاذ علي المحجوبي في **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 33 ـ 34، جوان 1984، ص.ص. 111 ـ 124.

(2) أورد هذه المعلومة الأستاذ محمد بسيس في مقدمته لمؤلف محمد السنوسي، **النازلة التونسية**، الدار التونسية للنشر، تونس 1976، ص. 17.

(3) محمد الفاضل ابن عاشور، **الحركة الأدبية والفكرية في تونس**، الدار التونسية للنشر، ط 3، تونس 1984، ص. 60.

(4) نفس المرجع ص. 68.

(5) **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، طنجة، بدون تاريخ ص. 48.

(6) تقرير العقيد بارون، ملحق **بتونس الشهيدة** لعبد العزيز الثعالبي، ط.1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1984، ص 331.

(7) **إفريقيا الشمالية تسير**، ترجمة المنجي سليم وآخرون، الدار التونسية للنشر (تونس) والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر) 1976، ص.90.

(8) أحمد خالد، **أضواء من البيئة التونسية على الظاهر الحداد ونضال جيل، ط. 3، تونس** الدار التونسية للنشر، 1985، ص.ص. 43 ـ 44.

(9) علال الفاسي، مرجع سابق، ص. 46.

(10) محمد يوسف نخلة، **تطور الحركة الوطنية في تونس 1881 ـ 1956**، رسالة ماجستير لم تطبع، العراق، جامعة المستنصرية، المعهد العالي للدراسات القومية والإشتراكية، 1985، ص. 85، نقلا عن يوسف مناصرية، **الحزب الحر الدستوري التونسي، (1919 ـ 1934)**، رسالة ماجستير (طبعت)، الجزائر، جامعة الجزائر معهد التاريخ بالخروبة، السنة الجامعية 85 ـ 86، ص. 42).

(11) يوسف مناصرية، مرجع سابق، ص. 43، وعلال الفاسي، مرجع سابق، ص، 48.

(12) محمد الصالح لاجري، **تطور الحركة الوطنية التونسية**، الدار التونسية للنشر، تونس، ج، 1، 1974، ص، 140 (والكتاب باللغة الفرنسية)، ويوسف مناصرية، مرجع سابق، ص. 43. وأنظر نص هذه المذكرة عند كلود كولو وجان روبير هنري، **الحركة الوطنية الجزائرية، نصوص** (بالفرنسية)، ط.2، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1982، ص.ص 25 ـ 29.

(13) ذكره مناصرية، مرجع سابق، ص.49.

(14) محمد الصالح لاجري، مرجع سابق، ص. 168.

(15) اعتمدنا في تحديد سفر أحمد السقا إلى فرنسا على استنتاج الأستاذ مناصرية من كلام للثعالبي أنظر هامش ص. 47.

(16) أنظر **حياة كفاح، مذكرات**، ج 1، ط 2، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1988، ص، 154.

(17) د. زهية قدورة، **تاريخ العرب الحديث**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1975، ص.ص. 373 ـ 374 و 436.

(18) أنظر تصريحاتهم مختصرة عند محمد الصالح لاجري، مرجع سابق، هامش صفحتي 167 ـ 168 ومناصرية، ص. 44.

(19) عبد العزيز الثعالبي تونس الشهيدة ط،1، دار القدس، لبنان، 1975، ص. 208.

(20) د. عبد العزيز سليمان نوار ود. عبد المجيد نعنعي، **التاريخ المعاصر، أوربا منذ الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية**، دار النهضة، القاهرة 1973، ص. 438.

(21) مناصرية، مرجع سابق، ص. 48.

(22) **حياة كفاح، مذكرات**، ص. 144.

(23) **ذكريات سياسية**، (باللغة الفرنسية)، دار سيريس للنشر، تونس، 1989، ص، 25.

(24) تقرير بارون، ص. 333 ومحمد الصالح لاجري، مرجع سابق، هامش ص. 171 وسامي الجندي في مقدمته **لتونس الشهيدة**، مصدر سابق ص. 15.

(25) د. زهية قدورة، مرجع سابق، ص. 374.

(26) تضاربت الآراء في تحديد تاريخ نشر الكتاب: فتقرير بارون (ص. 351) يحدِّده بيوم 29 / 12 / 1919، بينما يذكر محمد الصالح لاجري (مرجع سابق ص. 175) أن ذلك كان في شهر نوفمبر 1919. وخالف كل من مناصرية (مرجع سابق، ص. 117) وعلال الفاسي (مرجع سابق، ص. 49) واعتبرا أن الكتاب قد نشر في سنة 1920، إعتمادا على التاريخ الموجود في النسخة الأصلية للكتاب والتي صدرت باللغة الفرنسية بمطبعة جوف بباريس.

والراجح عندنا أن الكتاب قد طبع قبل سنة 1920 ـ وبالضبط في بداية نوفمبر 1919 ـ ولكن باعداد محدودة قد أرسلت أو وزّعت على شخصيات تونسية داخل تونس أو خارجها للموافقة على محتوى الكتاب قبل إصدار الأعداد الكافية لتحقيق الغرض الدعائي وذلك كان سنة 1920 كما هو مثبت في الكتاب بلغته التي صدر بها. والذي جعلنا نرجح ما ذهبنا إليه إثبات وثيقتين هامتين بأن الكتاب قد وصل إلى قراء تونسيين كان على رأسهم قادة «الحزب التونسي» الذين وجهت إليهم نسخا من الكتاب من قبل الثعالبي وقد أرجعوها إليه بعد قراءتها والموافقة على محتواها يوم 10 نوفمبر 1919 (تقرير بارون، ص. 350).

كذلك فقد ذكرت مراسلة بين المقيم العام في تونس والرئيس الفرنسي ميليران بتاريخ 28 / 07 / 1920 أن محمد باش حمبة قد راسل الثعالبي في أول ديسمبر 1919 يخبره أنه قرأ كتابه وهنّأه ومترجمه إلى اللغة الفرنسية ورغبه في طبعه باللغة العربية (مناصرية مرجع سابق، صص. 116 ـ 117).

(27) تقرير بارون، ص. 351، ومقدمة سامي الجندي **لتونس الشهيدة** صص. 15 ـ 17.

(28) عبد العزيز الثعالبي، مصدر سابق، ص.ص. 207 ـ 211.

(29) طالع تفاصيل هذه القضية في تقرير بارون وعند مناصرية، مرجع سابق، ص. 163 وما بعدها.

(30) كانت السياسة الاستعمارية الفرنسية مغاربية، ومن الثابت أن فرنسا لم تتنازل لتونس والمغرب عن استقلالها المشروط سنة 1956 إلا للتفرّغ الكلي للقضاء على الثورة الجزائرية، وكذلك خشية من نشوب ثورة شاملة موحّدة بين الأقطار الثلاث ضد فرنسا، وهذا ما لا يُخفيه ايدغارفور في مذكراته، ج. 2. مطبعة بلون باريس، 1984، ص. 195.

(31) لم ينقطع سيل الزائرين للثعالبي عند الافراج عنه، أنظر للتفاصيل توفيق المدني، مصدر سابق، ص. 184، ومناصرية، مرجع سابق، ص. 72 وسليمان بن سليمان، مصدر سابق، ص. 24.

(32) مقطع للشيخ الإمام محمد عبده من أول عدد من جريدة **العروة الوثقى** ذكره الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، مرجع سابق، ص. 57.

الجزائر من خلال المنظار الإستعماري

يحياوي مسعودة

لو وضعنا حديثنا هذا في إطار تاريخي بحث فسيتبين بسرعة أن جميع الكتابات الإستعمارية تتم عن جهل تام بالمجتمع الجزائري في بداية الإستعمار.

لقد كانت الجزائر معروفة في مخيلة الفرنسيين من خلال التحقيقات المنجزة حول «الدول البربرية» في القرن السابع عشر كالأب (دان) 1637 مثلاً... وعبر تقارير الدبلوماسيين من سفراء وقناصلة مثل الفارس دارفيو ـ 1665 ـ أما في القرن الثامن عشر فتعددت كتابات الرحالة المستقلين الذين جاؤوا في إطار «بعثات علمية» مثل بيزونيل (1725) والإنجليزي توماس شاو (1732 ـ 1720) والقس (بوفي) 1789..

لقد أدعى كل هؤلاء قدرتهم على تقديم معلومات جغرافية وتاريخية واثنوغرافية مرضية، لكن الذي نستنتجه بعد مطالعتنا لكتاباتهم هذه، أنهم وباستثناء تسجيلهم لجمال المناظر الطبيعية لم يتمكنوا من فهم رجال البلاد وعجزوا عن إقامة علاقات معهم. ثم أن نهمهم وتطلعهم إلى استعمار البلاد جعلهم عاجزين عن تحقيق تفاهم وتقارب حقيقيين، بل أنهم ظلّوا عاجزين عن إخضاع هؤلاء الرجال حتى بالسلاح.

1 ـ كيف كان المجتمع الجزائري من خلال الكتابات الإستعمارية حتى سنة 1900

لو أخذنا بعين الإعتبار أفكار الكاتب الروائي الفرنسي المتحمس للاستعمار لويس برتران مجدد الرواية الإستعمارية في بداية القرن العشرين، لجعلنا نعتقد مثله أن

الحالة النفسية للجزائريين خلال هذه الفترة تمتاز بالامبالاة، بل برفض (فضاعة الكافر). وقد جاء في رواية (الجيريا) التي نشرها سنة 1933 والتي هي في الحقيقة طبعة جديدة عن (حديقة الموت) التي ظهرت سنة 1904 «إنه لمن الجلي أننا بالنسبة إليهم لا نزيد عن كوننا مثل أحجار الطريق» إن لويس برتران هذا من الألزاس واللورين المهزوم منذ أمد غير بعيد يحمل إحساسا قوياً «بالعدو». بل أن هذا الإحساس بالعدو. كما لاحظ هذا الكاتب «عداوة الجزائري ورفضه الخضوع، لقد أحسست منذ وصولي (1891) إنه يمثل عدوا لي لم ينس شيئا ولم يغفر شيئا ولم يستسلم».

لقد تنبأ: «بأنه ينبغي أخذه بعين الإعتبار وعده في الحسبان كما أنه لم ينخدع بمصير العدوان. فكتب يقول في كتابه «طريق الجنوب» 1901 «أن رغبة السكان الوحيدة هي رمينا في البحر. وللتخلص من هذه (الطيرة) أي رميهُ في البحر قرر إبعاد الجزائريين من محيط ملاحظاته فهو لم يهتم في رواياته إلاّ بالعنصر الأوربي الممثل لمستقبل الجزائر اللاتينية».

أما الجزائريون أنفسهم فهم ـ على المستوى التاريخي ـ يقاومون بكل قواهم في ميدانين:

ا ـ ميدان المقاومة المسلّحة منذ العدوان (1830) إلى مقاومات الجنوب الجزائري والأوراس والونشريس سنة 1920.

ونحن نعلم حسب بعض التقارير المدبجة من طرف مفتشين تابعين للبلديات المختلطة مثل أكتاف دبيون ومسيرين ومؤرخين مثل روبر (جوندارم) أنه لم يتمكن أي جندي فرنسي من المغامرة بنفسه في بعض المناطق المسماة «المتوحشة» مثل جزء من الونشريس والأوراس.

«أننا أمام مقاومة وطنية ضارية بحيث أنه لم تتوقف المواجهات الكبرى فالجزائريون لا يرضخون حتى في حال انعدام التكافؤ بين القوتين». ولقد ندد أحد الضباط الفرنسيين، الكونت ديريسون في كتاب له ألّفه سنة 1891 «باصطياد الرجال» : «هل نبدأ بقتل الناس وافقار الباقين ثم نحاول دمجهم في الحضارة»؟ إنها سلوكات مشؤومة، لقد انتهت الحرب الكبرى ولم نعد نصطف وجهاً لوجه بل صرنا نطارد رجلاً فرداً بعشرين اننا نقتل بعضنا البعض قتل المجرمين ولم يكن البرابرة هم

الأقسى دائماً».

وقد أدت هذه الممارسات إلى تناقص بيّن في عدد السكان عند نهاية هذا القرن، وهكذا فخلال سنة 1967 ـ 1968 وحدها سجل مصطفى الأشرف وجيلالي صاري في كتبهما أنه مات أكثر من نصف مليون نسمة بسبب المجازر والأوبئة والمجاعات الكبرى التي صارت متتالية دائماً.

وقد أدّى التعسف والاستيلاء على ممتلكات الجزائريين من طرف السلطات الاستعمارية طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى الافقار الجماعي للشعب الجزائري في بداية القرن العشرين.

ب ـ المقاومة الهادفة إلى حماية الشخصية العربية الإسلامية، وذلك من خلال تجاهل كل جهود الحكومات الاستعمارية. ولقد كان المجتمع الجزائري ضحية سياسة مخططة تهدف إلى تجهيله وإخضاعه. وقد شهد المؤرخ الفرنسي (موريس واهل) على ذلك فكتب يقول: «أما في ميدان التعليم فبدأنا بتحطيم الكتاتيب والزوايا والمدارس وغيرها من المدارس التي كانتا قائمة قبل سنة 1830 تحطيماً شبه كلي. ثم بعد ذلك بدأنا في اجراء تجارب مضطربة لم تعط سوى نتائج هزيلة أحياناً وسلبية أحياناً أخرى.

لقد رفض الجزائريون مدرسة الكوخ الفرنسية كما رفضوا التوجه إلى كل المؤسسات الفرنسية المنشأة (الحالة المدنية ـ المحاكم الفرنسية ـ الطب) كما رفضوا كل القيم الأخلاقية الأوروبية المقدمة إليهم في شكل الهدية الأخيرة مقابل التنازل عن وطنهم وعن سيادتهم».

وفعلاً فالأوروبيون لم يتوجهوا إلى اكتشاف الجزائري إلا بعد أن جوبهوا باصراره على المقاومة رغم العديد من الاجراءات الاستثنائية الرامية إلى تطويعه وهكذا ظهرت المؤلفات الاستعمارية.

جـ ـ الجزائري موضوع تحقيق:

والغرض من ذلك اكتشاف عوامل قوته وكذلك ما يمكن أن يكون من العوامل المساعدة على اختراعه. وهذا يعني ظهور كتابات متنوعة مدبجة بأقلام ضباط فرنسيين على العموم. وقد اهتمت في الظاهر بالعلوم الطبية وبالتاريخ والجغرافيا، لكن اهتمامها بالدين الإسلامي كان أكبر. لقد عني هؤلاء الضباط بما يسمونه : (التعاليم الدينية الإسلامية) ذلك لأنهم كانوا يردون أسباب مقاومة الجزائري الشرسة

لهم إلى الزوايا التي ظلت نشطة بعد هجرة علمائها نحو المشرق العربي. وكانت هذه الكتابات استراتيجية بالطبع ذلك لأن أصحابها كانوا هم المشرفين على ما يدعى بالاثنوغرافية العسكرية التي حاولت تصنيف هذه الجمعيات الدينية قصد اكتشاف العدو. في حين أن العدو هو كل جزائري كما لاحظ ذلك الكاتب لويس برتران. وكمثال عن هذه الكتابات نذكر ما أصدره النقيب الفرنسي (دونوفو) سنة 1845 بعنوان «الأخوان» جماعات إسلامية ضمن مسلمي الجزائر.

وهكذا لم تتوقف التحريات والأساليب المختلفة لجمع أقصى ما يمكن من معلومات حول هذا المجتمع المعتدي عليه حتى بزوغ فجر الاستقلال الوطني. وكانت الأهداف المتوخاة من طرف هؤلاء المغتصبين كما صرحوا هم أنفسهم بذلك هي جس نبض طلقة المقاومة، ومعرفة مدى تأثير هذه الجماعات الدينية وسط القبائل، واكتشاف عدد أتباعها، ومصادر تمويلها وتتبع تشعباتها، وهي جملة من التساؤلات التي يصعب إيجاد الأجوبة لها خاصة من طرف أجنبي يتعامل مع خصمه كغالب في مواجهة مغلوب.

وقد تطورت هذه المؤلفات الاستعمارية بعد سقوط الامبراطورية الثانية سنة 1870 وهي امبراطورية نابليون الثالث، كما أن اهتمامات هذه الكتابات غيرت بؤرة اهتمامها، فلم يعدهم الاستعماريين تحقيق الفكرة الغالية لدى نابليون الثالث وهي إقامة «مملكة عربية» بل توجهوا نحو استعمار الوطن الجزائري، كيف؟ بتمليكهم أرض الجزائريين. غير أن هذا الهدف يستلزم في البداية اكتشاف الوسيلة الذكية التي تمكنهم من اغتصاب هذه الأراضي وحرمان أصحابها منها. وهكذا حلّ القانونيون محل العسكريين. وكانت مؤلفات هذه الفترة في أغلبها قانونية وتصنف ضمن الوسائل التكتيكية ويعود الفضل إليها في تبرير عمليات الاستيلاء على الأراضي بالقوة لفائدة الأوروبيين من مختلف البلدان المطلة على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، وقد حصل هؤلاء الأوربيون على الجنسية الفرنسية (1863 ـ 1865) وتحولوا بذلك إلى معمرين فرنسيين مما مكّنهم من فرض أنفسهم بعد إنشاء البلديات الجديدة (1870 ـ 1871) بالفعل، فسنة (1870 ـ 1971) شهدت توسع نظام الحالة المدنية بجانب البلديات المختلطة وبذلك ظهرت إلى الوجود بلديات جديدة للمعمرين خاصة وهكذا وقع الجزائري تحت الهيمنة المباشرة لهؤلاء «الجياع» كما وصفتهم الروايات

الاستعمارية بعد ذلك. وبمساعدة القانونيون الاستعماريين تسارعت عملية انتزاع ملكية الأراضي من أيدي الجزائريين بوضع مجموعة من الإجراءات الاستثنائية دعيت (بقانون الأهالي)، وبالقوانين الخاصة (1881 ـ 1883). وقد أكّدت روايات الكاتب الفرنسي فرديناند دوتسان أن الجزائريين رفضوا هذه القوانين واستمروا في التحاكم إلى قوانينهم المستمدة من الشريعة الإسلامية.

منعطف 1880 ـ 1890 وميلاد الأدب المدعو (الأدب الأهلي) بقلم اروبين:

لقد تطوّرت الكتابات أيضا عندما تحرّكت الجحافل الإستعمارية نحو الجنوب الجزائري. إذ كان يمشي وراء المهندسون والجامعيون والأدباء القادمون من فرنسا حسب أهداف كل فئة حدّدت مسبقا. وقد ظهر في هذه الفترة الأدب الذي أطلق عليه إسم (أدب الجنوب) و(أدب المحيط الصحراوي) و(الأدب الغريب) خاصة (اكزوتيك) وذلك لأن تقليعة نهاية القرن التاسع عشر كانت البحث عن الشرق أو رؤيته في كل مكان... بحث من أجل الاستعمار والخروج عن المألوف كما يقولون. فماذا وجدوا فعلاً؟ لنستمع إلى الأخوين (جيروم وجان تارو) في الحفل العربي) «لقد نظمنا أنفسنا طيلة قرن دون أن تدخل الإسلام في الحسبان. ولقد حطمنا الكثير من الأشياء... الأشياء التي لا تعوّض تحطيم مساجد لتحويلها إلى اصطبلات ومدارس وحسب ما يروي الضباط الفرنسيون أنفسهم. وتحطيم مدن جزائرية لتحل محلّها مدن تشبه المدن الأوربية.

وأثار أوجين فروماتين عبر كتبه «صيف في الصحراء 1857» و«سنة في الساحل 1859» كما أشار ألفونس دودي ثارتارين ذي تاراسكو (1891) و(رسائل من مطحنتي) (1913) بنقله شهادات حقيقية عن العدوان الخطير الذي تعرّض له المجتمع الجزائري في مجمله. لقد عبّر كل هؤلاء الكتاب عن تأسفهم لتحطيم الهياكل التقليدية للمجتمع الإسلامي وتعريضها للزوال تدريجيا من طرف الاستعمار. كما وصف هؤلاء الكتاب «شقاء الاهلي» ونددوا بعيوب المعمر: من فسق وخمر وكسل. لكن النظام الاستعماري نفسه لا يدان بل يوجه اللوم دائماً إلى العنصر

الكولونيالي أي المعمر نفسه وينسب إليه وحده ما يحدث من مشاكل تقع على كاهل الجزائريين. إنهم جميعا يدافعون عن المهد الداعي إلى جعل الجزائر جوهرة الإمبراطورية الفرنسية إلى الأبد...

هـ ـ كتابات إيزابيل ابرهاردت واتيان دينه:

إن هذين الكاتبين قد اعتنقا الإسلام وبالتالي يحس أن يوصفا على حدة. وقد اختارت الأولى إسم سي محمود السعدي واختار الثاني اسم نصر الدين عوض اتيان.

أما ترجمة إيزابيل فمضطربة، فما هي مثلا علاقتها بليوتي وجيش الإحتلال؟ كيف كانت حياتها التي تعرض لها كتاب ذلك العهد وصحافيوه بالنقد والتجريح؟ وإذا كان هذا لا يهم فإن المهم أنها كتبت أشياء جيّدة عن الإسلام في كتبها: «في بلد الرومان»، و«في ظل الإسلام الدافىء»، و(حكايات ومناظر)، و«عمال اليومين»، و«صفحات حول الإسلام» وحبها العميق للإسلام لا يحتاج إلى دليل، لكن ليس هذا هو موضوعنا والمهم حسب رأينا هو سؤال الأدب الإستعماري خلال سنوات 1900 ـ 1954.

2 ـ الأدب الإستعماري (1900 ـ 1954) وتمثيل المجتمع الجزائري:

هناك فترتان محددتان في هذا الأدب الإستعماري: فترة ما بين 1900 و1920 وخلالها لم تهتم هذه الكتابات بالفرد الجزائري إلا عندما تسجّل عداؤه وثوراته ضد الاستعمار، إنها مرحلة المباهاة بانتصار الاستعمار الأوربي.

وفترة ما بين 1920 و1954 نلاحظ خلالها تسجيل هذا الأدب الدارس للمجتمع وهو في مجملها عبارة عن شهادات وشرح للإيديولوجية الإستعمارية. إنها فترة الإحتجاجات ضد بعض التجاوزات المرتكبة من طرف المعمرين، والمخاوف على مستقبل ومصير هذه المستعمرة. أما الجزائريون فلا يزالون يعبّرون عن عداوتهم، سواء في الميدان السياسي أو الثقافي أو الإجتماعي ويطالبون باستقلالهم.

أ ـ فترة تجاهل الجزائري (1900 ـ 1920) التي تتزامن مع فترة طغيان الإحساس بانتصار الأوربي، وخلالها ظهرت العديد من الإيديولوجيات الاستعمارية واستولى الأوربيون المعمرون على تاريخ البلاد. وحاولوا فرض شبه احتكار له عن طريق ما

دعي بمدرسة تاريخ الجزائر (العاصمة)، التي حاولت من خلالها اقناعنا بأن ماضي الجزائر ملك شرعي للأوربيين. ولقد كتب في هذا الإتجاه اغاستون بوسييه كتابه: «افريقيا الرومانية» (1895)، وستيفان جيزيل: «الجزائر في القديم» (1903) وغوتييه: «تاريخ شمال إفريقيا»، الذي يدعى أن الشرقيين ذو تاريخ فقير إلى حد مذهل ولا يمكن تركهم أحرارا لمعالجة إثنى عشر قرنا من التاريخ الذي تلا سقوط الإمبراطورية الرومانية. وإن الجزائريين عاجزون عن كتابة تاريخهم نفسه. لكن غوتييه يتنازل فيستثني ابن خلدون الذي يقول عنه بأنه كاتب مبدع ولقد ترك لنا تاريخ البربر. لكنه رغم عبقريته هذه فهو لا يملك عقلا يعمل مثل عقولنا. وقد ترسخت هذه العنصرية وانتشرت بين العديد من المثقفين في بداية القرن العشرين.

أما لويس برتران فينكر بكل بساطة العديد من قرون التاريخ الجزائري ويعني بالطبع الفترة الممثلة لسيادة الثقافة العربية الإسلامية، ويؤكد في كتابه «المدن الذهبية» أنهم (أي الأوربيون المعمرون) يمثلون إفريقيا الأزهى والأقدم، وإن رمز البلاد ليس المسجد بل قوس النصر. وكل الأبحاث والكشوفات الأثرية تؤكد على ماضي إفريقيا الشمالية الروماني وبالتالي اللاتيني. وهكذا يصبح المعمرون باعتبارهم لاتنيين الورثة الشرعيين للجزائر. أما الشعب الجزائري نفسه فلا يزيد عن كونه خومة من البرانيس أو (الأشباح المنقبة)

وعلى المستوى العلمي يقزم الجزائري تقزيما، وهكذا نقرأ في دراسة لعميد كلية الطب بالعاصمة الجزائرية الدكتور لويلان إيلي تحت عنوان: الاثنوغرافية الطبيعية للبرابرة. ويؤدي التحليل إلى انتروبوميترية (Anthropométrie) بسيطة إلى تصنيف حقيقي لمختلف أجناس البربر. فليس هناك حسب هذا الكاتب مفهوم أمة ولا وطن. إنها الفترة التي اختارت فيها الكتب الغربية وروجت فيها فكرة أن الجزائر يسكنها شتات متنافر من القبائل لا يربط بينها أي رابط بل أن الكتاب الاستعماريين ظلوا حتى 1962 يؤكدون مع مؤلف كتاب «مبادىء الإستعمار والقوانين الاستعمارية»، أن الجزائر مسكونة من طرف أهالي مختلفين فيما بينهم ومتباغضين وبالتالي لا توجد عندهم فكرة الوطنية والإخلاص للوطن ككل.

وفي هذا المتاخ الإيديولوجي الذي تبلور فيه مفهوم التخلف والعنصرية ظهرت الرواية الإستعمارية.

وظهر ثلاثة كتاب مداحين للعصر الأو
أوغست روبيني، وروبير راندو (ارنو) ولويـ
الحط من شأن الجزائريين والاشادة بخصال ا
الذين أصبحوا فرنسيين كاملي الحقوق بموجـ
كتابا غير معروف حتى الآن لأنه لم يذكر و
وصف لرحلات عبر بلدان الضفة الشرقية
الأوسط أو تركيا والعراق.. وعنوان هذا الكت
خلاله عن احتقاره وعنصريته إزاء المشرق.
«بعضنا في مواجهة البعض غرباء أو أعداء وه
وكذا وجوهنا كما أن جماجمنا غير المتشابهة التـ
حول أفكار متشابهة. [2] إنها العنصرية الوق
متطرفة، ذلك لأن العديد من الأدباء أمثال
(صحفي) والعديد من السياسيين مثل موريـ
الأجناس الملعونة»، وبالمقابل قدموا نظرية
الغربية يأتي بعد تقبل الجزائريين للمدينة الف
والأفكار. وقد عبر موريس فيوليت عن هذا
الضخر بالأجناس الذي يتمسك به أولئك
بجانب جنس الأسياد لم يعد له مايبرره عندم
بيننا وبينهم اختلاف فيما يتعلق بالتربية والثقا

ب ـ فترة 1920 ـ 1954 التي لم

إنها نظرية الإندماج والفتح المعنوي للـ
أقلية أوربية لا ماضي لها ولا لغة ولا ثقافة
رئيس ديوان حاكم الجزائر ومبتدع الحركة الأ
«عاداتنا تعود إلى برنيطة بيجو» بدون أن

لقد ادعى الأوربيون أنهم ابتدعوا واحـ
عن حوالي مائة كلمة، 37 منها عربية والباقي
بدون ثقافة؟ الجزارة ومدرسة الجزائر: فهل

البربري» وموجها حديثه إلى الجزائريين: «إنكم الظلام ونحن نمثل الفجر» [4] ولهذا فهو يعطي لنفسه ولبعض الكتاب من أمثاله الحق في تعريف فرنسا ببلده الجزائر»، ذلك لأن القراء الفرنسيين حسب نظره لا يعرفون سوى الجانب السطحي والخاطىء الذي قدّمه إليهم الكتاب المولوعون بالجانب الغريب. فهؤلاء الكتاب كما يدعى ضخموا فضائل العرب ولم يروا فيهم سوى الفرسان الرائعين ببرانيسهم فوق صهوات الخيول البيضاء.

إن هذا يعني التنكر للكتابات السابقة عن 1900. وقد أعلن «الجزائريون» عن تشكراتهم لبرتران الذي قدم لهم الخدمة المتمثلة في تخليصهم من الثلاثي المتمثل في «النخلة والمرأة العربية والجمل»، والذي عبّر عن استنكاره بقوله: «ماذا؟ ماهذا الامعان والاصرار على إبراز عيوب الأوربيين المتحضرين انه لشيء شنيع «وقد تجمعوا ابتداء من 1921 لنشر ايديولوجيتهم وأنشأوا هياكل مثل «الجمعية الأدبية للكتاب» 1921. ووضعوا منحا أدبية ممولة من طرف المعمرين والهدف هو المساهمة في نشر معرفة أعمق بالجزائر.

وفي سنة 1924 أصدروا «مجلة إفريقيا» ومؤسسها هو جان بمي، وأعلنت هذه المجلة عن أهدافها وهي:

1 ـ تعريف فرنسا بالمشاكل الجزائرية.

2 ـ الدعوة إلى الإهتمام بتطور البلاد وتكييف مساعيهم حسب وتيرتها، بحيث ينبغي السير أمام هذا التطور لتوجيهه. وهكذا صارت هذه المجلة وسيلة نضال، ووظيفتها التدخل في الحياة السياسية.

ويمكننا التأكيد بقوة أن هذه الكتابات التي ظهرت طيلة ما يزيد عن خمسين سنة كان هدفها التمكين لمقولات كتابها السياسية فهل يمكن إذن تسمية هذه الكتابات روايات؟ إن النسيج الرومانطيقي فيها ضعيف وطبعها في الجملة غير جيد والكتابات بصفة عامة رديئة.

ولقد كتب لويس لوكوك فقال: إن الكتابة في حد ذاتها تعد عملا نضاليا «وفعلا فإن الغرض لم يكن ابتداع عمل أدبي بل النضال السياسي. فهم هؤلاء الكتاب الاستعماريون الأول هو الحصول على تأييد سياسي واسع يمكنهم من عرقلة أي عمل مضاد لطموحاتهم السياسية. فلقد كان الأمر سنة 1919 ـ 1920 يتعلق

بقضية التمثيل البرلماني للجزائريين (أو عدمه) وإمكانية منحهم المواطنة الفرنسية في إطار إحترام معتقداتهم الشخصية وشخصيتهم العربية الإسلامية. وهؤلاء الكتاب الاستعماريون يريدون أن يستشاروا في إطار سياسي وقدموا شكواهم كتابيا إلى الحاكم العام سنة 1927 من أقصائهم عن حضور الإجتماعات السياسية لشمال إفريقيا في حين يمكنهم تقديم مساهمتهم البناء على شكل أفكار وتجارب».. كما عبّروا عن مرارتهم إزاء ما يكنه الجمهور الفرنسي من سوء تقدير لمجهوداتهم ورسالتهم، بل أنهم فكروا سنة 1933 في إقحام (نصوص مختارة) من (الأدب الجزائري) ضمن الكتب المدرسية ذلك لأن أغلب هؤلاء ينتمي إلى أسرة التعليم.

إن هؤلاء الكتاب من النساء والرجال جاؤوا من آفاق مختلفة فلويس برتران أستاذ أدب وهو من الألزاس وعضو في الأكاديمية الفرنسية سنة 1925 أما روبير أرنو فاستعار اسم (روندو) وهو حاكم بلدية مختلطة ثم حاكم المستعمرات. وجان يومي من تولوز واحتل منصب رئيس ديوان بولاية الجزائر وهو أحد مؤسسي (الجزأرة) مع روندو الذي استعمل نفس اللغة التي كانت سائدة في أوساط مصالح المخابرات سنوات 1840 ـ 1850: فهو يقول: يجب معرفة الوضع الإجتماعي للأهالي معرفة عميقة...

معرفة عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم وهكذا نمتلك أفضل القواعد والأسس التي نبني عليها هيمنة رحيمة، وكتب سنة 1906 كتابا بعنوان: تحديد السياسة الإسلامية أين يؤكد بأنه لا يمكن أن تكون كل هيمنة رحيمة لكنها ضرورة اقتصادية»... ثم يقول: إن هذا العمل (أي الإستعمار) الذي تمّ على أيدي الرحالة أولاً، ثمّ على أيدي الجنود، يهم قبل كل شيء الأمة ذلك لأن البيع والشراء في ظروف معيّنة يمثل بالنسبة إليها قضية موت أو حياة (ص.8).

إن هذا التبرير الإقتصادي ليس جديدا من الخطاب السياسي الإستعماري وهو استعادة وتأكيد الخطاب الإستعماري التقليدي وكلمة ستيوارت ميل في كتابه: (مبادىء في الإقتصاد السياسي): «يمكننا التأكيد أن تكوين المستعمرات في أوضاع العالم الحالية يمثل أفضل صفقة لاستثمار رؤوس أموال بلد قديم وحقيقي».

فالإعتداء على شعب واحتلال بلاده حسب مبدأ قانون الأقوى يعد إذن أفضل صفقة في الميدان الإقتصادي؟

لقد بحث هؤلاء الكتاب ووجدوا تبريرات الاستعمار: فحضارة الغرب أسمى من حضارة (الأهالي) وهكذا صار الجزائري سنة 1920 (موضوع وصف حتى أخذ الجزائريون أنفسهم القلم وكتبوا بلغة المستعمر (كيف أنا) كتبوا أدبا وطنيا بأقلام محمد ديب ومعمري مولود، وكاتب ياسين وذلك بعد الحرب العالمية الثانية، مطالبين بهوية لا صلة لها بالهوية الفرنسية.

الهوامش:

(1) برتران في وصفه لبوسعادة في كتابه «إفريقيا» 1933.
(2) السراب السرقي: 1909 صفحة 16.
(3) اليالي الجزائر، 1929.
(4) كسار البربري، صفحة 43.

مذكرة سدني سميث ضد النشاط البحري لدول الغرب

د. علي تابست
معهد الترجمة ـ جامعة الجزائر

هذه مذكرة لسدني سميث (1771 ـ 1845) صاحب قلم ومدفع، يُعد الإبن الثاني لتري كبير، وهو من مواليد وودفورد Woodford في 3 جوان 1771. درس في نيوكوليج، بأكسفور، أنشأ جريدة إيدينبرج ريفيو Edinburgh Review سنة 1802، بالاشتراك مع هنري بروجهام، شارك بقلمه في هذه المجلة مدّة 25 سنة، نشر أول كتاب له سنة 1800، واشتهر اسمه عن طريق المقالات التي كان ينشرها في مجلته.

انتقل إلى لندن سنة 1803، وأصبح محاضرا في الفلسفة بالمعهد الملكي. كان ضمن الجيش البريطاني الذي حارب نابليون في مصر سنة 1798.

قدّم هذه المذكرة إلى مؤتمر فينا في 31 أوت 1814، لدراسة الوسائل والطرق الناجعة للقضاء على قراصنة البلدان البربارية (المغاربية).

كما قدم نصيحة أخرى سنة 1830، لإنزال القوات الفرنسية بمدينة الجزائر، وقد اعتمدت خطته ونصيحته على نتائج الحملات الأوربية، البرية والبحرية منها، ضد الجزائر عبر القرون الثلاثة السابقة.

نشرت هذه الخطة في الجريدة اللندنية، المسمّاة بـ The Globe and Traveller ترجم المقال نحو الفرنسية، وصدر في جريدة Le Constitutionnel، يوم 14 ماي 1830، ومما جاء في هذه المذكرة أن: «احتلال الجزائر يُعَدُّ بداية لعهد جديد للحضارة العالمية، إذا ما عرفنا كيف نستفيد منه...!

وقد ارتأينا ترجمة المذكرة الأولى من الفرنسية لعدم عثورنا على النص الأصلي بالانجليزية، وهي طبعة خاصة، نأمل أننا قد وفقنا في ترجمة هذه المذكرة.

ترجمة المذكرة

لندن 31 أغسطس 1814

في الوقت الذي تناقش فيه الوسائل الكفيلة بالقضاء على النخاسة (تجارة العبيد) في الساحل الغربي لإفريقيا، وفي الوقت الذي تحاول فيه أوروبا المتحضرة تعميم منافع التجارة وأمن الأشخاص والممتلكات داخل هذه القارة الشاسعة التي يقطنها رجال طيبون ومهرة وقادرون على التمتع إلى أقصى درجة بمزايا الحضارة، من الغريب أن لا يسترعي انتباهنا الساحل الشمالي من هذه المنطقة نفسها، هذا الساحل الذي يقطنه قراصنة أتراك لا يكتفون بإضطهاد سكان البلدان المجاورة لهم، بل يختطفونهم ويشترونهم مثلما يشتري العبيد لاستعمالهم في السفف المجهزة للقرصنة، وافتكاك فلاحين نزهاء من أسرهم وسكان سالمين من السواحل الأوروبية. إن هذه اللصوصية المخزية لا تثير الإنسانية فحسب، لكنها تعرقل التجارة وتسيّ لها حيث لا يستطيع اليوم أي بحري الملاحة في المتوسط وحتى في المحيط الأطلسي على متن سفينة تجارية، دون أن يشعر بالخوف من وقوعه رهينة في يدي القراصنة واقتياده عبيداً إلى إفريقيا.

تتكون حكومة الجزائر من ضباط من الجيش الإنكشاري، وهم عساكر ثائرون يزعمون أنهم لا يعترفون ولو ظاهريا، بسلطة الباب العالي التي مع ذلك لا تقر بهذه الاستقلال: والداي هو دوماً أحد ضباط هذه المجموعة الذي تميّز بقساوته. ومن أجل البقاء على العرش أو الديوان فهو يثري نظراته، أي يمكنهم من البطش في إفريقيا والقيام بأعمال القرصنة ضد الأمم الأوروبية الضعيفة أو التي لا يخشى من انتقامها الفوري.

إن الراية العثمانية نفسها لا تكفي لحماية رعاياها الإغريق، واتقائهم شر اعتداءات القراصنة الجزائريين. وفي المدة الأخيرة فإن الداي، إما استسلاماً منه لنزواته الشرسة، وإما انتهاجاً لسياسة وحشية بهدف القضاء على تجارة منافسيه في

تونس وفي طرابلس، عمد إلى شنق طواقم بعض سفن الأرخبيل ومصر، المحملة بالقمح والتي وقعت في قبضته.

وكان رد فعل باشا مصر في غضبه إيقاف جميع الجزائريين الموجودين في إيالاته، مطالباً بدون جدوى، باسترجاع الحمولات التي صادرها داي الجزائر ظلماً. ولاشك أن الباب العثماني ينظر باستنكار بل باستياء إلى أن يجرؤ أحد أتباعه على القيام بأعمال مصينة وبشعة ضد رعاياه المسالمين، وأن يعرقل حركة تجارية هو في أمس الحاجة إليها أكثر من أي وقت مضى لدفع أجور عساكر الباشا المتواجدين على الحدود الشرقية للامبراطورية العثمانية لمحاربة الوهابيين وغيرهم من القبائل العربية التي ما فتئت، تحت نفوذ هؤلاء الطائفيين تقوم بغارات تهدد وجود هذه الحكومة.

ومن جهة ثانية فإن أوروبا تهتم بدعم الحكومة العثمانية من حيث أنها سلطة معترف بها، وحكم باستطاعته احتواء الباشوات والبايات الثائرين، ومنعهم من القيام بأعمال قرصنة في البحار على غرار الجزائر. إن هذا الإهتمام من أوروبا نابع يوجه خاص من حاجة أوروبا في معظم الأحيان إلى استيراد قموح البحر الأسود أو النيل وهي المناطق التي تتوفر فيها هذه المادة بكثرة، حيث أن المواسم الزراعية السيئة التي يشهدها شمال الإقليم العثماني تقابلها دوماً مواسم زراعية جيدة في الجنوب في نفس السنة والعكس بالعكس.

والحال أنه، إذا كان بربري، يدعي أنه أمير مستقل رغم أنه غير معترف به من قبل السلطان العثماني، وليّه الشرعي، إذا كان يستطيع حسب هوايته أن يهدد ويرعب ويشنق الإغريق ورجال البحرية من رعايا الدول الأوروبية الصغيرة التي تمارس وحدها تجارة تعتبرها سفن القوات العظمى غير مربحة بما فيه الكفاية لتحذو حذوها، لأن هذه السفن لا تستطيع أن تمارس الملاحة بهذا الثمن المنخفض. إذن إذا كان هذا الرايس القرصان الجريء يستطيع عندما يخطر له ذلك أن يوقف حمولات القمح الموجهة إلى أوروبا، فإن الشعوب المتحضرة تقع من جراء ذلك تحت إرادة رئيس عصابة لصوص يمكنه دون علم من هذه البلدان أن يزيد من تعاسة هذه الشعوب بل يستطيع تجويعهم في زمن القلة.

ويتوفر البربري أيضاً على وسيلة ناجعة لاختلاس أموال الأمراء المسيحيين، فهو يهددهم (وهذا ما فعل أخيراً مع صقلية) بقتل رعاياهم الذين وقعوا في قبضته.

وما يؤكد تنفيذ وعيده، وحشيته المعروفة التي تصبح وسيلة للحصول على أموال أمير مسيحي لتمويل الحرب التي يشنها على أمير مسيحي آخر.

وبهذه الطريقة يستطيع أن يشرك كل بلدان أوروبا في هذه الحرب وإجبار الأمم الواحدة تلو الأخرى على دفع ضريبة وحشيته بشراء حياة هؤلاء العبيد التعساء والسلم. ولا جدوى من التأكيد بأن هذه الوضعية ليست بشعة، لكنها غير معقولة، ولا تخلو من إساءة للدين والإنسانية والشرف.

إن تقدم النور والحضارة لابد أن يدحر هذا الوحش.

وبديهي أن الوسائل العسكرية التي استخدمها لحد اليوم الأمراء المسيحيون لمواجهة عساكر الدول البربرية لم تكن غير كافية فقط لكنها أفصت في معظم الأحيان إلى زيادة دعم السلطة الخطيرة التي يمتلكها هؤلاء البرابرة، وإن أوروبا قد بقيت لمدة طويلة تعتمد على جهود فرسان القديس يوحنا القدُسي St Jean de Jerusalem ولم تتفطن بما فيه الكفاية إلى أن هذا النظام الفروسي لم يكن له في المدة الأخيرة لا السلطة الكافية وربما أيضا أنه لم يبق له الطاقة الكافية لمواجهة ودفع الاعتداءات المتجددة دائما التي كان يقوم بها العديد من القراصنة.

والواقع أنه بحكم تأسيسه أصلا، فإن نظام مالطة، المجبر على عدم التعامل مع غير المسيحيين، لا يمكنه أن يستفيد من كل الإمكانيات التي توفرها السياسة بإبرام معاهدات تحالف مع الأنظمة التي تقع هي نفسها ضحية لنظام القرصنة أكثر مما تمارسه مثل تونس ومراكش اللذين يحكمها أمراء من مواليد هذين البلدين، واللذين أبديا منذ مدّة حسن استعدادهما، وإمكانهما أن يقيما مع الدول العظمى الأوروبية علاقات تجارية وعلاقات حسن الجوار. وهكذا فإن إحياء هذا النظام بعد الانتحار السياسي الذي طبقه على نفسه، لا يمكن أن يكفي وحده لتحقيق الهدف الذي نصبو إليه. وأن هذا الهدف النبيل يرمي إلى وضع أوروبا نهائيا في مأمن من اعتداءات القراصنة الأفارقة، واستبدال دول قراصنة أساساً منذ بابا عروج، بحكومات مفيدة للتجارة ومنسجمة مع مجمل الأمم المتحضرة.

والآن ما هي الوسائل التي يتعين استخدامها؟

إن الممضي أسفله يريد ان تشاط اقتناعه أوروبا برمتها. وهذا الإقتناع نابع من

ثلاثين سنة من الدراسة والتفحص العميق، ولم ينقطع طوال مدّة وظيفته في البلاط العثماني عن الانعكاف على الموضوع الذي يعالجه اليوم. وقد عكف على هذا الموضوع في المخيمات، وعلى متن أساطيل هذه القوة نفسها، وفي علاقاته المعروفة نسبيا مع أمم إفريقيا وآسيا وقبائلها.

إن هذا الإقتناع الداخلي بامكانه توقيف لصوصية البلدان البربرية بسرعة وليس هناك وسيلة أحسن لاثباتها من عرضه القيام شخصيا بهذه العملية إذا ما وضعت تحت تصرفه الوسائل اللازمة.

وبدافع من ذكريات دروس الوعظ التي كان يلقيها كفارس، ورغبة منه في إثارة الحمية لدى الفرسان المسيحيين الآخرين، يقترح على الأمم الأكثر اهتماماً بنجاح هذه العملية النبيلة أن يتعهدوا بموجب اتفاقية بأن يقدموا فرقاً عسكرية من قواتهم البحرية والبرمائية، التي دون أن تعرقل أية راية ودون أن ترتبط بالحروب أو بالأزمات السياسية للأمم، تتولى بصورة دائمة بحراسة سواحل المتوسط وتعتني بمراقبة وتوقيف وملاحقة جميع القراصنة في البر والبحر. إن هذه السلطة المعترف بها والمحمية من طرف كافة الدول الأوروبية لا تعيد إلى التجارة أمنها فحسب، لكنها ستقضي إلى «تمدين» السواحل الإفريقية، بمنع السكان من مواصلة ممارسة القرصنة على حساب صناعتهم المنتجة وتجارتهم المشروعة.

وستبدأ هذه القوة الحامية والعتيدة بحصار مشدّد على القوات البحرية التابعة للقراصنة البرابرة حيث وجدت وبالتزامن مع ذلك ينبغي على سفراء جميع ملوك ودول المسيحية أن يساندوا بعضهم البعض بتبليغ الباب العالي العثماني بأنه لا يمكنه التملص من مسؤولية الأعمال العدوانية التي يقوم بها رعاياه، إذا تمادى في السماح إلى دولة بتوظيف العساكر في إفريقيا، بدون أية جدوى، بينما يمكن لهذه القوات أن تستخدم ضد أعدائه بدلا من أن تستخدم ضدّ القوات العظمى الأوروبية، أصدقائه والمطالبة من الباب العالي أن يدين رسميا بهذه الاعمال ويمنع منعاً حقيقياً الحروب التي يشنها القادة المتمردين على أوروبا.

ويمكن مثلاً أن نَحُثّ الباب العالي العثماني على ترقية ومجازاة الانكشاريين وربان السفن وغيرهم من رجال البحرية الجزائريين الذين يلبون نداء السلطان، وبهذه الطريقة سيجد الداي نفسه معزولاً وبدون وسائل دفاعية.

ونفس هذا النفوذ يمكن أن يستخدم في تونس، لاسيما وأن هذا البلد في حرب مع الجزائر التي يخشى منها الكثير. ومعلوم أن رئيس الحكومة التونسية يختلف تماماً من حيث المزاج مع داي الجزائر: وهو على أتم الاستعداد للقيام طوعيا بكل ما يمكن أن يساهم في «تدمين» دولته وجلب الإزدهار لمملكته. وينبغي أن يكون السلم بين تونس وساردينيا، التي عانت كثيراً من جراء اختطاف رعاياها، ينبغي أن يكون الحلقة الأولى من السلسلة، وعليه لا ينبغي أن نهمل أي شيئ لإقرار هذا السلم.

أما التفاصيل المتبقية فيمكن أن نتناولها، بعد أن يصادق الملوك على المبدأ، ويمنحوا الثقة والإذن المطلوبين لواضع هذا النص من أجل نجاح هذه العملية.

استلم ودرس وصودق عليه بباريس ـ سبتمبر 1814.
استلم ودرس وصودق عليه بتورينو ـ 4 أكتوبر 1814.
استلم ودرس وصودق عليه بفيينا ـ أثناء المؤتمر.

الإمضاء: سدني سميث

R.F.

Acq. 27,644
BENNEQUIN

N°. IER.

MÉMOIRE

SUR LA NÉCESSITÉ ET LES MOYENS DE FAIRE CESSER LES PIRATERIES DES ÉTATS BARBARESQUES.

Londres, 31 Août 1814.

Pendant que l'on discute les moyens d'opérer l'abolition de la Traite des Nègres sur la côte occidentale de l'Afrique, et que l'Europe civilisée s'efforce d'étendre les bienfaits du commerce, ceux de la sécurité des personnes et des propriétés dans l'intérieur de ce vaste Continent, peuplé d'hommes doux, industrieux et capables de jouir au plus haut degré des avantages de la civilisation, il est étonnant qu'on ne fasse aucune attention à la côte septentrionale de cette même contrée, habitée par des pirates Turcs qui non seulement oppriment les naturels de leur voisinage, mais les enlèvent et les achètent comme les esclaves pour les employer, dans les bâtimens armés en course, à arracher à leurs foyers d'honnêtes cultivateurs, de paisibles habitans des côtes de l'Europe. Ce honteux brigandage ne révolte pas seulement l'humanité, mais il entrave le commerce de la manière la plus nuisible, puisqu'aucun marin ne peut naviguer aujourd'hui dans la Méditerranée, ni même dans l'Atlantique, sur un bâtiment marchand, sans éprouver la crainte d'être enlevé par des pirates, et conduit esclave en Afrique.

Le Gouvernement d'Alger se compose des officiers d'un Orta au régiment de Janissaires, soldatesque révoltée, prétendant ne pas reconnaître, même en apparence, l'autorité de la Porte Ottomane, qui cependant n'avoue pas cette indépendance: le Dey est toujours celui des officiers de l'Orta qui s'est le plus distingué par sa cruauté. Il se maintient à la tête de la régence, ou Divan, en enrichissant ses confrères, c'est-à-dire, en leur permettant toutes sortes de violences en Afrique, et de pirateries par mer contre les nations Européennes faibles, ou dont il n'a pas à redouter la vengeance immédiate.

Le pavillon Ottoman même ne suffit pas pour protéger ses sujets Grecs, et les mettre à l'abri des attentats des corsaires Algériens. Dernièrement le Dey, soit par un caprice de cruauté, soit par une politique barbare dont le but est de détruire le commerce de ses rivaux de Tunis et de Tripoli, fit pendre les équipages de quelques bâtimens de l'Archipel et d'Egypte, chargés de bled, et tombés en son pouvoir.

Le Pacha d'Egypte, dans sa juste colère, a fait arrêter tous les Algériens qui se trouvaient dans ses Etats, et réclame en vain la restitution des cargaisons injustement saisies par le Dey d'Alger.

La Porte Ottomane voit avec indignation, et même avec ombrage, qu'un vassal révolté ose se permettre les actes les plus outrageans, les plus atroces contre ses sujets paisibles; et qu'il entrave un commerce dont elle a plus que jamais besoin pour payer les troupes des Pachas employés sur la frontière orientale de l'Empire Ottoman à combattre les

رابعا:
تقديم الأطروحات

النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني(*)

1771 ـ 1837

فلة القشاعي المولودة موساوي

لقد تعرضت في هذه الرسالة إلى النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني من سنة 1771 إلى غاية 1837، أي منذ تولي صالح باي أمور البايليك إلى غاية سقوط مدينة قسنطينة في قبضة الجيوش الفرنسية.

لماذا تمّ اختيار موضوع النظام الضريبي؟

لعلّ تمسكي وإهتمامي بالتاريخ الإقتصادي والإجتماعي للجزائر العثمانية بصفة عامة، وبايليك قسنطينة بصفة خاصة كان خير حافز على إختيار هذا الموضوع والبحث فيه؛ هذا إلى جانب كون النظام الجبائي المطبق على المجتمعات الريفية لم يحظى إلى حد الآن بالدراسة والعناية اللازمة والبحث الكافي، خاصة إذا علمنا أنّ تاريخ المدن العثمانية نال نوعاً ما حقه من الدراسة والبحث، بينما لم يحظى العالم الريفي بنفس القسط من التعمق والبحث التاريخي، إذ بقيت حياة المجتمعات الريفية مهملة رغم أن سكان الأرياف كانوا قد شكّلوا مفتاح النظام الضريبي ومصدر النظام المالي للبايليك.

(*) تقدمت الطالبة فلة القشاعي المولودة موساوي بهذه الأطروحة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث تحت إشراف الأستاذ د. ناصر الدين سعيدوني. وتكونت لجنة المناقشة من الأساتذة: جمال قنان رئيساً، وعمار هلال وعمر بن خروف عضوان. وتحصلت على درجة مشرف جداً بتاريخ 6-02-1992.

هذا، وكما هو معهود بالنسبة لكل دراسة تاريخية اكاديمية، واجهت مجموعة من العراقيل والصعوبات كانت متصلة بالمادة الأولى الضرورية لإنجاز أيّ بحث علمي جامعي، إلا وهي الأرشيفات والمصادر والمراجع المتعلقة بموضوع هذه الدراسة، والتي صعب تناولها نظرا لعدم توفّرها بالمكتبات ومصالح الأرشيف الجزائرية، حيث يوجد جلها بمركز الأرشيفات بفرنسا، التي اضطررت إلى زيارتها عدّة مرّات قصد جمع المادة الأساسية الضرورية لتحقيق هذه الدراسة، وهذه المراكز هي:

1 ـ أرشيف ما وراء البحار بآكس آن بروفانس. (A.O.M.)
2 ـ أرشيف الغرفة التجارية بمارسيليا. (A.Ch.C.M.)
3 ـ أرشيف وزارة الحربية بفانسان. (A.M.G.)
4 ـ الأرشيف الوطنية بباريس. (A.N.L.)
5 ـ المراجع والمصادر الموجودة بالمكتبة الوطنية بباريس. (B.N.P.)

أما المنهجية المتبعة في هذا البحث فهي تتضمن تصنيف كل الوثائق والأرشيف والمحفوظات المستعملة في هذه الدراسة في قوائم ببليوغرافية، بالإضافة إلى جل المصادر والمراجع التي تمّ الإعتماد عليها، كما وضعت قوائم خاصة بالمصطلحات العربية والفرنسية لتفادي تكرار بعض الكلمات، علاوة على مجموعة من الملاحق والخرائط والفهارس ذات صلة وثيقة بهذه الرسالة.

أما إشكالية هذه الدراسة، فقد تضمنت 5 فصول وخاتمة.

الفصل الأول: يتعرّض للأوضاع العامة للشرق الجزائري أواخر العهد العثماني وتضمّن:

ا ـ لمحة عن المواصفات الجغرافية للشرق الجزائري.

ب ـ نوعية النشاط الإقتصادي بالريف القسنطيني.

فالمواصفات الجغرافية والأوضاع الطبيعية جعلت من بايليك قسنطينة، منطقة تتمتع بموقع استراتيجي وشروط مناخية ملائمة عامة للإستقرار البشري وممارسة نشاط إقتصادي قائما أساسا على الفلاحة والرعي، حيث لعبت الفلاحة دورا هاما في حياة المجتمعات الريفية نظرا لاعتماد غالبية سكان الأرياف عليها، حيث تميّز الطابع العام للإقتصاد الريفي القسنطيني بكونه إقتصادا فلاحيا ـ رعويا، وذلك رغم تذبذب

الإنتاج الفلاحي وهلاك قطعان المواشي أحياناً بسبب الآفات الطبيعية كالجفاف وفترات الفيضانات وهبوب العواصف واجتياح الجراد، بالإضافة إلى المشاكل والصعوبات التي واجهت الفلاح القسنطيني، المتمثلة في الأساليب العتيقة المتبعة في الإنتاج الفلاحي وتقنية الري التقليدية، ممّا حدّ من مردودية الإنتاج وتطوّر مستوى معيشة المجتمعات الريفية.

وكانت الصناعات التقليدية نشاطا إقتصاديا مكملا للفلاحة والرعي تميّزت بها بعض العشائر التي اشتهرت بمهارتها وحنكتها في معالجة المواد الأولية المتوفرة محلياً، وذلك قصد تغطية الحاجات الضرورية من أدوات فلاحية ومنزلية وأسلحة وملابس وأغطية.

وقد ترتب عن ذلك نوع من التبادل التجاري بين القبائل، بينما احتكرت التجارة الخارجية من طرف البيوت التجارية الأجنبية، كما كانت موّجهة لتصدير المواد الأولية الفلاحية والحيوانية نحو بعض الأقطار الإسلامية والبلدان الأوربية.

وقد تعرضت في الفصل الثاني: إلى الأوضاع المؤثرة في النظام الضريبي لبايليك الشرق من خلال النقاط التالية:

أ ـ الوضعية الإجتماعية بالأرياف القسنطينية.

ب ـ الوضعية الديمغرافية بالأرياف القسنطينية.

ج ـ تصرفات الحكام ونوعية السياسة التي كانوا ينتهجونها مع أهالي الريف.

د ـ وضعية التنظيم الإداري بالأرياف القسنطينية.

فبالنسبة للوضعية الإجتماعية، نلاحظ أن غالبية سكان بايليك قسنطينة كانت تقيم بالأرياف بنسبة 95٪ من السكان، وإنّها تأثرت إلى حدّ ما بالحالة الصّحية ومستوى المعيشة، حيث كان لتكرّر الأوبئة والكوارث الطبيعية والمجاعات خلال نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 وما نتج عنها من إختفاء للأقوات وقلّة للمحاصيل وارتفاع الأسعار خاصة خلال فترات الجفاف والقحط، أثر سلبي على الحالة المعيشية للمجتمعات الريفية التي عانت من الحرمان والتعاسة والبؤس، وقد ترتب عن إنعدام الإجراءات الوقائية من طرف سلطات البايليك والنزاع العشائري، إنهيار ديمغرافي أثّر على القدرة الإنتاجية بالأرياف.

غير أنّ السياسة المنتهجة من طرف بعض الحكام والمتميّزة بالكفاءة في التسيير والإهتمام بمشاكل السكان والتخفيف من شقائهم، وذلك بإقرار تنظيمات وإصلاحات تخدم مصالح المجتمعات الريفية الشقية، ساهمت في تحسين الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية بالأرياف كما وجد صنف ثاني من الحكام عرف بسوء التسيير والإستبداد والبطش، حيث تسبب في إفلاس الخزينة وإتلاف الثروات مما زاد في بؤس وتعاسة سكان الأرياف.

ولعلّ أهم عامل أثّر في النظام الضريبي هو الجهاز الإداري بالأرياف وقد كان يرتكز على سلك من الموظفين مكلّفين بإقرار النظام والأمن وقمع التمردات واستخلاص الضرائب، خاصة أنهم يختارون من العائلات القوية المتنفذة المعروفة بموالاتها لسلطة البايليك.

وبالتالي، هذه العوامل المتمثلة في الأوضاع الديمغرافية والإجتماعية والأنظمة الإدارية وسياسة الحكام، شكّلت الأرضية المتميّزة لتطبيق نظام جبائي خاص.

أمّا تنظيمات الجهاز الضريبي في الريف القسنطيني، فقد تمّ التعرّف عليها في:

الفصل الثالث: من خلال النقاط التالية:

أ ـ موظفو الجهاز الضريبي بالريف القسنطيني.

ب ـ أصناف الضرائب ونوعية الرسوم المستخلصة.

ج ـ الدوافع والعوامل المتحكمة في فرض الضرائب على سكان الأرياف القسنطينية.

د ـ الإصلاحات والتعديلات التي خضعت لها الضرائب بالريف القسنطيني.

لقد تمتع سلك الموظفين المكلّفين بجمع الضرائب من سكان الأرياف بصلاحيات متعدّدة تمثّلت أساسا في تحديد مبلغ الضرائب التي فرضت على الأعراش والقبائل، والإشراف على عملية إستخلاصها.

هذا وقد إنقسمت الضرائب والمستلزمات المالية المستخلصة من سكان الأرياف إلى 3 أصناف حسب طبيعتها القانونية وطريقة إستخلاصها:

1 ـ ضرائب اعتيادية أو شرعية كالعشور والزكاة.

2 ـ ضرائب غير اعتيادية أو مستحدثة، وهي مغارم كاللزمة والغرامة والمعونة والخطية ومهرباشا.

3 ـ ضرائب ذات الطابع الإداري والصبغة الإقتصادية كحقوق التولية (Droits d'investiture) ، مثل حق البونوس، حق الفرح، حق البشارة، المشيخ، حق الخدمة، أو العوائد والتوصيات والهدايا كحق الكبش أو هدية العيد وضيفة العادة وضيفة الدنوش وحق النسبير، أو رسوم الأسواق وحقوق المبادلات كحق العسة وحق البزرة وحكور الأراضي الزراعية.

أمّا إذا تساءلنا عن الدوافع والعوامل المتحكمة في فرض الضرائب، فإننا نلاحظ أن الحالة الإقتصادية للإيالة الجزائرية أواخر العهد العثماني تميّزت بإزدياد المطالب المالية للحكم المركزي وبتبذير بعض الحكام لموارد الخزينة وسوء تصرّفهم في الشؤون المالية، بالإضافة إلى تعدّد الكوارث والآفات الطبيعية كالأمراض والجفاف والمجاعات التي حدّت من الإنتاج وانقصت من مداخيل الدولة من الضرائب، ودفعت الحكام إلى زيادة الضغط على السكان بإثقال كاهلهم بضرائب إضافية لم يتمكنوا من تسديدها في أغلب الفترات.

هذا وقد تمحور الفصل الرابع : حول النظام الضريبي ونوعية الملكية وطبيعة الإنتاج بالأرياف، وتمّ معالجته من خلال النقاط التالية :

أ ـ نوعية الملكية أو حيازة الأرض الزراعية.

ب ـ طرق الإنتاج وأساليب إستغلال الأرض.

ج ـ إرتباط الإنتاج الزراعي بالتنظيمات الضرائبية.

لقد كان لنوعية ملكية الأرض الزراعية تأثير على النشاط الإقتصادي وارتباط مباشر بالجهاز الضريبي، حيث وجدت 4 أصناف للملكية :

1 ـ أراضي الدولة البايليك،

2 ـ أراضي الخواص «ملك»،

3 ـ أراضي المشاع «العرش»،

4 ـ أراضي المؤسسات الدينية «الوقف»، وقد وفرت هذه الأراضي باختلاف أنواعها كميات معتبرة من المحاصيل الفلاحية والمقادير النقدية لخزينة البايليك، حيث أصبحت تشكل المصدر الأساسي لدخل بايليك قسنطينة.

أما **الفصل الخامس** : فقد احتوى على النظام الضريبي والبنية الإجتماعية بالأرياف، وقد تمّ التعرّض له من خلال النقاط التالية :

أ ـ القوى الإجتماعية بالأرياف القسنطينية.

ب ـ علاقة القوى الإجتماعية بالسلطة المحلّية للبايليك.

ج ـ إنعكاس السياسة الجبائية على علاقة البايليك بسكان الأرياف القسنطينية.

فالقوى الإجتماعية بالأرياف كانت تتكوّن من مجموعات من العشائر والقبائل المحكومة والخاضعة للسياسة الجبائية وهي جماعات الرعية، متشكلة من عشائر المخزن والعائلات المتنفذة «الجواد» وشيوخ الزوايا والمرابطين، وقد تمتعت هذه القوى الإجتماعية بصلاحيات وإمتيازات متنوعة كالإعفاء من الضرائب، مقابل تقديم خدماتها للبايليك، المتمثلة في استخلاص الضرائب وإقرار الأمن وإخماد التمرّدات والمشاركة في الحملات العسكرية «المحلات»، وصنف ثالث من القوى الإجتماعية الريفية متشكل من القبائل الممتنعة والمستقلة عن سلطة البايليك، رفضت الإستجابة للسياسة الجبائية، مما دفع سلطات البايليك إلى إرغامها للخضوع للنظام الضريبي بشنها سلسلة من الحملات التأديبية التعسفية، مما دفع هذه القبائل المستقلة إلى القيام بحركات تمرّد متكرّرة، كانت تعبيرا خالصا لرفضها للسياسة الجبائية المفروضة عليها.

أمّا **الخاتمة** : فهي بمثابة تقييم وإستنتاج لما تمّ الوصول إليه من خلال طرح عدّة تساؤلات من ضمنها ما يلي :

ـ هل كان النظام الضريبي بالريف القسنطيني يراعي العدالة الإجتماعية من خلال تطبيقه؟

ـ هل اتصفت الإجراءات الإدارية المتعلقة باستخلاص الضرائب بالمرونة والفعالية والمساواة، وهل نتج عنها توازن مالي لصالح خزينة البايليك ومستوى معيشة سكان الأرياف؟

ـ هل خضعت مختلف الشرائح الإجتماعية الريفية لمعاملة مماثِلة من طرف موظفي الجهاز الضريبي؟ أم أنّ بعضها كان يتميّز بمعاملة مفضلة وإمتيازات خاصة فرضتها مكانتها ونفوذها في المجتمع الريفي؟

من خلال محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات، توّصلنا إلى مجموعة من الإستنتاجات، نذكر من أهمها ما يلي:

* تميّزت تنظيمات الجهاز الضريبي بتنوّعها وتوسّعها إلى مختلف أنواع الإنتاج الإقتصادي مع نهاية القرن 18 وذلك بسبب ضعف النشاط البحري، وممّا زاد في تمسك الحكام بموارد الأرض، تزايد نفقات الجهاز الإداري وتحكّم الإحتكارات الأجنبية في المواد الأولية.

* كان للنظام الضريبي بباليك قسنطينة تأثير سلبي على القدرات الإقتصادية بصفة عامّة، وعلى الإنتاج الفلاحي بصفة خاصة، فرغم الإصلاحات التي أدخلها صالح باي وأحمد باي، فإن القدرة الإنتاجية للشرق القسنطيني لم تتطور كثيرا، وهذا ما حدّ من المردود العام للضرائب.

* لم يراع النظام الضريبي المطبق بباليك الشرق القدرات والإمكانيات الإقتصادية للفلاحين ولم يأخذ بعين الإعتبار مستوى معيشة الأفراد أو تطبيق العدالة في استخلاص المطالب المخزنية، حيث فرضت أنواع مختلفة ومتعددة من الضرائب بمقادير وكميات مرتفعة على جماعات الرعية، المستغلة ضرائبيا إستغلالا كاملا، بينما لم تلزم عشائر المخزن والعائلات الكبرى «الجواد» وشيوخ الزوايا والمرابطين إلا بضرائب جزئية ومخففة (زكاة وعشور)، وهذا ما عمّق الفوارق الإجتماعية وزاد من حدّة تباين مستوى المعيشة وحال دون تطوّر العلاقة بين السكان والبايليك، وهذا ما جعل سكان الأرياف صنفين: أحدهما منتفع من هذه السياسة الجبائية، وهو جامع للضرائب؛ والآخر متضرّر منها، وهو دافع لها.

* لم تكن الضرائب موّحدة في نظامها ولا في مقدارها، فكانت تخضع لأنواع الشرائح الإجتماعية ونوعية علاقتها بالبايليك، وهذا ما أدى إلى إختلال التوازن في تطبيق السياسة الجبائية، حيث طبق نظام ضريبي غير قار وغير محدّد وغير موحّد، بل هو معقّد من حيث تعدّد الضرائب وإختلاف الإجراءات التي كانت تخصّ قبائل الرعية فقط، المغلوبة عن أمرها، دون قبائل المخزن والعائلات الإقطاعية والقبائل المتعاونة التي أعفيت من دفع الضرائب مقابل خدمات للبايليك، المتمثلة أساسا في السهر على الأمن، استخلاص الضرائب وقمع التمردات العديدة التي رفع لواءها

سكان الأرياف، والتي كانت تعبيرا صادقا لرفضهم للسياسة الجبائية المفروضة عليهم.

* استهدفت التنظيمات الضرائبية إخضاع العالم الريفي القسنطيني الذي لم يتقبّل سياسة جبائية غير عادلة في تحديد كمياتها، بل تعسفية في طرق إستخلاصها، والوسيلة لتحقيق ذلك تمثّلت في تطبيق أسلوب غير مباشر، شعاره: «حكم الجزائري بالجزائري» حيث أوكلت مهمة إستخلاص الضرائب إلى عائلات ذات مكانة ونفوذ وبذلك، تمّ بالفعل التحكم في الريف من خلال تنظيمات جبائية معتمدة أساسا على وسطاء من الأهالي.

* اتصفت الضرائب بعدم التوزيع العادل بين سكان المدن وأهالي الأرياف، حيث تحمل سكان الريف الضغط المالي وألزموا بدفع أكبر وأهم نسبة من الضرائب والمطالب المخزنية، بينما لم تساهم المدن إلا بضرائب قليلة، محدّدة وقادرة، ولعلّ تمركز إدارة البايليك وتواجد العناصر التركية والكراغلة بالمدن كان سببا في تخفيف المطالب المخزنية عليها، وذلك على حساب الأرياف التي أصبحت المصدر الأساسي الذي يموّل المدن ويلبي حاجات موظفي البايليك المقيمين بها، مما أدى إلى تدهور معيشة سكان الأرياف الذين كانوا يعانون من ظروف صعبة وقاسية زادتها حدّة وخطورة الكوارث الطبيعية من جراد وجفاف وفيضانات وأوبئة، فزاد الفقراء فقرا والأغنياء غنىً، فأصبحت العلاقات الإجتماعية إنطلاقا من واقع الضرائب تعتمد على أقلّية غنية وقوية متحكمة في جمع الضرائب وأغلبية فقيرة وضعيفة وخاضعة للنظام الضريبي.

* أدى عدم التوازن في فرض الضرائب على سكان الأرياف القسنطينية وإنعدام العدالة وعدم الأخذ بالقدرة الحقيقية للإنتاج إلى عجز في تسديد المطالب المخزنية من طرف الفلاحين، بل دفع أغلبية القبائل إلى إعلان التمرّد والعِصيان، ممّا أدى إلى تحوّل نسبة هامة من الفلاحين والخماسين إلى مزاولة الرعي، هروبا من قوّة المحلة التعسفية، وهذا ما ساعد على ظهور شريحة إجتماعية لا تتمتع بالإمتيازات ولا تخضع للسياسة الجبائية، بل هي مستقلّة وممتنعة، بعيدة كل البعد عن الإجراءات الضريبية.

* نصيب هام من الضرائب كان يذهب لصالح الموظفين والقائمين باستخلاص الضرائب من قياد وشيوخ، الذين كانوا يأخذون حصّة مهمّة من مردود الضرائب

لفائدتهم الشخصية، فانجرّ عن تنظيمات الجهاز الضريبي حدوث الكثير من التجاوزات عند جمع الضرائب أو تقييمها أو نقلها لمخازن البايليك لفائدة القائمين بذلك؛ وهذا ما سمح لموظفي البايليك باكتساب ثروات ضخمة والحصول على مصادر دخل خاصة لا تخضع لنظر ديوان البايليك.

* لقد شملت التنظيمات الضريبية المطبقة بالأرياف القسنطينية عدّة أصناف من الضرائب والرسوم، منها ما يتماشى والأحكام الإسلامية كالعشور والزكاة، ومنها ما استحدث بفعل الحاجة كاللزمة والغرامة والخطية، ومنها ما أقر لتجاوبه مع التنظيمات الإدارية المعمول بها والخدمات الإقتصادية التي ترتبت عنها مثل حقوق التولية والعوائد والهدايا والترضيات ورسوم الأسواق وحقوق المبادلات ورسوم الحكور.

* كان لنوعية الضرائب وطريقة إستخلاصها تأثير سلبي على تطوّر الملكية وطرق الإستغلال، فالمطالب النقدية والعينية الثقيلة أدّت إلى تجريد المحلات لاستخلاص الضرائب، مما اضطرّ مجموعات قبلية هامة إلى مغادرة أراضيها لممارسة الرعي، وقد تسببت المحلات في حرق المحاصيل الفلاحية وهلاك قطعان المواشي وتشريد السكان، مما أدّى إلى تدهور البنية الإجتماعية والإضرار بالحياة الإقتصادية بالأرياف.

* أدى التطبيق الجائر للسياسة الجبائية إلى إنكماش إقتصاد الأرياف وعزلة سكانها الذين أصبحوا يتخوّفون من السلطة، وترتب عن تلك العلاقة بين سلطة البايليك وأغلبية سكان الأرياف، وهم قبائل الرعية، علاقة إستغلال بفعل الصلاحيات المخوّلة لعشائر المخزن.

* خضع النظام الضريبي بالريف القسنطيني إلى تعديلات وإصلاحات جذرية على عهد كل من صالح باي وأحمد باي، حيث حاول الأول توحيد الجباية على سكان الأرياف والتخفيف من عبء المصاريف وذلك بإنقاص عدد الموظفين المكلّفين باستخلاص الضرائب، وإخضاع كل الأراضي الفلاحية لضريبة موحّدة هي مطالب الجبري السنوي؛ أما الثاني وهو الحاج أحمد باي، فقد حاول سن سياسة جبائية أساسها العدل والإنصاف، ومصدرها الشريعة الإسلامية حيث ألغى الضرائب والمغارم المستحدثة كالخطية والمعونة واللزمة، ولم يقر سوى الضرائب التي نصت عليها أحكام ديننا الحنيف.

وعلى كلّ، فإنّ ما توصّلنا إليه من إستنتاجات ليست أحكاما نهائية لأنّ دراسة لمثل هذا الجانب المهم من الحياة الإقتصادية، وهو النظام الضريبي، ستعرف لا محالة، تطوراً بفضل ظهور وثائق جديدة، وهذا ما يجعلنا نؤكد بأنّ مساهمتنا هذه، رغم ما بذل فيها من جهود وبحث، لا يمكن أن تغلق الباب في هذا المجال، فهي جهد علمي نتمنى أن يكون منطلقا لتغطية مجالات إقتصادية أخرى تتصل بتاريخ الريف القسنطيني، وقد حاولت طوال هذا العمل الصعب نظرا للواجبات المهنية والعائلية الثقيلة أن التزم بالأمانة العلمية والموضوعية حتى أتمكن من تحقيق هذه الدراسة المتواضعة جداً، التي لولا نصائح الأستاذ المشرف، السيّد ناصر الدين سعيدوني ومساعدته المخلصة لما تمّ إنجاز هذه الرسالة، أشكره جزيل الشكر على توجيهاته كما أوجه شكري لأعضاء لجنة المناقشة والحاضرين. شكراً!...

الحاج أحمد باي ـ رجل دولة ومقاوم(*)

1826 ـ 1848

بوعزة بوضرياسة

يعود إختياري لشخصية الحاج أحمد باي كموضوع لهذا البحث إلى إهتمامي بالشخصيات التاريخية التي صنعت تاريخ الجزائر، فكان الحاج أحمد باي إحداها ورمزا من الرموز التي لمعت في تاريخ المقاومة الجزائرية وواجهت الاحتلال الفرنسي منذ أن وطأت أقدامه أرض الجزائر الطاهرة، وكان قائداً فذّاً وحاكماً قديراً وبطلاً مغواراً، وهذه بعض الصفات التي تميز بها بمقاومته الاستعمار، فصمد له قرابة ثمانية عشر سنة كاملة، وقد كان إلى هذا كله قائدا محنكاً ومنظماً كبيراً استطاع إقامة دولة لم يكتب لها الدوام ولقد اعترف قادة جيوش فرنسا بصلابة عوده وكراهيته لهم منذ دخولهم الجزائر.

وقد تأكد ميلي لدراسة هذه الشخصية كرجل دولة من ناحية ومقاوم من ناحية أخرى بفضل التوجيهات القيّمة والمفيدة التي قدمت لي من طرف أستاذي المشرف والتي عرفتني بأهمية الموضوع بالنسبة لتاريخ الجزائر وتقصّي الحقائق التاريخية التي تعرّضت إلى كثير من التشويه والتزييف المقصود.

وبعد قراءة تمهيدية حول شخصية الحاج أحمد باي من خلال بعض المصادر مثل مذكراته وكتاب المرآة لحمدان بن عثمان خوجة، وغيرها، زاد إرتباطي به، فكان

(*) تقدم الطالب بوعزة بوضرساية بهذه الأطروحة لنيل درجة ماجستير في التاريخ الحديث تحت إشراف الأستاذ جمال قنان، وتكونت لجنة من الأساتذة: ناصر الدين سعيدوني رئيساً وعمر بن خروف ودحو جربال عضوين، وتحصل الطالب على درجة ماجستير بدرجة مشرف جداً بتاريخ 5-2-1992.

حافزاً لي على الإهتمام به أكثر، وقد وقع اختياري بالذات على موضوع الحاج أحمد باي رجل دولة ومقاوم، نظرا لما لعبه من دور بارز سياسيا وعسكريا في التصدي للإحتلال الفرنسي ومحاولته بناء دولة جزائرية لم يكتب لها الاستمرار ليحمل بعدها لواء المقاومة في ربوع الشرق الجزائري.

وجاءت مباركة الأستاذ د / جمال قنان للموضوع لعدّة أسباب أهمها ما يلي: ـ

1 ـ أن شخصية الحاج أحمد باي لم تحظ بدراسة وافية وشاملة.

2 ـ الغموض الكبير الذي ما يزال يشوب هذه الشخصية والتي تكاد تكون مغمورة.

3 ـ جدّية الموضوع لتناوله جانبان أساسيان، الأول يتناول الحاج أحمد باي كرجل دولة، والثاني يتناول مقاومته كمرحلة ثانية.

4 ـ أن جلّ الكتب التي تحدثت عن تاريخ الجزائر خلال القرن التاسع عشر سواء المصادر منها أو المراجع لم تعط هذه الشخصية حقها من الإهتمام الذي نجده قد تركز حول بعض الشخصيات الجزائرية دون الأخرى.

5 ـ أن الموضوع الذي نعالجه اليوم لم يدرس البتة من قبل إلا في بعض النقاط التي أثر يناها في الباب الأول فقط.

6 ـ لم نعثر على أية دراسة شاملة ووافية تبرز دور الحاج أحمد باي على أنه رجل دولة.

7 ـ أن الباب الثاني الذي خصصناه لمقاومة الحاج أحمد باي من 1837 إلى 1848، لم يحظ بأية دراسة ويكاد يكون مفقودا تماماً.

وخلاصة هذه الأسباب أن هذا الموضوع الذي نعالجه اليوم، لم يدرس من قبل إلا في صور ضئيلة يتخللها فراغ تاريخي كبير لم تعكس الحقيقة التاريخية لهذه الشخصية الفذة، كما أن الهدف من ذلك هو نقص الغبار الذي علّق به والتعتيم الذي لحق بأعماله، واللامبالاة التي ضربت على مساهمته الفعّالة في محاولته بناء دولة ذات هياكل ومؤسسات.

كما كان الهدف كذلك هو المساهمة بقدر وافر ومتواضع في إبراز دوره الفعّال في المقاومة الوطنية التي دوّخت الإستعمار الفرنسي.

وقد ازددنا شغفاً بالموضوع خاصة لما وجدنا فيه ما يلبّي اهتماماتنا، وتعلّقنا به أكثر لما علمنا بعد تصفحنا ما كتب عنه أنه لم ينل حقه من الإهتمام وعلى الرغم من أنه ليس هناك دراسة جادة حوله، فإننا ارتبطنا به أكثر نظراً لتعمد بعض الباحثين طمس هذه الشخصية على أنها تمثل الإدارة العثمانية وبالتالي فهي استمرار لنظامها، وأنها لم ترق للمستوى حتى تسلط عليها الأضواء.

والملاحظ أن كل من أشار إلى الحاج أحمد باي بالنسبة للفترة التي تناولناها أجحف في حقّه، وبالتالي فإن مرحلة المقاومة بعد سقوط عاصمة الإقليم الشرقي عام 1837 بقيت مجهولة تماماً، عدا بعض الإشارات السطحية، مثلما جاء في المذكرات ومقالة يحي بوعزيز حول تواجد الحاج أحمد باي بأولاد سلطان، ولذلك يمتاز عملنا هذا في تغطية هذه الفترة بالإعتماد على الوثائق، وبعض المصادر، من ذلك الرسائل الذي كان يبعثها لشيوخ القبائل، والتقارير العسكرية عن الأوضاع بالإقليم الشرقي، والتي ساعدتنا على إبراز الحاج أحمد باي على أنه كان من مصاف الشخصيات الجزائرية التي ساهمت في صنع حكومات عجّلت الظروف في سقوطها، والتي قاومت الإحتلال إلى آخر لحظة بسيفها وقلمها ومالها من أجل الوطن.

أما أسباب تحديد هذا الموضوع بالفترة الممتدة من عام 1826م إلى 1848م، فهي كثيرة أهمها ما يلي: ـ

1 ـ إن بداية هاته الفترة بعام 1826 والتي تعتبر منطلقاً تاريخياً جديداً بالنسبة لحياة الحاج أحمد باي في إرساء دعائم دولة قامت على الإستقرار والأمن، والتي بدأت تظهر للوجود مع طلائع عام 1830م، وبالتالي فإن سنة 1826 هي سنة تعيينه بايا على بايلك الشرق، فأصبح بعدها حاكماً قديراً يحضى باحترام العام والخاص وقائداً فذاً له من الدهاء السياسي والعسكري ما يخوّل له أن يتبوأ هذه المكانة الرفيعة التي جعلت منه رجل دولة، فقاوم الإحتلال الفرنسي إلى غاية 1848 عام انكسار شوكته.

2 ـ شهدت هذه الفترة بناء دولة جزائرية على يد الحاج أحمد باي لها مؤسساتها التي أشرفت على تسيير الدولة.

3 ـ لاحظنا أن أعمال الحاج أحمد باي كرجل دولة لم تدرس كما يجب، وما كتب

عن هذا الجانب لم تبرزه كسياسي حاول بناء دولة جزائرية أراد أن يجعل من قسنطينة عاصمة لها بعد سقوط العاصمة الفعلية الجزائر، حيث أن هذه الأعمال تجسّدت ما بين 1830 و 1837م، وذلك بعد عودته من مشاركته في مواجهة العدو الفرنسي إلى غاية سقوط قسنطينة.

4 ـ تعتبر الفترة المتبقية من كفاح الحاج أحمد باي أي من 1837 إلى 1948 عام انكساره أمام الاحتلال الفرنسي هي الحلقة المفقودة التي أهملتها المراجع إهمالاً تاماً رغم أهميتها بالنسبة للمقاومة الجزائرية في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية.

الصعوبات التي واجهتني عند التصدي لدراسة هذا الموضوع الذي لم يكن بالأمر الهيّن، منها البحث عن الوثائق والمصادر المعاصرة لفترة البحث، ومقارنتها ثم العمل بجدّية للقيام بترجمة المادة التي تتطلب هي الأخرى صياغة جديدة حسبما تتطلبه خطة البحث، وقد أرّرثتنا هذه الوضعية الصعبة نوعا من اليأس ولا نغالي إن قلنا أننا لم نطمح حقيقة إلى تحقيق هذا العمل المتواضع لولا التشجيع الذي لقيناه من طرف الأستاذ المشرف الدكتور جمال قنان، ولكن لا يكاد يوجد عمل واحد بدون صعوبات غير أن ضرورة السفر إلى دور المحفوظات بفرنسا خاصة أن الوثائق المعتمد عليها كانت من أساسيات مادة الموضوع، فكانت إلزامية السفر ضرورية رغم انعدام الإمكانيات المادية، حيث أننا لم نستفد كما يجب من المنح القصيرة المدى أو منحاً أخرى.

والدورات الدراسية هاته، كان القصد منها الإطلاع على الوثائق التي لها علاقة بالبحث والموجودة في دور المحفوظات التالية: ـ

- محفوظات وزارة الحربية بفانسان.
- محفوظات ما وراء البحر ياكس آن بروفانس.
- محفوظات المكتبة الوطنية بباريس.
- أرشيف وزارة الخارجية بالكي دورسي.
- مكتبة السليمانية بإسطانبول.

وهذه الأخيرة لم أستفد منها كما يجب لعدّة اعتبارات منها، وأكبت زيارتي لتركيا العطلة الصيفية، مما أجبرني على الإعتماد على تصفح بعض الوثائق فقط.

وتعتبر الوثائق التي إطلعنا عليها من مراسلات وتقارير، وخرائط، عماد هذا العمل، حيث أن الأغلبية منها لم يسبق الإعتماد عليها كما يجب، وهذا ما زادني قوّة على مواصلة العمل في هذا الموضوع الذي إذا كان له هدف إنما هو إخراج شخصية الحاج أحمد باي من الظلام الذي أحيط به قصداً أو دون قصد.

وقد حاولت التعرض بإمعان لهذه الشخصية ضمن الفترة المخصصة للبحث متجاوزاً إياها في الفصل الأخير الذي تضمن إنعكاسات مقاومة الحاج أحمد باي بعد عام 1848 في النواحي الشرقية والجنوبية الشرقية نظراً للإرتباط المباشر وغير المباشر الذي كان قائماً بين مقاومة الحاج أحمد باي والمقاومة التي استمرت بعده.

وبالنسبة لمنهجية البحث، فقد قسمنا البحث إلى مدخل وبابين أساسيين، ففي المدخل تناولنا جغرافية بايلك الشرق، وتعرضنا فيه للموقع الجغرافي العام للمنطقة والتعريف بقسنطينة بإعتبارها عاصمة للإقليم، ومالها من أهمية استراتيجية إلى جانب القبائل التي تقطن المنطقة بكل فروعها. والمدخل في حدّ ذاته عبارة عن معلومات نراها هامة لأنها تلقي الضوء على جغرافية المنطقة والوضعية السكانية خلال القرن التاسع عشر.

أما الباب الأول وهو تحت عنوان «الحاج أحمد باي رجل دولة» فقد شمل ثلاثة فصول درسنا في الأول حياة الحاج أحمد باي، حيث تعرضنا إلى مولده ونشأته، وكذلك الصفات الخلقية والبنية الجسمانية للحاج أحمد باي.

وكان عنوان الفصل الثاني إدارة الحاج أحمد باي لبايلك الشرق، وقد تضمن مختلف الأعمال التي قام بها، والسياسة التي طبقها باعتباره حاكماً فعلياً جسّد الدولة الجزائرية في أعمال وتنظيمات جبارة إدارية وسياسية وعسكرية، كما اهتم بالحياة الثقافية فجعل من قسنطينة حاضرة العلم والمعرفة، وبنى المدارس ورفع مكانة العلماء إلى جانب نشاطه العمراني.

وجاء الفصل الثالث تحت عنوان «موقف الحاج أحمد باي من الإحتلال الفرنسي»، باعتباره رجل دولة، وتناولنا فيه علاقته بالإحتلال الفرنسي مبرزين مراسلات قادة الجيوش الفرنسية له، وردّ فعله الذي تجسّد في مواجهتهم في معركتي 1836 و 1837 وأوضحنا كذلك الخطط العسكرية المطبقة من طرفه لمواجهة خطط العدو.

أما الباب الثاني جاء تحت عنوان «الحاج أحمد باي المقاوم»، وهو الجانب الذي نرى فيه أكثر إثارة باعتبار أن الفترة الممتدة ما بين 1837 و 1848 لم تدرس البتة، وقد تضمن هذا الباب أربعة فصول، تناولنا في الأول مرحلة 1837 ـ 1843، تطرّقنا فيها إلى دوره في تعزيز صفوف المقاومة وسياسة فرنسا الاستراتيجية بالمنطقة، وكذلك علاقته بالأمير عبد القادر، وقد أنهينا هذا الفصل بإبراز دور الحاج أحمد باي في تعبئة القبائل.

أما الفصل الثاني تطرقنا فيه إلى مرحلة 1844 التي تناولنا فيها استراتيجية فرنسا العسكرية الجديدة في المنطقة التي تعززت بمجيء الدوق دومال وتعيين بوجو مارشالاً. كما عرضنا ردّ فعل الحاج أحمد باي على هذه السياسة، وأشرنا إلى أهم حملة فرنسية بقيادة الدوق دومال على بسكرة وردّ فعل المقاومة، كما تطرقنا إلى مقاومة أولاد سلطان وفشل الحملات الفرنسية في تفويض المقاومة.

أما الفصل الثالث فقد تطرقنا فيه إلى مرحلة 1845 ـ 1848، وهي آخر مرحلة من مراحل مقاومته الباسلة، وقد أبرزنا إعتصام الحاج أحمد باي بجبال الأوراس، كما تناولنا في نفس الفصل دعم الحاج أحمد باي لقبائل وادي عبدي، وكذلك تطبيق فرنسا لسياسة الأرض المحروقة، كما أبرزنا إذكاء الحاج أحمد باي نار المقاومة بين قبائل الأوراس، وقد أنهينا الفصل بعنصر هام أوضحنا فيه بداية نهاية مقاومة الحاج أحمد باي.

أما بخصوص الفصل الرابع والأخير فقد جاء تحت عنوان «امتداد روح المقاومة بعد نهاية مقاومة الحاج أحمد باي» وقد تناولنا فيه انعكاسات مقاومته وامتدادها عن طريق بعض شيوخ القبائل منهم شيوخ الشرفة وبني سليمان والشيخ عبد الحفيظ وكذلك سي محمد الطيب والإخوة بن عزّ الدين، ودور الشيخ بومعزة والشيخ بوزيان، وأنهينا هذا الفصل بتحالف الشيوخ ضد العدو الفرنسي تحت قيادة الرائد سان جرمان الذي لقي حتفه. أما النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة فقد وضعنا فيها الحاج أحمد باي في مكانه الحقيقي الذي كان يجب أن يكون فيه منذ زمن، خاصة ظهوره بمظهر الرجل القوي الذي بإمكانه استغلال القوة البشرية الجزائرية المتزايدة التي جعلت الفرنسيين يحسبون لها ألف حساب بالتقليل من أهميتها مما اضطرنا تحت التحيز الفرنسي إلى مقارنة ما ذكر من معلومات فرنسية بما كتب

بأقلام جزائرية. كما أن شخصية الحاج أحمد باي كانت أكثر إثارة لما توصلنا إليه من معلومات دقيقة حول حياته وتربيته وما عاناه من مكائد أعدائه واستنتجنا على ضوء ذلك ما اكتسبه من تجارب سياسية وعسكرية، فزيارته إلى مصر جعلته يحتك بأولاد محمد علي والي مصر إذ تأثر بالمنجزات العمرانية والعسكرية لتعطيه فيما بعد دفعاً قوياً في تسيير شؤون بايلك الشرق، كما أن فترة حكمه تميزت بأعمال إدارية وسياسية كانت رمزاً للدولة التي أسسها ولتكتمل سيادتها. فقد قام بضرب النقود ووضع علم نُصب على كل مؤسسات الدولة إلى جانب الإهتمام بالناحية العسكرية وذلك بتكوين جيش قوي، كما أن الحياة الثقافية ازدهرت في عهده حيث جعل من قسنطينة حاضرة علم ومعرفة، فحضي العلماء بمكانة كبيرة منهم بن عبد الكريم الفكون وأحمد بن المبارك بن العطار وغيرهم ليجعلوا من قسنطينة مقصد طلاّب العلم والمعرفة.

كما شهد النشاط العمراني في عهده عناية كبيرة معتمداً في ذلك على بنائين جزائريين مهرة لم يكونوا معروفين من قبل أمثال الحاج الجابري والخطابي، وكذلك إنشاء الساحات العمومية مثل رحبة الجمل وسوق العصر، إلى جانب تخصيص أسواق للحرف والمهن والبضائع.

غير أن هذه المعالم الحضارية كانت شاهدة على الإنبعاث الفكري في عهده، لكنها هدّمت على يد الفرنسيين وتحوّلت إلى أطلال.

كذلك توصلنا إلى أمر هام وهو موقفه البطولي والوطني الذي تضمن رفضه القاطع لمساومة العدو، وقد اعترف له بذلك أعداؤه من قادة الإحتلال الفرنسي إبتداءً من قائد الحملة ديبورمون مروراً بكلوزيل وديروفيغو ودامريمون وفالي الذين سارعوا في كل مرة إلى مراسلته طالبين منه السلم، لكنه سلم مشروط على حساب شعبه ووطنه وعقيدته فكان ردّه الرفض، وما توصلنا إليه كذلك هو الخطط الحربية التي طبقها في منازلته للعدو الفرنسي في معركتي 1836 و1837، ولولا استقدام العدو لقواته من فرنسا والجزائر ووهران لاستطاع الحاج أحمد باي أن يلقنه دروساً في فنون الحرب، ومع ذلك فضّل المواجهة الشريفة، فألحق الخسائر الكبيرة في صفوف العدو الذي فقد بعض قادته الكبار منهم الحاكم العام دامريمون وكذلك الجنرال بريقو.

وما استنتجناه كذلك هي العلاقة التي كانت تربطه بالباب العالي، حيث أجزم البعض أنه يمثل استمرارية الحكم العثماني، لكننا وجدنا عكس ذلك ونحن نتناول هذا العمل، إذ كانت الدولة العثمانية بالنسبة له رمزية فقط، يمكن الإستعانة بها في المجال العسكري عند الضرورة.

أما علاقته بالأمير عبد القادر جعلتنا نتأكد أن وطنيته فاقت كل تصور، فعلى الرغم مما لحق به من وراء معاهدة التافنة وتحريض الأمير عبد القادر لبعض القبائل ضده، إلا أنه ورغم ذلك استجاب لطلبه في قطع العلاقة مع فرنسا التي أرادت أن تجره إلى معاهدة استسلامية.

ومن الاستنتاجات كذلك، الجهود الكبيرة التي بذلها الحاج أحمد باي من أجل بناء دولة جزائرية مستقلة عن الدولة العثمانية وتكون استمرارية لكيان الدولة الجزائرية، جاعلاً من قسنطينة منطلقاً لها.

كما أن مرحلة المقاومة التي دامت إحدى عشر سنة من الجهاد، أبرزت الحاج أحمد باي كزعيم وطني لما لعبه من دور بارز في توحيد صفوف المقاومة وحث القبائل ضد العدو الفرنسي وتزويد المقاومة بكل ما يملك، وقد أدى تنسيقه بين القبائل تأكيد وجوده في تعبئة هذه القبائل، فكان فعالاً وقوياً رغم كبر سنه ومرضه.

ولنا في النهاية أن نبين سبب استسلام الحاج أحمد باي الذي يعود إلى عدّة اعتبارات أهمها كبر سنه ومرضه وتشديد الخناق عليه إلى جانب المكائد من طرف الخونة، وقد كانت فرحة الفرنسيين كبيرة عند سماعهم استسلام عدوهم اللدود لكن هذه النهاية كانت في حد ذاتها بداية لمقاومات أخرى امتدت عبر مناطق الشرق الجزائري منها مقاومة شيوخ الشرفة وبني سليمان والشيخ عبد الحفيظ وسي محمد الطيب وكذلك الشيخ بومعزة والشيخ بوزيان، فكانت القوة الضاربة بتحالفها ضد العدو الفرنسي، وعلى هذا الشكل تكتمل حلقات رجل ساهم في بناء دولة جزائرية وبرهن على وطنيته، وقد أثبتها ميدانياً بجدارة واستحقاق ليختطفه القدر في 30 أوت 1850م بعد أن أكمل السنة الثالثة بعد الستين.

أما بالنسبة للمصادر، فإن شخصية الحاج أحمد باي لم تحظ بدراسات متخصصة، كما أن الموضوع في حدّ ذاته لم يلق العناية اللازمة من طرف الباحثين ويعود ذلك حسب رأينا إلى طبيعة المصادر المتعلقة بدراسة الحاج أحمد باي بإعتباره

رجل دولة من ناحية ورجل مقاومة من ناحية أخرى.

وبالتالي فإن معظم المصادر فضلاً عن ندرتها، فإن ما هو موجود فيها من معلومات عبارة عن إشارات بسيطة وغير وافية، وهذا ما صعّب من حصرها.

كما أن نظرة الفرنسيين إلى تاريخ الجزائر تخضع لمقياس معيّن وهو رفض الرؤية المنطقية للتاريخ، كما أن العسكريين الفرنسيين هم الذين وضعوا المواد الأولية لكتابة تاريخ الجزائر في الوقت الذي انعدمت فيه هذه المواد بالنسبة للأقلام الجزائرية، لذا كانت هذه المصادر في أغلبها من مؤلفات ومراسلات وتقارير متحيزة في أغلبيتها، لذا كانت نظرتهم لهذا التاريخ نظرة فرنسية محضة وهي في حدّ ذاتها امتداد للتاريخ الإستعماري.

غير أن المساهمة الفرنسية الضخمة بالنسبة لتاريخنا، وفي إطار إعادة تقييمها يمكن أن توصلنا إلى الحقيقة التاريخية التي نصبوا إليها ولكن بعد التمحيص والتقييم والتحليل، وحتى وإن كان هذا الإعتماد إعترافاً نسبياً لما قدمه الفرنسيون بالنسبة لتاريخنا، فإن الهدف أسمى وأرقى، وهو إزاحة الشوائب التي علقت بتاريخنا، وإخراج رموزه الوطنية إلى النور.

ومن ناحية أخرى فإن هذه المصادر شملت عدّة أصناف منها المحفوظات الأجنبية التي تضمنت تقارير ومراسلات هامة بالنسبة لفترة حكم الحاج أحمد باي ومقاومته للفرنسيين، ونظراً لتحيّز المعلومات الواردة كان لزاماً علينا وجوب الحذر في نقلها.

أما بالنسبة للمصادر المطبوعة فهي نوعان: الأول بالعربية والثاني باللغة الأجنبية، فبالنسبة للمصادر المكتوبة بالعربية ورغم أهميتها فهي قليلة ونادرة، منها مذكرات الحاج أحمد باي وكتاب المرآة لحمدان خوجة وكتاب قسنطينة أيام أحمد باي لشلوصر وهذه الندرة رفعتنا إلى الإستعانة بالمصادر الأجنبية قصد تكملة المعلومات عن الحاج أحمد باي إلى جانب معاصري الحاج أحمد باي والذين كتبوا عن تلك الفترة أمثال إميل فراند والدكتور بودان وجانتي دوبيسي وفلوري وغيرهم.

وعلى هذا الأساس كان موقفنا من المصادر الفرنسية حرجاً لأن عملية الإقتباس وأخذ ما يهم البحث من معلومات تتم بعد تروّ ومراجعة، وبالتالي فإن المعلومات الواردة في معظم هذه المؤلفات معادية للجزائر ولرموز مقاومتها، فكان

هدفها التشويه والتزييف طبقاً لما تمليه مصلحة الإستعمار الفرنسي.

ومع ذلك فإنها لم تتعرض له بالشكل الذي كنّا نظن إذ كان تركيزها على جوانب محدّدة فقط، أما المؤلفات العربية فإنها لم تعط الحاج أحمد باي ما يستحقه من شأن ولم ترفع من مكانته، بل اكتفت بإشارات بسيطة على أن هذه الشخصية مازالت مغمورة وتاريخها مطموس وهي بحاجة إلى دراسة أعمق.

أما بالنسبة للمقالات سواء بالعربية أو بالفرنسية، فإنها مفقودة تماماً من حيث المحتوى بالمقارنة لما قدّمه الحاج أحمد باي من تضحيات جسام من أجل وطنه الجزائر.

إن الحديث عن الحاج أحمد باي هو حديث عن الصمود الدائم والإرادة الحديدية والعزيمة التي لا تفل والزعامة المكرمة، وهذه بعض الصفات التي تميز بها رمز من رموز المقاومة الجزائرية قارع الإستعمار الفرنسي وصمد له قرابة ثمانية عشر سنة كاملة، وقد كان إلى هذا كله قائداً محنكاً ومنظماً كبيراً استطاع إقامة دولة بأتم معنى الكلمة لكنه لم يكتب لها الدوام وقد كانت حياته وأعماله موضع جهل العديد ولم تهتم به الأقلام سواء الجزائرية منها أو الأجنبية رغم اعتراف قادة جيوش فرنسا بصلابة عودة وكراهيته لهم منذ أن وطأت أقدامهم أرض الجزائر في جويلية 1830.

واختياري لموضوع الحاج أحمد باي كبحث لرسالتي **كان الهدف منه نفض الغبار الذي علق بهذه الشخصية والتعتيم الذي لحق بأعماله واللامبالاة التي ضربت على أنه ساهم بقدر كبير في بناء دولة ذات هياكل ومؤسسات. كما كان الهدف كذلك المساهمة بقدر وافر ومتواضع في إبراز دوره الفعال في المقاومة الوطنية التي دوّخت الإستعمار الفرنسي.** ونظراً لقلّة الدراسات حول هذه الشخصية، فإن هذا البحث يتطلب العمل الدؤوب والمتواصل لإيفائه حقه، واعتقادي أن هذا البحث هو محاولة جادّة وجديدة لدراسة سيرة هذا القائد الجزائري وإزاحة ما أمكن من الضباب الذي خيّم على جوانب حياته الإدارية منها والسياسية وكذا جانب المقاومة مستنداً في ذلك إلى الوثائق والمصادر الأجنبية لا سيما الفرنسية منها والعربية كذلك رغم ندرتها ثم بعض الكتب والمقاولات التي عالجت هذا الموضوع في بعض جوانبه.

غير أن المساهمة الفرنسية الضخمة بالنسبة لتاريخنا، وفي إطار إعادة تقييمها يمكن أن توصلنا إلى الحقيقة التاريخية التي نصبوا إليها بعد التمحيص والتعتيم والتحليل

وحتى وإن كان هذا الإعتماد إعترافا نسبياً لما قدمه الفرنسيون بالنسبة لتاريخنا، فإن الهدف أسمى وأرقى وهو إزاحة الشوائب التي علّقت بتاريخنا وإخراج رموزه إلى النور.

والظاهر أن الحاج أحمد باي عاش عصره واتخذ فيه مواقف واضحة، وبالتالي فهو شخص جدير بالدراسة لأنه صاحب موقف سواء إتفقنا معه في ذلك أو اختلفنا. أما الإنسان الذي عاش بدون حقيقة فهو الذي يستحق الإلغاء.

دولة بني مدرار بسجلماسة

ودور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري(*)

شنايت العيفة

بالرغم من أن المذهب الخارجي كان مشرقي النشأة، إلا أن مبادئ وآمال رجالاته لم تتجسد في واقع ملموس وهو تكوين الدولة الخارجية إلا على أرض المغرب الإسلامي. وقد تمثل ذلك في قيام امارتين خارجيتين، احداهما إباضية النزعة اتخذت من تيهرت بالمغرب الأوسط عاصمة لها، ونعني بها إمارة بني رستم، والثانية انتحلت الصفرية، وكانت مضاربها في سجلماسة باقليم تافيلالت من المغرب الأقصى، ونقصد بذلك إمارة بني مدرار التي أقام أول لبنة لها عيسى بن يزيد الأسود، وذلك سنة 140هـ / 757م، هذه الأخيرة التي حاولت أن أجعلها موضوعا لرسالتي كخطوة أولى على درب البحث التاريخي الطويل.

هذا ويرجع اختياري لهذا الموضوع إلى ثلاثة عوامل رئيسية، ويأتي في مقدمة هذه العوامل أن الدراسات التاريخية الجزائرية المتعلقة بالفترة الإسلامية غلب عليها الطابع المحلي والوطني، في وقت تسعى فيه شعوب هذا المغرب الكبير إلى الوحدة، لذلك وجهت اهتمامي إلى دراسة هذه الدولة التي كانت مواقعها في الجناح الغربي من وطننا المغربي الكبير.

أما ثاني هذه العوامل فمردّه إلى ما لهذه الدولة (موضوع الرسالة) من علاقات وطيدة كانت تربطها بالدولة الرستمية بوطننا المفدّي، وهي علاقة حبك خيوطها التقارب المذهبي، ووحدة المصير أمام الخطر الشيعي الفاطمي، الذي كان السبب في زوال الدولتين معا في آخر المطاف. وقد زادت المصاهرة بين الأسرتين الحاكمتين

(*) أطروحة ماجستير تقدم بها الطالب شنايت العيفة تحت إشراف الأستاذ د. موسى لقبال. نوقشت يوم 29-6-1991 بدرجة مشرف جداً وشارك في لجنة المناقشة الأساتذة عمار هلال رئيساً ومحمد بن عميرة وعبد العزيز فيلالي عضوين.

بسجلماسة وتيهرت من توثيق عرى هذه العلاقة التي أقلّ ما يقال فيها أنها كانت حسنة.

ويعود العامل الثالث إلى أن جلّ الدراسات حول سجلماسة بني مدرار ركّزت اهتمامها على الجانب السياسي ثم الجانب الاقتصادي بدرجة ثانية، بينما أهملت بصفة تكاد تكون كلية الجانب الفكري. كما أنها كتبت في معظمها بلغات أجنبية، وبأقلام استعمارية أحيانا فجاءت مزيفة متحاملة على الحقيقة التاريخية والموضوعية العلمية.

وشأني في هذه الرسالة هو شأن جلّ الطلبة ومريدي البحث من حيث الصعوبات التي تكتنف الدارس أو الباحث سيما إذا كان مبتدئا مثلي.

ومن جملة الصعوبات التي اعترتني على سبيل المثال لا الحصر، قلة المصادر حول الموضوع، وما هو موجود منها صعب المنال، نظرا لافتقار المكتبة الجزائرية إلى الكثير منها. ولا يخفى على أحد أن شق الطريق للوصول إليها يعتبر من باب المستحيل وذلك لعوامل لا داعي إلى الخوض فيها، فهي كالمعلوم من الدين بالضرورة.

ومما زاد في تعثري في إكمال هذه الرسالة في أقرب وقت وعلى أحسن وجه ما أعانيه من إرهاق نظرا لما أقوم به من مسؤوليات إدارية زيادة على التدريس بمعهد التاريخ، ونظرا لأسباب صحية وأسرية أخالها قاسما مشتركا في غالب الأحوال بين طلبة الدراسات العليا في بلادنا.

أمّا الجديد في هذه الرسالة فلا يكمن في طرق الموضوع في حد ذاته، إذ سبقتني إليه دراسات عامة وخاصة، بقدر ما يكمن في أنه أول عمل لنيل شهادة الماجيستير في هذا الموضوع بالذات وباللغة الوطنية. ثم أن الدراسات التي سبقت هذا البحث ركّزت على الجانب السياسي وأحيانا الاقتصادي، فأضفت إليها الجانب الفكري، هذا زيادة على ما في طيات الرسالة من آراء واستنتاجات شخصية خالفت فيها أحيانا آراء واستنتاجات من سبقوني.

هذا ولقد عنونت هذا البحث بـ «دولة بني مدرار بسجلماسة ودور تجارة القوافل في ازدهارها الحضاري بين القرنين الثاني والرابع الهجريين».

وقسمته إلى خمسة فصول ومقدمة وخاتمة وعرض للمصادر والمراجع المعوّل عليها.

فتحدثت في الفصل الأول عن الإطار الجغرافي لدولة بني مدرار بشقيه

الطبيعي والبشري، لا سيما ما تعلّق منه بالناحية الإجتماعية من حيث : أصل التسمية والموقع الجغرافي وأهميته والأصول الأولى لنشأة سجلماسة وعناصر السكان وفئاتهم الاجتماعية ونشاطهم الحرفي، ثم خطة سجلماسة ومظاهرة العمران بها.

أما الفصل الثاني فقصرته على الأوضاع السياسية الداخلية من حيث المراحل التاريخية التي مرّت بها وهي دور النشأة، ودور القوة، ودور الضعف، الذي سبق الزحف الشيعي الفاطمي، ثم الدور الفاطمي، وأخيرا دور الانبعاث الذي زالت دولة بني مدرار في اخره بعد أسر رائد هذا الدور وهو محمّد بن الفتح الملقب بالشاكر لله سنة 347هـ / 958م من طرف الفاطميين.

وخصصت الفصل الثالث للعلاقات الخارجية لدولة بني مدرار، فتحدثت في بدايته عن الخلفيات التاريخية المتمثلة في ثورات الصفرية على ولاة بني أمية بالمغرب الإسلامي خاصة في وقعتي (الإشراف) و (الأصنام) ثم تطرقت إلى العلاقات المدرارية الرستمية، فالمدرارية الفاطمية، ثم علاقة بني مدرار مع أدارسة فاس، ثم علاقتهم ببني أمية في الأندلس، وأخيرا مع الخلافة العباسية في المشرق.

وكان موضوع الفصل الرابع دراسة اقتصادية- تمحورت حول الفلاحة، والصناعة، ثم التجارة ومسالك القوافل التجارية خاصة بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي وأخيرا العملة وموارد الدولة.

وخلصت في الفصل الخامس إلى الحديث عن الناحية الفكرية فأشرت إلى المذاهب والفرق التي كانت تحتضنها سجلماسة ونوعية العلاقات التي كانت تكتنفها كما أشرت إلى العلم والعلماء الذين عرفتهم سجلماسة على عهد بني مدرار، وتحدثت عن المناظرات التي كانت تتم بين العلماء وبين رجالات المذاهب.

وأخيرا لا يفوتني أن أقدّم خالص شكري وامتناني لأستاذي الفاضل الدكتور موسى لقبال، لما كان له علي من أفضال، ولما أحاطني به من رعاية علمية سمت إلى درجة الأبوة، فلم يبخل علي يوما بالنصح والتوجيه والتحفيز، فجزاه الله عني وعن العلم كل خير.

أود أن أشير في هذا المضمار إلى أن المصادر الأصلية حول سجلماسة بني مدرار تكاد تكون في حكم المعدوم، إذ لا نملك أي مصدر كتبه علماء ورجالات المذهب الصفري في سجلماسة، وربما يرجع ذلك إلى عوامل الزمن التي قد يكون لها دخل في

افتقارنا إلى هذا النوع من المصادر وربما كانت الحروب المتعاقبة التي عرفتها المنطقة إحدى هذه العوامل.

وفي انتظار ما يسعفنا به المستقبل من امكانيات العثور على مصادر قريبة من الأحداث موضوع الرسالة، فإنني حاولت جهدي الاستفادة من المصادر الأخرى وهي متنوعة بين المصادر التاريخية والجغرافية وكتب الطبقات والتراجم، ومصنفات الملل والنحل الاسلامية.

أما المصادر التاريخية فقد قسمتها حسب مذاهب مؤلفيها إلى مصادر سنية، وشعبية، وخارجية إباضية.

ويأتي في مقدمة المصادر السنية المغربية كتاب أعمال الإعلام للسان الدين ابن الخطيب المتوفي سنة 776هـ / 1374م، فأفدت من الجزء الثالث منه، والذي نشره كل من ابراهيم الكتاني وأحمد مختار العبادي بعنوان (تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط). وقد وضع فيه صاحبه جردا لأمراء بني مدرار والأحداث التي شهدتها سجلماسة على عهدهم.

ومن المصادر الهامة أيضا كتاب (نقط العروس في تواريخ الخلفاء) لابن حزم، المتوفي سنة 456هـ / 1064م، وهو شبيه إلى حدّ ما بكتاب أعمال الاعلام، وقد نشره شوقي ضيف في مجلة كلية آداب جامعة القاهرة، كما نشره احسان عباس ضمن رسائل ابن حزم. وتتجلى أهمية هذا الكتاب في أنه كان سابقا لغيره في الحديث عن الشاكر لله آخر أمراء بني مدرار في تبنيه للمذهب السني واعتبره ابن خلدون مصدرا حول هذه النقطة بالذات.

وثالث المصادر المغربية السنية الهامة هو كتاب البيان المغرب لابن عذاري المراكشي الذي كان حيا في القرن السابع الهجري الموافق للثالث عشر الميلادي، وتكمن أهميته في أنه خلّد لنا مع عبر ابن خلدون الكثير من أخبار المؤلفين الذين سبقوهما، وما كنا لنعرفهم ولا لنعرف تصانيفهم لولا جهودهما.

مضافا إلى ذلك الكتب المشرقية كتاريخي الطبري وابن الأثير.

أما المصادر الشيعية فيتصدر قائمتها كتاب المجالس والمسايرات، للقاضي النعمان المتوفي سنة 363هـ / 973م. وقد حققه كل من الآنسة وداد القاضي وفرحات الدشراوي، وكذلك كتاب سيرة الحاجب جعفر محمد بن محمد اليماني، الذي كان

موجودا في أواخر القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي، وقام بنشر الكتاب (ايفانوف) في مجلة كلية آداب جامعة القاهرة أيضا. وترجع أهمية هذين المصدرين إلى كونهما ألّفا من طرف شاهدي عيان على تحركات عبيد الله المهدي وأبي عبد الله الشيعي منذ خروجهما من المشرق حتى قدومهما إلى أرض المغرب.

وينفرد كتاب سيرة الحاجب جعفر بالإشارة إلى تواجد المذهب الشيعي بسجلماسة حتى قبل وصول المهدي إليها.

كما استعنت بأخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لابن حماد الصنهاجي و (عيون الأخبار) لعماد الدين إدريس. والدواداري في كتابه (كنز الدرر وجامع الغرر)، لا سيما الجزء السادس من الكتاب، والذي يحمل عنوان (الدرر المضية في أخبار الدولة الفاطمية) بالإضافة إلى المقريزي، المتوفي سنة 845هـ / 1442م في كتابه اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.

أما المصادر الخارجية عموما فيأتي في مقدمتها كتاب (الكامل)[1] لأبي العباس المبرّد الذي لا يخلو من فائدة في أخبار الخوارج، لا سيما أشعارهم ومراسلاتهم بالإضافة إلى ابن عبد الحكم المتوفي سنة 257 هـ / 870م الذي يعتبر كتابه فتوح مصر والمغرب أقدم مصدر لثورات الخوارج الصفرية.

وأفدت من المصادر الخارجية الإباضية أيضا وفي مقدمتها عمدة المصادر الرستمية أخبار الأئمة الرستميين لابن الصغير الذي كان حيا بين سنتي 261 ـ 281هـ / 874 ـ 894م على أيام الإمام الرستمي اليقظان بن أفلح، وقد نشر الكتاب موتيلينسكي ضمن أعمال المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين المنعقد بالجزائر سنة 1905، وأعاد نشره كل من الدكتور محمد ناصر والأستاذ ابراهيم بحاز في طبعة محققة.

ووجدت في سير أبي زكريا الذي كان حيا خلال القرن الخامس الهجري، الموافق للحادي عشر الميلادي، وفي طبقات الدرجيني والذي توفي بعد 650هـ / 1252م ضالتي في العثور على بعض الاعلام الإباضية الذين نالوا قسطا من العلم بسجلماسة كابن الجمع وابن زرقون وغيرهما.

يضاف إلى ذلك كتب الطبقات والتراجم، وهي مكملة للمصادر التاريخية، نظراً لما تسلطه من أضواء على الشخصيات الواردة في البحث،

سواء كانت موضوع الدراسة أو جاءت عرضاً في سياق الكلام ومنها كتاب (طبقات علماء افريقية) لأبي العرب تميم، المتوفي سنة 333 هـ 944 م، و(رياض النفوس) المالكي، وهو من مؤرخي المغرب في القرن الخامس الهجري ـ 11 م، و(ترتيب المدارك) للقاضي عياض اليحصبي، الموفي سنة 544 هـ ـ 1149 م. وأخص بالذكر منها كتابي (الصلة) لابن بشكوال الخزرجي، المتوفى سنة 578 هـ ـ 1183 م. و(تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس) لابن الفرضي، المتوفي سنة 403 هـ ـ 1013 م فقد ترجما لبعض الأعلام كعيسى بن سعادة الفقيه وعساس الزاهد، وهما من علماء سجلماسة الذين لعبوا دوراً في الحياة العلمية بين الأندلس وسجلماسة بني مدرار. هذا عدا كتب الطبقات الإباضية التي سبق وذكرتها مع المصادر التاريخية كالدرجيني وأبي زكريا.

هذا دون أن ننسى المصادر الجغرافية وكتب الرحلات وتتأتى أهميتها في أنها ـ زيادة على قيمتها في تحديد المواقع ـ فإنها جاءت حافلة بالحديث عن الحياة الاقتصادية، لا سيما التجارية منها، كما أنها لا تخلو من فائدة تاريخية. ولعل من أهم هذه المصادر كتاب (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب) وهو من تأليف أبي عبيد الله البكري، المتوفي سنة 487هـ / 1094م، وقد تتبع فيه صاحبه تسلسل الأمراء المدراريين بدءا بعهد عيسى بن يزيد وانتهاء بعهد محمد بن الفتح الشاكر لله.

وأفدت من الشريف الإدريسي، المتوفي سنة 560هـ / 1164م في كتابه (نزهة المشتاق)، وقد جمع كل من اسماعيل العربي وهنري بريس ما يتعلق بإفريقية والأندلس من الكتاب في مؤلفين، الأول أسماه (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)، والثاني أسماه بـ (وصف افريقية الشمالية والصحراوية). وتبرز أهمية كتاب (نزهة المشتاق) في كونه يكشف النقاب عن المسالك وطرق القوافل التجارية الرابطة بين سجلماسة وبعض مواقع المغرب الإسلامي، وبين سجلماسة ومراكز التجارة في بلاد السودان الغربي. وفي (تحفة النظار) لابن بطوطة المتوفي سنة 779هـ / 1377م نجد الطريقة التي كان يستعين بها التجار في ادخار الماء لوقت الحاجة واستعمال الجمال المصبّرة على العطش لهذا الغرض، كما نجد الوسيلة التي يلجأ إليها التجار حتى يضمنوا لأنفسهم أكبر قدر من الراحة والأمن. وكانت قبيلة مسوفة خير من يقدم خدمات للتجار في هذا المجال.

وينفرد صاحب كتاب (الاستبصار في عجائب الأمصار) وهو من أحياء القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي بذكر يهود سجلماسة ومكانتهم الاقتصادية وعلاقاتهم بالفاطميين عندما دكّت جيوش عبيد الله أرض سجلماسة.

ولكتاب (الروض المعطار في خبر الأقطار) لعبد المنعم الحميري، المتوفي في أواخر القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الخامس عشر الميلادي، أهمية في التعرف على العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين سجلماسة والأندلس.

ولعلّ الأهمية المشتركة في كل هذه المصادر الجغرافية السابقة الذكر تتأتى من كون أصحابها مغاربة وهم أدرى بالمنطقة من غيرهم.

ومن المصادر الجغرافية المشرقية الهامة كتاب (صورة الأرض) لابن حوقل النصيبي، المتوفي بعد سنة 367هـ / 977م، وتتجلّى هذه الأهمية في كون المؤلف زار المنطقة بما فيها سجلماسة وأودغست ووصفها وصفا دقيقا، وفي حدود علمنا فإنه أول من تحدث عن التعامل بالصكوك في سجلماسة وأودغست من طرف التجار.

ويضاف إلى كل ما سبق مصادر أخرى حاولت الإفادة منها كـ (معجم البلدان) لياقوت الحموي، المتوفي سنة 626هـ / 1229م، و (وصف إفريقيا) للحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي، المتوفي نحو سنة 257هـ / 1550م، وكتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدسي، المتوفي سنة 387هـ / 997م، و (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار) لابن فضل الله العمري، المتوفي سنة 749هـ / 1349م، و (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) للدمشقي، المتوفي سنة 728هـ / 1327م، و (تحفه الألباب) لأبي حامد الغرناطي.

بجانب هذه المصادر الأساسية هناك مراجع حديثة باللغة العربية وهي كثيرة وتأتي قيمتها العلمية في كونها من الكتب التي ألّفها المتخصصون في (المغرب الإسلامي) وجاءت مشبّعة بالتحليل والتوثيق، كما مكنتني من الإستفادة من الكثير من المصادر التي نقلت عنها ولم يسعفني الحظ في العثور عليها.

فقد استفدت من كتب أستاذي الجليل موسى لقبال، كـ (دور كتامة في الخلافة الفاطمية) لا سيما في القسم الخاص بكتامة وحركة التوسع السياسي، والصراع المذهبي منذ قيام الخلافة الفاطمية حتى أواخر القرن الرابع بعد الهجرة،

وكذلك (الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي) و (المغرب الإسلامي).

وأفادني أيضا كتاب الأستاذ عبد العزيز فيلالي (العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب) في التعرف على نوعية العلاقات التي كانت قائمة بين أمويي الأندلس وبني مدرار أصحاب سجلماسة. ونفس الإفادة نلتها من كتاب (العلاقات الخارجية للدولة الرستمية) لجودت عبد الكريم يوسف، وفيه حديث عن العلاقات بين بني رستم في تيهرت وبني مدرار في سجلماسة. ولا نغفل أيضا كتاب (الخوارج في المغرب الإسلامي) لمحمود اسماعيل، والذي احتوى على دراسة شاملة عن الخوارج الإباضية والصفرية في بلاد المغرب قبل وبعد قيام الدولتين الرستمية والمدرارية.

بالإضافة إلى كتابي علي إبراهيم طرخان: (امبراطورية غانة الإسلامية)، و (دولة مالي الإسلامية).

هذا وتكمن مراجع الرسالة بالمصادر العامة المساعدة على البحث وهي تختلف بين كتب اللغة كـ (لسان العرب) لابن منظور، و(تاج العروس) للزبيدي، وغيرهما. وقد أفادتني في فهم الكثير من الكلمات الغامضة في تعابير مؤرخي وجغرافي العصور الإسلامية.

كما أفدت من كتب الملل والنحل في التعرف على الفرق الإسلامية ومبادئها مثل الفصل في الملل والنحل، لابن حزم الظاهري، والملل والنحل للشهرستاني، والفرق بين الفرق للبغدادي.

وأرشدتني كتب الفقه والنوازل مثل كتاب (المعيار) للونشريسي إلى التعرف على القضايا الفقهية التي كانت تعرض للمجتمع وفصل فيها العلماء المغاربة.

وأخيرا لا نغفل الكثير من المقالات سواء المنشورة في دوائر المعارف أو في المجلات والدوريات المتخصصة والعامة، وأخص بالحديث عنها دائرة المعارف الإسلامية ومجلة كلية آداب جامعة القاهرة وحوليات الجامعة التونسية ومجلتي الأصالة والثقافة الجزائريتين.

وكذلك المراجع الأجنبية، وإن كانت لا تخلو من فائدة جمة لا سيما في الجانب الإقتصادي وخاصة تجارة بلاد المغرب مع السودان الغربي، إلا أنها في جانبها السياسي كانت متحاملة كثيرا على الفترة في بلاد المغرب، لدرجة أن بعضها اعتبر

هذه الفترة فترة (ظلام) مثل غوتي، الذي عنون كتابه بـ

– Le passé de l'Afrique du Nord les siècle obscurs

فقد نعت هذه الفترة بالقرون المظلمة.

كما ركزت هذه الكتب على الثورات التي قام بها الخوارج وأن هذه الثورات تشبه إلى حد بعيد الحركة الدوناتية التي قام بها البربر وعلى رأسهم القديس سانت أوغسطين ببلاد المغرب أيام الإحتلال الروماني، زاعمين أن البربر ثاروا ضد الوجود العربي والإسلامي.

وعلى كل فقد رجعت إلى غوتي في كتابه السابق الذكر وإلى شارل أندري جوليان في كتابه (تاريخ إفريقيا الشمالية) وإلى ليفي بروفنصال في مؤلفه (تاريخ إسبانيا الإسلامية) وجورج مارسي في مصنفه (بلاد البربر الإسلامية والشرق الإسلامي في العصور الوسطى) وإلى مالك كول في كتابه (الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة)، مضافا إلى ذلك كله المقالات المنشورة في دائرة المعارف الإسلامية والدوريات التاريخية.

(1) بالرغم من أن الكتابين من تأليف المشارقة وهما ليسا خاصين بالحديث عن الخوارج إلا أنني ارتأيت أن أدرجها ضمن قائمة المصادر الخارجية نظرا لأهميتها في هذا المجال.

الإصلاحات السيفيرية في بلاد المغرب القديم(*)
(193 ـ 235 م)

تسعديت رمضان

يعود اختياري لهذا الموضوع لعدة اعتبارات يمكن إيجازها فيما يلي:

1 ـ كانت الامبراطورية الرومانية قد بلغت أوج إتساعها وأزهى عصورها في عهد هذه العائلة المغاربية الجذور التي ساهمت مساهمة فعّالة في إثراء السجل الحضاري الروماني.

2 ـ كان ذلك الاتساع والازدهار وراء العديد من الدراسات التي خُصصت للعائلة السيفيرية، لكن المحير هو اهتمام أصحاب تلك الدراسات بأعمال السيفيريين في ولايات الدانوب وولايات الشرق الروماني الموطن الأصلي ليوليا دومنا زوجة الأمبراطور التي لا شك أنها لعبت دوراً فعّالاً في إحداث إزدواجية في النمط الحضاري الذي يُنسب لهذه الأسرة، والاشكال بالنسبة لنا يكمن في سبب إهمال هؤلاء الدارسين للمنطقة المغاربية الموطن الأصلي للأمبراطور صاحب تلك الأعمال، وهو ما يحتم علينا نحن أبناء المنطقة الاضطلاع بهذه المهمة المتمثلة في ضرورة البحث في تاريخنا والغوص في أغواره لاستجلاء حقائقه.

(*) رسالة ماجستير في التاريخ القديم نوقشت يوم 18 افريل 1992. نالت على إثرها صاحبتها درجة مشرف جداً. وكانت لجنة المناقشة تتشكل من:
ـ الدكتور عبد القادر بوعيزم ـ رئيساً.
ـ الدكتور محمد الصغير غانم ـ مقرراً.
ـ الدكتور مصطفى فيلاح ـ عضواً.
ـ الدكتور محمد البشير شنيتي ـ عضواً.
ـ الدكتور محمد الظاهر عدواني ـ عضواً.

ومهما يكن فإننا لا نخفي سراً، إذا قلنا أن هذه المهمة تحمل في ثناياها الكثير من الصعاب أهمها قلة المصادر التي يعول عليها وكثرة التناقضات بها، وهو ما يتطلب منا بدون شك يقظة عند تناولها، مما يصعب مهامنا، ونحن في هذه المرحلة من الدراسة التي تعوزنا فيها التجربة.

لكن هذا ليس معناه أننا لا نجد ما نستمده من هذه الكتابات، بل العكس، ربما لا نحيد عن الصواب، إذا قلنا أنه لا يوجد كاتب إغريقي أو لاتيني إلا ونجد عنده من الأخبار، ما يمكن الاستفادة منها، وبالمقابل كل هذه الأخبار مبعثرة في المؤلفات العديدة والشذرات.

ومن أهم المصادر التي ساعدتنا على إنجاز هذه الدراسة يمكن الإشارة إلى دبون كاسبوس، الذي يعتبر مُؤَلِّفَهُ أشمل الدراسات حول العائلة السيفيرية، وهو الذي عاصر أحداث تلك الأسرة وكان عضواً في مجلس الشيوخ في إحدى فتراتها، فيكون بذلك من وجهة نظرنا لا معاصراً للأحداث فحسب، بل مشاركاً في صُنعها في بعض الحالات، وهذا ربما شأنُ هيروديانوس الذي ركّز خاصة على الأحداث العسكرية في مختلف عهود هذه العائلة، شأنه شأن كتابات زوزيم.

أما كتابات المشرع أولبيانوس فهي ذات أهمية في الجوانب الاجتماعية وقد كان أحد العناصر البارزة في المجلس الأمبراطوري الذي استحدثه سيفيروس ولذلك لا شك أنه كان عنصراً فاعلاً ومُوثراً في كل قوانين ذلك العصر، كما استفدنا أيضاً في هذا المجال من قانون يوستينيانوس.

أما كتابات ترنوليانوس فلا نَخفي أهميتها على أحد في المجال الديني، سواءً المعتقدات الوثنية منها أو المسيحية، وإن كان متشبعاً بهذه الأخيرة مما يجعله ينفر من الأولى ويصف مواقف أصحابها بشتى الأوصاف، كما لا يمكننا أن نهمل ذكر أصحاب التراجم، مثل سبارتيانوس الذي تناول سيرة ثلاثة من أباطرة العائلة، بُدءاً من لوكيوس سبتميوس سيفيروس إلى الامبراطور جيتا، وكذا شأن لامبريديوس الذي ترجم لنا حياة هليوجابالوس والاسكندر سيفيروس.

أما كتاب حياة القياصرة لفيكتور أوربليوس فلم نستفد منه كثيراً، نظراً لعمومياته بالقياس إلى كتاب التراجم الآخرين، وهو شأن فلافيوس أتروبيوس في كتابه مختصر تاريخ الرومان.

أما بخصوص المراجع التي أفادتنا كثيراً في هذا البحث، فلا يمكننا أن نغفل ذكر الدراسات الأكاديمية التي خصصت لحياة وحكم الأمبراطور سيفيروس التي منها أطروحة كلينير حول حياة وحكم سيفيروس التي قدمها في جامعة لياج سنة 1874 م، وكذا أعمال:

(1) De Ceuleneer A. Essai sur la vie et le règne de septime - sévère (Liège 1874).

(2) Birley A. Septimuis Sevenus, The African Emperor (Londres) 1971.

(3) Platnaner M. The Life and the reign of the emperor. Luciens septimuis severus (Oxford 1918).

ومن بين الدراسات الهامة التي اعتنت بالعائلة السيفيرية نذكر:

Forget de Dorme H. Les Césars Africains et Syriens et l'anarchie militaire (Angers 1905).

وإن كان قد ركّز في دراسته على الجوانب العسكرية.

أما أطروحة جاردي التي قدمها في كلية الآداب جامعة تولوز سنة 1925 والمعنونة:

Jardé (A), Etudes critiques sur la vie et le règne de sevère - Alexandre (Toulouse 1925)

فكانت فائدتها عظيمة بالنسبة لنا خاصة فيما يتعلق بالجوانب الإدارية، وفي نفس المجال دائماً يمكننا ذكر لامبرخت الذي قام بدراسة قيمة حول تشكيلة مجلس الشيوخ الروماني منذ عهد السيفيريين وهو ما مكننا من التعرف على التغيرات التي عرفها هذا المجلس في تلك الفترة.

كما نذكر أيضاً الكاتب بسينيه الذي خصّ الامبراطورية الرومانية بدراسة منذ عهد السيفيريين إلى مجمع نيقيا. وهي دراسة شاملة مفصلة تناولت مختلف جوانب ذلك العصر.

وأخيراً أشير إلى دراسة لاسير حول السكان، والحركة السكانية في افريقيا الرومانية (146ـ235م)، وكذا دراسة ماركواردت حول الأنظمة المالية في الامبراطورية الرومانية.

ونظراً لطبيعة البحث فقد قسمته إلى مدخل وثلاثة أقسام: تناولت في المدخل أواخر عهد الأنطونيين والظروف الممهدة لاعتلاء سيفيروس عرش الامبراطورية الرومانية، وخصصت القسم الأول من الدراسة للاصلاحات العسكرية والإدارية التي استحدثها السيفيريون مقسمة اياه إلى فصلين استعرضت في الفصل الأول التغييرات التي أحدثوها في التركيبة البشرية، والأعمال العسكرية التي مدوا خلالها خطوط اللبمس إلى أبعد نقطة وصلت إليها الامبراطورية الرومانية مع التعرض إلى ردود الفعل المحلية، بينما درست في الفصل الثاني التنظيمات الإدارية، مستعرضة موقف السيفيريين من مجلس الشيوخ الذين عملوا على الحد من صلاحياته، والاعتماد على المجلس الامبراطوري الذي سيضطّلع بالمهام الكبرى في الامبراطورية دون أن أنسى التعرض إلى الحقوق الإيطالية التي منحها سيفيروس لبعض المدن المغاربية وكذا مرسوم كراكلا.

أما القسم الثاني فقد عالجت فيه الاصلاحات الاجتماعية والدينية، حيث قسمته بدوره إلى فصلين، شكلت التنظيمات الاجتماعية محتوى الفصل الأول، بينما تطرقت في الفصل الثاني للجانب الديني، الذي بينت فيه مختلف المعتقدات الوثنية في بلاد المغرب حتى ظهور المسيحية وموقف السيفيريين منها، وكانت الحياة الاقتصادية والمالية موضوع القسم الثالث الذي قسمته إلى فصلين: عنيت في الفصل الأول منه بالجانب الاقتصادي، حيث تتبعت بالدراسة والتحليل أهم الأنشطة الاقتصادية مولية عناية خاصة للنشاط الزراعي باعتباره المورد الأساسي دون إهمال النشاط التجاري والصناعي، بينما حاولت استجلاء مستجدات المجال المالي في الفصل الثاني، مبينة فيه أهم المداخيل بما فيها الضرائب المباشرة وغير المباشرة خصوصاً التي استحدثها السيفيريون، وكذا إدارة وجباية الضرائب دون إهمال استعراض مصاريف الدولة.[1]

وأنهيت البحث بخاتمة استعرضت فيها ما بدا لي مهماً من نتائج بعد تحليل كل المعطيات التي عثرت عليها سواء ما تعلق منها بالنصوص الأدبية أو بما ورد في تقارير الدراسات الميدانية المنشورة في العدد من الدوريات المتخصصة ويمكن تلخيصها فيما يلي:

1 ـ إدراك سيفيروس لمكانة الجيش في إحداث الامبراطورية، جعله يركز على الجانب العسكري في إصلاحاته، ويتمثل ذلك في الامتيازات التي منحها للجند بالإضافة إلى تغيير نظم وطرق التجنيد، وساعده اعتماده على الجيش في توسيع المجال الحيوي للأمبراطورية الرومانية وهي العملية التي تطلبت جهوداً كبيرة لا للحفاظ على المناطق التي وصلوا إليها فحسب بل وأيضاً على استغلالها، وهذا ما دفع بالسيفيرين في بلاد المغرب إلى استحكام الخطوط الدفاعية بمد خطوط الليمس إلى أقصاها وتكوين مستوطنات وبلديات وفي آخر عهدهم لجأ الاسكندر سيفيروس إلى سياسة استيطانية عسكرية بتوزيع الأراضي على جنوده في المناطق الحدودية وبذلك يكون الاسكندر سيفيروس قد ضرب عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل، ذلك أنه جعل هؤلاء العساكر يستغلون هذه الأراضي ويدافعون عنها في نفس الوقت.

2 ـ اعتماد سيفيروس على الجيش وتخلى مجلس الشيوخ عنه في صراعه ضد أبينوس، جعله يعمل على تصفية أعضاء هذا المجلس والحد من صلاحياته، والاعتماد على المجلس الأمبراطوري الذي زوّده بمشرعين كبار كان لهم تأثيراً كبيراً على قوانين ذلك العصر، بالإضافة إلى اعتماده على الولايات في إدارة شؤون الامبراطورية، جعل البعض يرد في ذلك محاولة لتخليص النفوذ السياسي لايطاليا خاصة بعد محاولة خلق توازن في مجلس الشيوخ، لكن هل كانت تلك هي وجهة سيفيروس؟ أم كان ينظر للأمبراطورية الرومانية على أنها امبراطورية عالمية يجب أن تكون مفتوحة للجميع للمشاركة في إدارتها؟ فرضية قد تكون سابقة لأوانها لكنها مطروحة.

إذا كان سيفيروس قد أقدم على منح حقوق المواطنة الإيطالية لبعض المدن المغاربية. وهي الحقوق التي تعفى هذه المدن من دفع بعض الضرائب فإن كراكلا قد أقدم على خطوة أكثر جرأة تتمثل في اصداره المرسوم يعطي بموجبه حقوق المواطنة الرومانية لكل أحرار الامبراطورية.

3 ـ عرفت الفترة السيفيرية صراعاً طبقياً حاداً بين الطبقة الارستقراطية وطبقة الفرسان المدعمة من طرف السلطة التي عملت على كسر شوكة الطبقة الأولى، بهدف الحفاظ على التوازن، كما عرفت الطبقة العامة انتعاشاً بفضل التشريعات المتعاقبة خلال هذه الفترة التي اتسمت بالعطف والتسامح تجاه الطبقات

الدنيا، وكذا برنامج سيفيروس الإصلاحي الذي وضعه لحماية الفلاحين والتجار ومحاربته لظاهرة نقص السكان، هؤلاء السكان الذين ظلت وضعيتهم متباينة من وجهة نظر القانون قبل صدور مرسوم كراكلا الذي يتفق جميع المؤرخين على أنه أفقد الطبقة الارستقراطية مكانتها بانتزاع منها أحد عناصر قوتها بإفراغه حق المواطنة من محتواها.

4 ـ إذا كانت دراسة المعتقدات الوثنية في بلاد المغرب قد مكنتنا من التعرف على وجود معتقدات محلية عريقة سابقة لقدوم الملاحين الفينيقيين، فإننا وجدنا فرشة أخرى من معتقدات شرقية، قدمت إلى بلاد المغرب بقدوم هؤلاء الفينيقيين، والأهم من كل هذا أن المعتقدات الوثنية الرومانية لم تجد لها أرضية في بلاد المغرب باستثناء الألهة التي احتفظت بروحها المحلية وان تغيرت أسماءها مثل ساتورنوس الذي خلف «بعل حمون» والألهة كايلستيس التي خلفت تانيت».

كانت الطرق التي سلكتها المسيحية في الانتشار في بلاد المغرب محل نقاش طويل بين المختصين في الدراسات المسيحية، غير أنه واضح في هذا النقاش نوعاً من الاجماع على الدور الذي لعبه التجار الشرقيون في نقل الدين الجديد إلى المدن الساحلية الكبرى كقرطاجة، التي تسللت منها المسيحية إلى المدن الداخلية في فترات التسامح، كما حدث في عهد سيفيروس الذي سهّل بموقفه المتسامح مع المسيحيين انتشار هذه الديانة قبل انقلابه عليهم فيما بعد. غير أن عودة التسامح في عهد خلفائه كان قد مكّن المسيحية من الانتشار في صفوف الطبقات الشعبية التي وجدت فيها بغيتها الروحية وطموحها الاجتماعي وهما أمران لم تتوفر عليهما الديانة الرومانية الرسمية التي عجزت عن تحقيق الوئام الاجتماعي.

5 ـ وفي المجال الاقتصادي يجمع المؤرخون على أن الحياة الاقتصادية في عهد السيفيريين قد حظيت بعناية كبيرة لدرجة أن الكثير منهم اعتبر هذه الفترة أزهى فترات تاريخ الأمبراطورية الرومانية ويكون الرخاء في نظرهم قد عم المنطقة. والواقع أن المتتبع للسياسة السيفيرية في المنطقة في المجال الفلاحي يدرك فعلاً توسعاً في الخريطة الزراعية لدرجة أنها شملت حتى الأراضي الرعوية، غير أن ذلك كان على حساب الأهالي، وبالتالي يمكننا القول أن الرخاء كان ظاهرياً ورخاءً رومانياً،

وإن عمليات تشجيع إحياء أراضي البور وأراضي المستنقعات التي طبقها السيفيريون بإعفاء مستصلحيها من الضرائب لمدة عشر سنوات، كان الهدف منها الاستجابة لحاجة التموين المتزايدة ، وهو أيضاً شأن عمليات توزيع الأراضي على الجنود التي قام بها الاسكندر سيفيروس في مناطق الليمس. كما ان التوسع في زراعة الزيتون والكروم التي بلغت أوجها في عهد السيفيريين لم تقلص المساحات المخصصة للقمح، إنما حدث ذلك على حساب أرض جديدة استغلت على حساب الأهالي.

طغيان النشاط الفلاحي في افريقيا حجب عنها باقي الأنشطة لا سيما النشاط الصناعي الذي قد نجانب الصواب إذا حكمنا بغيابه نتيجة سكوت المصادر المعاصرة عن ذلك.

إذا كان من المتفق عليه أن العلاقات التجارية بين المنطقة المغاربية وروما علاقات قديمة جداً فإنه يمكن القول أيضا أن الرومان بعد دخولهم الى المنطقة قد عملوا على تهيئة الشروط الضرورية لا للحفاظ على استمرار ذلك التبادل فقط، وانما لتحسينه ومضاعفاته وفقاً لاحتياجات روما إلى منتجات المنطقة، ولذلك رممت بعض الموانئ القديمة ووسعت أخرى، وربطت مناطق الانتاج والتصدير بشبكة من الطرق وهو ما أدى إلى تضاعف صادرات بلاد المغرب نحو روَما.

وفي مجال الجباية أخضع الرومان بلاد المغرب القديم لنظام جبائي متعدد الوجوه منذ سقوط قرطاجة 146 ق.م، وكلما اتسع المجال الجغرافي للاستيطان في بلاد المغرب كلما ازدادت حاجة الدولة الرومانية إلى مصادر مالية جديدة، نتيجة تزايد حاجتها الدفاعية، وطبيعي أن تزداد تلك الحاجات في عهد السيفيريين الذين مدوا الحدود إلى أقصاها وبالتالي لم يقوموا برفع الضرائب فحسب بل أوجدوا ضرائب جديدة ذات الأثر البعيد: كضريبة التموين العسكري أضف إلى ذلك مرسوم «كراكلا» الذي اعتبره ديون كاسيوس وسيلة لرفع مداخيل خزينة الدولة.

ورغم تعدد مصادر الدخل في بلاد المغرب في عهد السيفيريين فقد ظلت المداخيل قليلة بالمقارنة مع النفقات. فمن جهة نلاحظ اتساع الامبراطورية وما يقتضيه ذلك من تجنيد الامكانيات للدفاع، ومن جهة أخرى كثرة المنشآت والانجازات في غالبية المدن الافريقية في فترة هؤلاء الأباطرة إذ قلما نجد مدينة لا نجد فيها ما يشهد على مرور السيفيريين.

التوسع العسكري المقدوني
من خلال حملة الاسكندر الثالث على الشرق(*)

إبراهيم بشي

يعتمد هذا البحث أساساً على المصادر الأولية المتوفرة في مكتبات الجزائر وفرنسا ومصر والعراق وتونس وطرابلس (ليبيا)، وهي من حيث المعلومات متشابهة في محتواها العلمي. يضاف إلى ذلك أن معظمها قديم لا يُعار تخشى المكتبات عليها من التلف. ومعظمها غير موضوعية، إذ يغلب على إشاراتها الطابع الأدبي الانطباعي الذي لا يخلو من المدح المبالغ فيه، كما أنها تفتقد المنهجية في التهميش وذكر «مكان وتاريخ الطبع» وهذا ربما يرجع أيضاً إلى روح العصر الذي ظهر فيه الاسكندر حيث اختفت معظم الكتابات المتطورة مثل السومرية والهيروغلفية.

أما الدوريات الحديثة فنجد معظمها يميل إلى البحث والتنقيب عن الموضوعات الأثرية والأدبية الطريقة دون الاهتمام بالجانب العسكري الذي غلب مسيرة الاسكندر وحملته التوسعية على بلاد الشرق، كما تناولته معظم هذه الدوريات على أنه رجل فكر، وأن انتصاراته الحربية ما هي إلا خلاصة ونتيجة لنضج فكري تميز به الاسكندر عن غيره. رغم أنه كان رجل حرب فقد انتصر فيها

(*) رسالة ماجستير في التاريخ القديم، تقدم بها الطالب إبراهيم بشي بمعهد التاريخ، جامعة الجزائر، أمام لجنة علمية مؤلفة من:

- د. محمد البشير شنيتي ـ رئيساً.
- د. فوزي رشيد محمد ـ مقرراً.
- د. أحمد السليماني ـ مقرراً.
- د. شافية شارن ـ مقررة.

وتحصل بها صاحبها على درجة مشرف جداً بتاريخ 25ـ11ـ1992.

على الامبراطورية الفارسية التي كانت خاضعة لها معظم بلاد الشرق، كما صاحب ذلك تذمر شعوب تلك المناطق من حكم الأقلية الفارسية، مما ساعد على تهيئة الظروف المناسبة للتوسع المقدوني وبروز قوة الاسكندر العسكرية أكثر إذ ظهر في صورة البطل المنقذ الفاتح لتلك المناطق التي عانت من الحكومات الخاصة الموالية للفرس. رغم أنه كان غازياً وسفاكاً للدماء ونهب أموال وخيرات بلاد الشرق الوفيرة وأخذ أكثر مما قدم لها.

بالإضافة الى أن الجزء الأكبر من هذا البحث اعتمد على مصادر ومراجع أجنبية من انجليزية وفرنسية، وألمانية، التي لاقيت أشد المعاناة في ترجمتها، كما حاولت أن أكون حريصاً وأميناً في نقل معنى ومضمون النصوص، زد على ذلك صعوبة العثور على أسماء الاعلام القديمة جداً، وخاصة الفرق العسكرية، في الموسوعات الحديثة لأعطاء نبذة عنها.

أما تحديد الإطار الزمني الذي يهدف البحث إلى تغطيته فكانت بداية من سنة 336 ق.م وهي بداية تفرضها طبيعة الموضوع نفسه لأن هذه السنة هي التي تقلد فيها الاسكندر الحكم وراثياً بعد مقتل والده «فيليب الثاني» المقدوني.

أما نهاية البحث التي هي سنة 323 ق.م أي العام الذي توفي فيه الاسكندر عن عمر يناهز الثلاثة والثلاثين سنة فقد دام حكمه اثني عشر سنة.

وأما اسم صانع أهم أحداثه هو الاسكندر أو الاسكندروس (Alexandros) وهذا الاسم يعني بالاغريقية حامي الانسانية، وهو اسم مشهور بين الأمراء الاغريق في القديم.

ومن المحتمل أن يكون له اسم آخر، لأن ربما هذا لقب للأسكندر وليس هو أسمه الحقيقي، رغم أنه عرف بهذا الاسم الذي ورد في معظم إشارات المصادر والمراجع المقربة منه أي الاسكندر المقدوني أو الاسكندر الأكبر.

وأما هيكل البحث فيحتوي على تحليل لأهم المصادر، ومدخل وأربعة فصول وخاتمة، وملاحق، وفهارس للأعلام والأماكن.

وقد خصصت تحليلاً لأهم المصادر التي اهتمت بتوسعات الأسكندر في بلاد الشرق والتي عاصرته، أو كانت قريبة منه زماناً ومكاناً، ومدخلاً للأوضاع العامة لبلاد الاغريق تحت زعامة مقدونيا قبل بداية التوسع المقدوني، في عهد

الاسكندر أي في عهد والده فيليب الثاني، بغية اعطاء فكرة عن موقع مقدونيا وأوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى أن ظهر الاسكندر وأعتلى العرش المقدوني، ثم تولت انتصاراته وتوسعاته على المدن الاغريقية المعارضة له إلى غاية بداية اعداد حملته التوسعية على فارس، ثم توضيح لقب ذي القرنين الذي ورد ذكرها في القرآن الكريم انطلاقاً من أقوال المؤرخين الاخباريين العرب.

أما الفصول الأربعة، التي تضمنها البحث كانت كالتالي :

فقد خصصت الفصل الأول لشخصية الاسكندر المقدوني واستعداداته للتوسع من خلال نبذة عن حياته، مولده ثم نشأته، ثقافته التي أثرت في بناء شخصيته وطموحاته وآرائه في الحياة هذا بالإضافة إلى استعداداته وتنظيماته العسكرية التي شاركت في حملته التوسعية على بلاد الشرق.

في حين تضمن الفصل الثاني، التوسع المقدوني من خلال حملة الاسكندر على آسيا الصغرى وسوريا ومصر.

أما الفصل الثالث: فقد تضمن حملة الاسكندر التوسعية على آسيا الكبرى في بلاد فارس، وقد تلاه الفصل الرابع والأخير الذي اشتمل على التوسع المقدوني من خلال حملة الاسكندر على الهند وتوقفه وعودته من الهند إلى بابل ووفاته المبكرة.

مع الملاحظة أن كل فصل يشتمل على عدة عناوين فرعية.

أما الخاتمة فكانت ملخصاً شاملاً لمسيرة حملة الاسكندر التوسعية على بلاد الشرق والنتائج التي توصل إليها البحث عبر فصوله الأربعة.

بالإضافة إلى هذا التقسيم أدرجت ملحقاً يشتمل على:

أولا: دليل تاريخي لأهم الأحداث في عصر فليب الثاني وابنه الاسكندر الثالث.

ثانياً: ترجمة لنص رد الاسكندر على رسالة «داريوس الثالث الملك الفارسي» كما أرفقت فهرساً لأهم الأعلام والأماكن يضاف إلى ذلك قائمة المصادر والمراجع والدوريات التي اعتمد عليها البحث.

هذا وقد انتهى البحث الى نتائج نجملها في نقطتين:

الأولى هي: ان ضعف الامبراطورية الفارسية، في القرن الرابع قبل الميلاد

يمكن تفسيره بعقم سياسية الفرس التي كانت من نتائجها الحتمية تذمر شعوب لها ديانات وقوميات مختلفة عنها كانت ساخطة على حكم الأقلية في معظم المناطق والأقاليم التي خضعت لنفوذ الامبراطورية الفارسية، مما ساعد في ذلك على استغلال الاغريق لتلك الظروف السانحة لبروز الاسكندر على رأس قيادة عسكرية مهابة الجانب، رغم انه كان متبعاً سياسة الغزو وسفك الدماء في أغلب مراحل حملته على تلك الشعوب. كما نهب منها أموالها وثرواتها، وأخذ منها أكثر مما قدم لها، رغم ذلك فقد ظهر بمظهر المنتصر الفاتح في أعين عامة الناس. وأتاح ذلك الفرصة أمام المؤلفين الغربيين ليجدوا عذراً يستندون إليه فيما بعد، في إقامة الحجج الواهية في ترسيخ فكرة «الاسكندر المنقذ من شر الفرس السابق».

والثانية هي: أن التفكك الاجتماعي الذي انتشر في الأقاليم التي كانت تضم عدة شعوب وأقليات قومية التي لم تكن في وقت من الأوقات راضية أو مرتاحة في جسم الامبراطورية الفارسية. مما أدى في ذلك إلى تهيئة الظروف أمام الاسكندر المقدوني للقيام بحملته على الشرق. كما أن الحضارة الاغريقية بنيت أسسها على الغزو والتوسع والنهب والسلب في أغلب مراحل تاريخها أكثر من الحوار والتفاوض الذي يأتي عن طريق الفتح. وهذا مما هو عميق الدلالة في تشجيع الاسكندر على القيام بذلك الغزوة رغم أن ما يبدو خوض الحروب كانت غير مقبولة بين العامة والخاصة من الأغريق. والمقدونيين الذين عرفوا نوع من التحرر. ولهذا لم يكن من السهل على الاسكندر قيادة هؤلاء إلى حرب الهدف منها التضحية في سبيل المصالح السياسية، والأطماع العسكرية لضمان التفوق الحضاري على حساب الأمم الشرقية ذوات الحضارات العريقة إلا أن شعور الأغريق بالنقص أمام شعوب هي أعرق منهم في الحضارة وأرسخ قدماً. كما كان الاسكندر نفسه لم يكن واثق من نسبه إلى فيليب المقدوني. هذا ربما الأمر الذي جعله يتقبل بسرعة فكرة الاندماج في الحضارات الأخرى كالحضارة المصرية التي حاول إثبات نسبه إلى فراعنتها. وأدى ذلك بالاغريق أن ينظروا إلى بلاد الشرق بعين الحسد والطمع وتطور ذلك عند مجيء الاسكندر إلى غزوها.

وكل ما تقدم يبين لنا بصورة واضحة أن حملة الاسكندر لم تكن موضوعاً قائماً بذاته. بل كانت نتيجة لموضوعات سابقة لها. فقد تهيأت لي فرصة من خلال هذا العرض المتواضع إظهار بعض النتائج متداخلة مع بعض الدوافع والاحتمالات التي خلصت اليها من خلال تركيز الاهتمام في بعض الأحيان على ما ورد في الأخبار والمعلومات التي تشير إلى أن حملة الاسكندر قد تم تحضيرها في ظروف متداخلة ومصالح متضاربة حدثت في فترة تمزقت فيها وحدة بلاد الاغريق نتيجة الحروب الداخلية التي ساهمت في اذكائها كثرة الأحزاب المتنافسة والمدن المنقادة إلى نزاع دائم مع جاراتها. هذا فضلاً عن المؤامرات الخارجية التي كانت تحاك ضد الاغريق من طرف الفرس. من ثمة فقد بلغت الأخطار التي أحدقت ببلاد الاغريق في الداخل والخارج مبلغاً يتطلب قادة وجنود من الطراز الأول. وقد تحقق ذلك كما مر بنا في ظهور الاسكندر في تلك الفترة الحرجة، حيث ساهم في انقاذ بلاده من الانهيار المبكر، وكان هذا العصر في الواقع عصر شخصية الاسكندر.

هذا ومن جملة النتائج التي لا يمكن اغفالها أن الغرب قد وجهوا ووظفوا أحداث التاريخ في هذه الفترة التي ظهر فيها الاسكندر المقدوني، لصالحهم استغلوا الفراغ التاريخي الذي حدث في ما بين فترتين زمنيتين خاصتين من تاريخ العالم، كما أن حتى تحيز مؤرخي الغرب في إبراز مواقف القادة الغربيين لم تجد معارض لها عندما ضخمت أكثر من غيرها هذا مما يدل على الفراغ التاريخي الذي تركه الاحتلال الفارسي في أوساط الشعوب الشرقية. ولقد سمح ذلك لهؤلاء المؤرخين الغربيين في إصدار احكامهم فيما يخص التاريخ دون أن تتعرض الى النقد من جهات أخر محايدة، أو حتى إلى الرد الموضوعي.

كما أن حملة الاسكندر كانت في بداية أمرها موجهة لغزو آسيا الصغرى فقط. لكن يبدو كل خطوة كان الاسكندر يخطوها كانت تؤدي به إلى الخطوة التي بعدها. وأن الخلاف الذي كان قائما في ذلك الوقت بين الاغريق وفارس وبلاد الشرق خلافاً حضارياً أكثر منه سياسياً. وأن هدف الاسكندر الأول من القيام بحملته على بلاد الشرق له بُعد يتمثل في تهديم بنية الحضارات العريقة من الداخل سوى كانت الحضارة المصرية أم حضارة ما بين النهرين، وأن ما ورثه الاغريق من

تلك الحضارات أكبر مما ابتدعوه وجلبوه. وكانوا الوارث المتلاف لذخيرة الشرق من فنّ وعلم، غير أن مؤرخي الغرب لا تهمهم الحقائق التاريخية، بقدر ما يهمهم تمجيد وتضخيم أعمال أبطالهم وإحياء أمجادهم وبالتالي وقعوا في أوهام وأحلام التعصب العنصري للحضارة الأغريقية.

وفي ختام هذا التقديم يجدر بنا أن نلاحظ أن فكرة التقديس أثناء حياة الاسكندر لم تكن ظاهرة بوضوح رغم أنه طلب من حلف كورنثة أن يعتبره إلهاً، وقد وافق الحلف على ذلك إلا أنه لم يظهر ذلك التأليه واضحاً لدى الشعوب الشرقية وأخلفائه الذين لم يعملوا على تعميق الفكرة، إلا بعد وفاته، حيث يبقى الاسكندر رمزاً للاقتداء يضاف إلى ذلك دعم هذه الفكرة من طرف المؤرخين الغربيين الذين جعلوا منه أسطورة فتحت أبواب الغزو للاستعمار الغربي الحديث.

خامسا:
القسم الأجنبي

Franes. Les Saxons profitèrent de la sédition d'Hildebert pour faire du butin en France. Hildebert dévasta la Campanie.

A.C 557 *Ind. V, 16 ans après le consulat de Basilius.*

En Bretagne, Bridus fut fait roi des Pictes. Hildebert, roi des Francs mourut au cours de cette période et Parisius fut enterré dans la basilique Saint Vincent qu'il avait édifiée lui-même, et son frère Lothaire, s'arrogeant le pouvoir, obtint la totalité de la "monarchie" du royaume paternel.

A.C 558 *Ind. VI, 17 ans après le consulat de Basilius.*

Hramnus, qui vait offensé son père Lothaire, en lui portant préjudice de nombreuses, fois prit la fuite, à cette époque en Bretagne, où celui-ci le poursuivit et là, il fut pris et vaincu lors d'un combat contre le roi Conoboro, et brûlé vif avec sa femme et ses filles.

A cette époque, la basilique Saint Martin de Tours, fut incendiée, après que des rebelles s'y soient réfugiés.

A.C 559 *Ind. VII, 18 ème année après le consulat de Basilius.*

A.C 560 *Ind. VIII, 19 ème année après le consulat de Basilius.*

A.C 561 *Ind. IX, 20 ème année après le consulat de Basilius.*

A.C 562 *Ind. X, 21 ème année après le consulat de Basilius.*

Bruttium, nit Naples sens dessus dessous et fit le siège de Rome.

Sergius, fut rappelé d'Afrique, et Aerobindas, qui venait d'épouser la nièce de l'empereur, fut envoyé comme arbitre.

En Orient, un accord fut conclu avec les Parthes par le maitre de l'armée Constantianus, et l'armée fut renvoyée à Constantinople.

A.C 547 *Ind. X, 6 ans après le consulat de Basilius.*

Les Goths envoyèrent une délégation à l'empereur, dirigée par l'évêque de la cité d'Asisinatium, du nom d'Aventius. Le maitre des soldats, Joannes, vint en hâte en Italie; Bélisaire quitta Ravenne, pour Dyrrachium. Joannes envoyé en Calabre, regagna Rome, en passant par la Sicile. Le pape Vigilius fit son entrée à Constantinople le 8ème jour des calendes de Février. Totila entra à Rome, suite à une trahison des Isauriens, le 16ème jour des Calendes de Janvier, et démolit les murs, mit le feu à quelques maisons et prit en butin tous les biens des Romains. Il emmena en campanie, ces mêmes Romains, fait prisonniers après ce carnage, Rome fut durant 40 jours et plus, à tel point ravagée que ni homme, ni bête ne subsistait là.

Bélisaire arrivé sur place, répara une partie des murs, et tint tête à Totila revenu au combat.

La même année, la nièce de l'empereur revint d'Afrique veuve, Aerobinda avait été tué par le tyran Guntharius qui l'avait éliminé en accord avec Stotza Junior.

Mais Artabanes les ayant fait prisonnier l'une et l'autre, tua Guntharius, et envoya Joannis Stotza Junior enchainé à l'empereur. Quelques jours plus tard, Joannes fut envoyé en Afrique, et Artabanes rappelé reçut le commandement qu'il occupe présentement. ,

A.C 548 *Ind. XI, 7 années après le consulat de Basilius.*

Le maitre des soldats Joannes qui faisait du butin en Campanie (rapinait) au détriment des Goths, libéra quelques sénateurs; Il eut à subir l'arrivée imprévue de nuit de Totila, à l'approche des Bulgares.

A.C 549 *Ind. XII, 8 ans après le consulat de Basilius.*

A.C 550 *Ind. XIII, 9 ans après le consulat de Basilius.*

A.C 551 *Ind. XIV, 10 ans après le consulat de Basilius.*

A cette époque, en Afrique, les Maures furent soumis par le patrice Joannes.

A.C 552 *Ind. XV, 11 ans après le consulat de Basilius.*

A ce moment, Justinien Auguste fit de l'eunuque Narses, qui était son archiviste et son valet de chambre un chef militaire, et l'envoya en Italie. Il engagea le combat, en sortit victorieurx, et tua Totila, et extermina en Italie, la race des Goths avec l'aide des Lombards..

A cette époque, alors que le comte Buccelinus avec ses accolytes ravageait pour le compte du roi des france Théodebertus, l'Italie et la Sicile, depuis quelques années, est l'emportait sur l'armée Romaine, enfin de compte, son armée épuisée par la dysenterie, fut vaincue au cours d'un combat par Narsès et terrassée, et son chef tué.

Peu de temps après, l'associé de ce dernier le chef Omnirugus fut tué avec le reste des Goths auxquels il se joignit.

A.C 553 *Ind. I, 12 ans après le consulat de Basilius.*

Le roi des Frances Theodebaldus mourut et le roi Lotharius, oncle du père de ce dernier, Theodebertus qui déjà gouvernait depuis 44 ans prit le royaume et l'épouse de celui-ci Vanderadam. Cette année là, ce même Lothaire soumettait les Saxons qui avaient repris les armes, dans un grand carnage, près du fleuve Wiseram et dévastait la Thuringie envahie.

A.C 554 *Ind. II, 13 ans après le consulat de Basilius.*

Le pape Vigilius, délivré enfin de l'exil par les empereurs romains et par Narsès, mourut en Sicile, d'un calcul de la vessie, alorsqu'il s'apprêtait à rentrer à Rome.

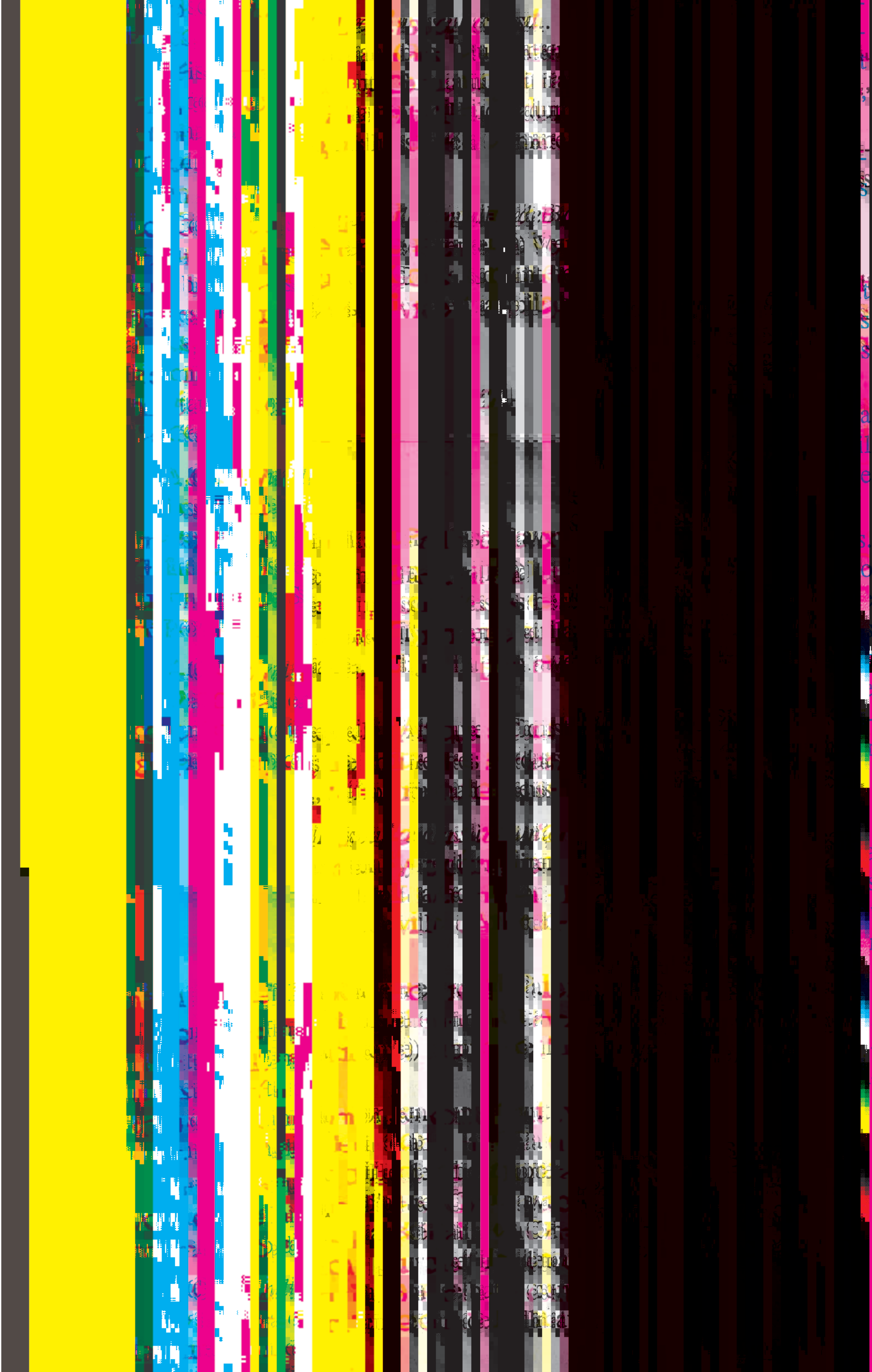
Transporté aussitôt à Rome, il fut enterré sur la "via Salaria". Pelagius fut nommé 62ème pape, à sa place et siègea 11 ans et 10 mois. Accusé d'avoir intrigué contre Vigilius, par la population romaine, il se lava de cette accusation par un sermon, des récitations de prières, en compagnie de Narsès, et par l'ascension de Saint Pierre, un évangile posé sur la tête.

A.C 555 *Ind. III, 14 ans après le consulat de Basilius.*

Cette année là, les hostilités reprirent entre les Saxons et Lothaire. Les Saxons auraient proposé la moitié de leurs biens aux sollicitations de Lothaire, mais l'armée des Franes rejetait cette proposition, à l'insu de Lothaire, aurait repris les armes, et aurait subi de grosses pertes, et trouvé refuge dans la fuite.

A.C 556 *Ind. IV, 15 ans après le consulat de Basilius..*

Ces jours là Hrammus se révolta contre son père Lothaire avec l'appui de son oncle Hildebert et fomenta une sédition dans le royaume des



Faventia, ville d'Emilie, il vainquit l'armée des Romains et mit en fuite chefs, Caesena et Urbanus, et occupa Montemferetris et Petrapertusa, c rant par ici et par là, il dévasta l'Italie. De retour dans la Toscane annon en direction de Mucello, il l'emporta sur l'armée romaine et ses chefs, derit, Villaridus et Beda.

Au cours du combat, le patrice Bessa blessé, s'échappa. Quelq autres en vérité se sauvèrent en fuyant à travers tout.

A.C 543 Ind. VI, après le consulat de Bélis.

Totila dévasta la Campanie, détruisant les villes fortifiées, assié Tibur, avec les siens. Une grande sécurité frappa le sol de l'Italie l'Orient et l'Illyrie, se retrouvèrent également épuisées.

En Orient, les Perses, étaient toujours en conflit avec les notres, Afrique, Sergius, était inquiété par les rebelles avec Stotza et les Maure

A.C 544 Ind. VII, 3 ans après le consulat de Basilius.

Totila assiégea Firmum et Asculum, ravagea Naples envahie, et Tib Rome où se trouvait (commandait) le maitre des soldats Joannes fut l'ol d'un long siège. En Orient, Bélisaire ayant été promu, Joannes anc consul, ordinaire, patrice et préfet du prétoire fut exilé, et l'on donna maison à Bélisaire.

A.C 545 Ind. VIII, 4 ans après le consulat de Basilius.

Totila fit son entrés dans les villes assermentées de Firmum et d'As lum renvoya les soldats romains avec leurs biens, et exerça sa cruauté vers la population romaine qu'il dépouilla et tua.

En Afrique, Joannes se ruant sur le tyran Stotza, le tua, mais lui-mê fut massacré par le garde de corps de ce dernier.

Sous ce gouvernement tyrannique, un dénommé Joannes fut chois appelé Stotza junior. Bélisaire rapelé d'Orient, tomba dans une embusca et en courut un grave danger; victime des envieux, il fut renvoyé de no veau à Rome. A son arrivée, il envoya Bessa à Rome, et Joannes à l'em reur. Totila dévasta Picenum, et poursuivant le combat, fut vainqueu Auximum. De là, traversant la Toscane, il détruisit Spolète, s'empara d villes fortes d'Asisium et de Clusium, et fit le siège de Perusia (Pérouse).

A.C 546 Ind. IX, 5 ans après le consulat de Basilius.

Le pape Vigilius, 59ème pape depuis l'apôtre Pierre, appelé par l'em reur, quitta Rome et vint en Sicile. Totila, après avoir occupé la Lucanie.

Le roi Erarius ayant été tué, les Goths transmirent le pouvoir à T et celui-ci franchit bientôt le Pô pour le malheur de l'Italie, en directio

t que Vitiges assiégeait longuement Rome, à l'intérieur, Béli-
uiétant de la famine et du manque de gardes, demandait de l'aide
ur. Martinus et Valerianus, l'un et l'autre chef de l'armée furent
rs lui. Cependant Vitiges n'abandonna pas le siège.
ique, Germanus mit en déroute les soldats des Maures. En
si, Joannes Cottistis, qui s'était emparé du pouvoir, fut tué à
t d'avoir pu tenter quelque chose, de contraire.
grande église du monde fut construite par l'empereur Justinien;
icacée le 6 des calendes de Janvier.

Ind. I, sous le consulat de Joannis.
Vitiges tardait à attaquer Rome; Joannes, le maitre des soldats
é des remarquables Batza, Conone, Paulo et Rema se dirigèrent
, après avoir mis sur pied une grande armée et établirent le
nt le port de Rome, pour venir en aide à la Rome éprouvée. Vi-
yant arriver, signa une trêve de trois mois avec Bélisaire et en-
mbassadeurs à l'empereur. Durant cette trève Bélisaire retourna
ie, pour ramener à Rome, les ressources de l'annone. Au retour,
le patrice Constantinus qui lui était hostile. Joannes quittant le
avait établi devant le port, envahit la région des Samnites. Il
t la forteresse d'Aterna et renversa le chef goth Tremon et les

e temps, il envahit Orthona, soumettant au pillage Picenum et
riminum. Apprenant ces nouvelles depuis la ville assiégée dans
se trouvait, depuis la signature de cette paix troublée; Vitiges
ne par la chaussée Clodia et la Toscane annonaire, traversa les
assiégea Ariminum, où il établit son camp sur la rive du
con. Il fut repoussé par Narsès venant de Constantinople et
nant de Rome et s'enfuit vers Ravenne. Le neveu de celui-ci
la ville de Milan exsangue, suite à une longue famine, en
aut avec son armée, aux chefs Mundila et Paulus, établis à cet

fixa à Ariminum et Bélisaire vint à Rome pour y passer
possession d'Urbinum qui capitula, de la vieille ville "Urbe-
'île du lac Bulsinensis.

nd. II, Appion seul consul.
ntra à Constantinople; Bélisaire entra dans Auximum, après
7 mois et aussi dans Fesula. Les Goths entrés à Milan, y dé-
murs, firent du butin et tuèrent tous les Romains. Ils emme-

fut renversée et enfouie dans le sol.

A.C 527 *Ind. V, Mubortius seul consul.*

La 197ème année de la fondation de la ville royale, aux calendes d'avril l'empereur Justin associa au pouvoir et désigna comme son successeur son neveu, par sa sœur, Justinien qu'il avait déjà remarqué pour ses qualités. Lui-même mourut 4 mois plus tard, après 9 années et 2 mois de pouvoir.

A.C 528 *Ind. VI, Justinien seul consul.*

La 198ème année de la fondation de la ville royale, le glorieux prince Justinien fit restaurer avec son habituelle munificence, le vestibule du palais royal, et à l'intérieur de celui-ci, le trône construit, pour lui permettre de regarder et apprécier les combats de cirque encourageant par un signe de tête les bons cochers, réprimandant les indolents, il le suréleva et restaura aussi, l'un ou l'autre portique, d'où les sénateurs avaient coutume d'assister au spectacle.

A.C 529 *Ind. VII, Decius seul consul.*

Les Parthes déclarèrent la guerre et l'armée romaine reprit les armes et protégea ses frontières. Cette expédition militaire des notres dura cinq ans; puis elle quitta l'Orient pour gagner l'Afrique et combattre avec succès les Vandales.

A.C 530 *Ind. VIII, sous les consuls Lampadius et Oreste.*

Mundo, chef de l'armée d'Illyrie, au moment où les Gètes parcouraient depuis longtemps l'Illyrie, se révéla le meilleur des généraux romains il les mit en fuite et en massacra quelque-uns.

Ensuite, poursuivant son audace, (sous ces consuls), il accourut en Thrace, et mit en pièces des Bulgares qui la dévastaient, au cours d'un combat assez heureux, après en avoir trucidé une cinquantaine.

A.C 531 *Ind. IX, après le consulat de Lampadius et Orestes.*

Hypatius, Pompeius et Probus cousins par la naissance et neveux du divin Anastasius, tentèrent d'envahir par ruse, aux ides de Janvier, l'empire qu'ils convoitaient chacun, par ambition indigne; une partie de la noblesse était passée à la conspiration et encourageait la foule des séditieux par des distributions d'armes et de dons.

Ils ravagèrent pendant cinq jours sans interruption, la ville royale, de leurs rapines, par le fer et le feu, aidés par des citoyens impies; courant en tous sens, en cette période d'interrègne, pleins d'impiétés et d'hostilité, se présentant même dans le Palais, comme des fidèles de la république. Le

cinquième jour de ce crime infâme, Hypatius revêta d'un collier d'or, des mains des comtes impies et de son comte Pompeius qui portait une cuirasse sous sa veste, descendirent du forum pour envahir le Palatium. L'un et l'autre furent faits prisonniers devant les portes du Palais et sur ordre de notre très pieux prince. D'innombrables gens du peuple furent tués dans le cirque pêle-mêle et les alliés des tyrans furent proscrits sur le champs. La rénovation de l'église qui avait été incendiée, fut entreprise bientôt, par ce même auguste.

A.C 533 *Ind. XI, sous le 3ème consulat de Justinien auguste.*

Après un long et immense travail de conciliation entrepris par les Romains, avec grand peine, avec les Mèdes, par le patrice Rufinus et le maitre des offices Hermogènes, lesquels avaient été envoyés en ambassadeurs par notre prince, la paix fut signée avec les Parthes. Des cadeaux furent envoyés par l'un et l'autre empereur, en signe d'alliance et suivirent l'engagement pris lors de la signature du traité.

A.C 534 *Ind. XII, sous le 4ème consulat de Justinien et le consulat de Poulinus.*

La province d'Afrique, située dans la troisième partie du globe terrestre fut libérée par la grâce de Dieu. Le prince Justinien, sous son 4ème consulat récupéra sous son autorité la cité de Carthage, 96 années après sa destruction et la rattacha à sa patrie plus fermement qu'elle ne l'avait été jusqu'ici, après en avoir expulsé et vaincu les Vandales et avoir capturé et envoyé à Constantinople leur roi Gélimer.

A cette époque le roi des Goths, Theodahadus fit assassiner la reine Annalasueniba qui avait été expulsée du pouvoir et exilée dans l'île du lac Bulsiniensis, mort que le prince Justinien déplora et vengea heresque Marcellinues comes (jusqu'ici Marc. Comec).

A.C 535 *Ind. XIII, sous le consulat unique de Bélisaire.*

L'empereur délibéra sur le sort de Rome et de l'Italie, après avoir soumis Carthage et la Libye avec son roi Gélimer, par les soins de Bélisaire. De nouveau, on prépara une expédition et une flotte fut confiée au même chef, qui avait été élu consul, lequel se dirigea au cours d'une navigation directe, vers le Sicile, Catane et Syracuse sans tarder. Il occupa la Trinacrie; là, il apprit qu'une guerre civile avait éclaté en Afrique, que le soldat s'était insurgé contre son propre chef; il rentra en Afrique, avec quelques hommes et vint en aide au chef Solomon; il œuvra dans l'intérêt de la république, tantôt, en flattant l'armée, tantôt, en la punissant, éxilant le tyran

icus.
de ses blessures le
complices Celeria-

erius.
plus généreux as-
béralités car il dis-
tacles ou pour as-
également dans
autres bêtes sau-
qui avaient déjà
, bienqu'ils aient

ius.

ers de la ville fu-
et la pendaison,

ilion..
e pénurie dans la

depuis que Pierre
née de son siège.
des cérémonies
quitta la ville et
Dexter occupa le
la résurection de

Syrienne d'Anti-
une grande partie
soufflant de tous
e temps, dans les
ufrasius, lui arra-
élisque du cirque

cette perversion soient jetés aux bêtes. Anastasius César laissa croire à ces gens qu'il ferait le nécessaire, par ses faux serments habituels et sa dissimulation. Le troisième jour qu'ils vinrent sur le forum, il leur enjoignit de regagner leurs demeures sans autre résultat.

Retombé dans son serreur, Anastasius césar donna ordre de convoquer un concile infâme et ridicule à Sidon, auquel on donna les noms les plus ridicules, réunissant 80 évêques de la perfidie, contre les évêques de l'orthodoxie. Le patriarche catholique d'Antioche, Flavianus et le pontife de la ville forte de Paltensis, Joannis, furent exilés dans la forteresse de Petra, pour avoir jugé cette réunion sacrièlège. Là Flavianus confesseur du Christ, repose dans le Seigneur et Justin auguste, une fois devenu empereur rappela Joannes.

A cette époque aussi, une eclipse de soleil eut lieu.

La race des Erules fut installée sur ordre d'Anastasius César, sur lès terres et cités des Romains.

A.C 513 *Ind. VI, sous les consuls Clémentinus et Probus*

Severe ancien moine, partisan de l'hérésie d'Eutyches occupa le siège du pontife Flavien, avec l'accord d'Anastase césar.

Dorothee vénérable pontife de la ville d'Ancyre, qui s'était opposé continuellement au prince Anastase à propos de la foi unique des orthodoxes, eut la fin de vie, qu'il avait prédite lui-même au "magistrianus" envoyé par césar contre lui, à cette époque.

A.C 514 *Ind. VII, sous le consulat unique de Senator*

Vitalianus, le scythe, accompagné de plus de 60.000 hommes en armes cavaliers et fantassins, rassemblés en l'espace de 3 jours, arriva dans un endroit appelés Septimius, et là établit le camp. Ayant disposé ses corps de troupes, d'un point à l'autre de la mer, il atteignit la porte dite d'Or, sans aucune perte, assurant qu'il était venu à Constantinople, pour défendre la foi des orthodoxes et pour (défendre) l'évêque de la ville Macedonius, exilé par le prince Anastase.

Ensuite attiré et abusé par les mensonges d'Anastase et les fausses promesses de l'intermédiaire Théodorus, il s'en retourna le 8ème jour qu'il était entré dans la ville, et de là entra dans la ville de Mésie Odessus par ruse et y passa la nuit. Vitalianus trouva Cyrille dormant entre deux courtisanes, se comportant favantage en séducteur, qu'en vaillant chef de l'armée et l'arrachant de là il l'égorgea avec un couteau gète et se montra ouvertement et franchèment hostile à Anastasius césar.

A.C 515 *Ind. VIII, sous le consulat d'Anthemius et de Forentius.*

Hormisda fut nommé 5ème évêque de l'église romaine, il survécut 9 années (à sa désignation). Vitalien devint, un ennemi plus redoutable encore envers que l'empereur Anastasius.

Après que ses bateaux armés aient abordé à un endroit propice, il envoya ses cavaliers en avant, et lui-même entra, escorté de fantassins en armes dans le domaine de Systhenensis et s'installa dans le palais de l'endroit. Des ambassadeurs lui furent envoyés par César, pour conclure des traités de paix; alors, il reçut pour le rachat d'Hypatius, 90 livres d'or, prélevés sur les impots royaux. 1.100 livres d'or lui avaient déjà été offerts, pour le rachat d'Uranius, qui avait été fait prisonnier par les siens, à Sozopolis.

Devenu le maitre de l'armée pour la Thrace, Vitalianus, influencé par son oncle maternel, renvoya Hypatius, qu'il retenait prisonnier et enchainé au chateau d'Acres.

A cette époque, les Huns après avoir traversé l'Arménie, et dévasté toute la Capadoce, arrivèrent jusqu'en Lyaconie.

Ariane auguste, rendit le dernier soupir, à soixante ans précis, dans son palais.

A.C 516 *Ind. IX, sous le consulat de Petrus.*

Après avoir changé de foi, l'empereur Anastasius releva Vitalianus et lui donna un remplaçant Rufinus.

Hélius, l'évêque de la ville de Jérusalem, qui avait été banni par ce même prince, mourut dans la villa, dite Haila. Ensuite, Anastase donna ordre que les prêtres catholiques d'Illyrie, soient présentés à ses regards, à savoir Laurant de Lychnidus, Domnion de Serdica, Alcissa de Nicopolis, Gaianus Naisitanus et Evangelus Pautalien.

Les évêques Alcissus et Gaianus moururent à Byzance et furent enterrés dans un seul tombeau. Domnion et Evangelus furent renvoyés dans leurs sièges propres par crainte des soldats catholiques. Seul Laurentius qui avait réussi à convaincre l'empereur Anastase, en faveur de la foi catholique, resta à la cour, et s'il fut exilé, il fut relaché ensuite et rendu plus libre de ses mouvements, qu'avant son arrivée à Constantinople.

A.C 517 *Ind. X, sous les consuls Anastasus et Agapitus.*

Cette fournaise, qui d'après le prophète Jérémie, s'embrase sous l'effet du vent du Nord, contre nous et nos péchés fabriqua des traits de feu et blessa la plus grande partie de l'Illyrie de ses dards.

avec une armée enrichie de tout le butin capturé. Après cela il réfléchit quelque temps, avant de rompre un traité avec les Perses, après qu'il ait envoyé en secret Armonius conslure un traité avec eux.

A.C 505 *Ind. XIII, sous les consuls Sabinianus et Théodorus.*

Sabinianus, le fils du grand Sabinianus, mandaté contre le Gète Munda construisit des armes et se mit en route, pour le combat, emmenant avec lui 10.000 hommes en armes et des chariots pleins de vivres et d'armes. Il engagea le combat près d'Horreo Margo. Beaucoup de ses soldats perdirent la vie dans le conflit, ou furent noyés dans le fleuve Margo. Il perdit en outre des chariots dans la place forte appelée Nato et prit la fuite avec quelques hommes.

Le moral des soldats s'effondra tellement au cours de ce lamentable combat, qu'aucun mortel n'aurait pu le relever.

A.C 506 *Ind. XIV, sous les consuls Aerobinda et Messala*

Sous ces consuls, une statue du prince Anastase fut érigée sur une immense colonne, sur la place du Taurus à l'endroit même où avait été élevée celle de Théodose le Grand.

A.C 507 *Ind. XV, sous le 3ème consulat d'Anastasius Auguste*

Une insurrection populaire éclata dans le cirque, opposant soldats et hommes armés. Les gradins face Nord du cirque, furent incendiés et détruits, dans leur aspect extérieur.

A.C 508 *Ind. I, sous les consuls Celer et Venantius.*

Romanus "comes domesticorum" et Rusticus, comte des gardes du palais se mirent en route dans l'intention de ravager la côte de l'Italie, avec une centaine de navires armés, et autant de bateaux légers, transportant 8.000 soldats en armes. Ils s'avancèrent jusque dans la très ancienne cité de Tarente et la mer traversée, ils remportèrent une victoire sans gloire, victoire que les Romains ravirent aux anciens romains, par un acte de piraterie.

A.C 509 *Ind. II, Opportunus seul consul*

Un incendie se déclara dans la ville auguste et le feu réduisit en poussière, l'un ou l'autre portique depuis le forum de Constantin, jusqu'à la frêle statue de Perdicca. Le port de Julien fut vidée de ses eaux par des machines rotatives et purgé par enlèvement de la boue.

A.C 510 *Ind. III, sous le consulat unique de Boetius*

Sur le forum de Strategius une statue d'airain reposant au-dessus d'une

arche et tenant une corne d'abondance fut la proie des flammes et perdit un bras dans l'incendie; les sculpteurs la réparèrent aussitôt. La patrice Appius fut exilé. Constantinus ancien chef de l'armée fut nommé évêque de Laodicée.

A.C 511 *Ind. IV, sous les consuls Secundinus et Felix*

L'evêque de la ville auguste Macedonius, qui avait été victime des ruses et intrigues de l'empereur Anastase et accablé auprès de celui-ci par les témoignages de gens corrompus, pour avoir tardé de donner à ce prince un livre des saints pères authentifié à chalcédoine par une sainte signature, fut assigné à exil à Euchaita, par celui-là. Timothée nommé évêque par Anastase césar occupa la place de Macedonius.

A.C 512 *Ind. V, sous les consuls Paulus et Muscianus*

On vit briller souvent le ciel au Nord.

Le jour du seigneur , sur ordre d'Anastasius césar, une "quaternité" de Deipassianistes fut ajoutée au chant de la Trinité par Marinus et Platon qui se tenaient en chaire de vérité dans l'église; De nombreux orthodoxes qui psalmodiaient des psaumes anciens, blamèrent par leur clameurs les perfides prédicateurs; ils furent blessés dans le chœur même de l'église et conduits en prison où ils périrent.

Un autre jour, des catholiques furent également blessés dans l'atrium de Saint Théodre, pour la défense de la foi unique, dans un plus grand carnage; pour cette raison, le jour qui suivit, c'est à dire le 8ème jour des Calendes de Novembre, jour où l'on célèbre chez les Byzantins, la mémoire des cendres des morts qui recouvrit toute l'Europe, une foule d'orthodoxes inquiets, afflua venant de partout, sur le forum de Constantin.

Les unes parcoururent nuit et jour toute la cité, certains en psalmodiant l'hymne à la Trinité, en l'honneur du Christ Dieu et firent périr par le fer et le feu, les partisans de la théorie monastique d'Anastasius César. D'autres portèrent les clefs des portes et toutes les enseignes militaires, au forum où ils délimitèrent les camps de la religion et là, ils demandèrent qu'Areobinda devienne empereur ils jetèrent par terre les statues et images d'Anastasius et repoussèrent par des jets de pierre, à l'instar de la pluie, les sénateurs Celer et Patricius qui avaient été envoyés à leur rencontre, pour les supplier et satisfaire. Après avoir brûlé les maisons de Marinus et Pompeis ils affluèrent en grand nombre du forum au cirque, arrivèrent auprès d'Anastasius, et s'arrêtant devant son trône, ils entonnèrent l'hymne de la Trinité, conformément au rite catholique, tout en brandissant l'Evangile, et la croix du Christ et réclamèrent que Marius et Pompeius, responsable de

A.C 496 *Ind. IV, Paulus seul consul.*

Anastasius fit des distributions d'argent à ses soldats, en présence Augustaticus, ce consul était également son frère.

L'inde envoya en cadeau à notre prince un éléphant, que notre poète Plaute appelle "bœuf de Lucanie" et deux giraffes.

A.C 497 *Ind. V, sous le consulat d'Anastasius seul consul.*

Une eclipse de soleil eut lieu. La guerre d'Isaurie se calma au cours de cette 6ème année. Athénodore, premier des Isauriens fut capturé en Isaurie et décapité. Sa tête amenée dans la ville de Tarse, sécha au bout d'une pique, devant les portes.

A.C 498 *Ind. VI, sous le consulat du scythe Joannis et de Paulinus.*

Anastose, nommé 48ème pape de l'Eglise Romaine, survécut 2 années à sa désignation. Longinus, isaurien surnommé "Selinuntenus" fut capturé à Antioche, ville d'Isaurie, par le compte Priscus et envoyé à Constantinople où il fut promené enchainé, à travers la ville, par un agent et conduit à l'empereur Anastase et ce fut un grand spectacle pour le peuple. Ensuite, il fut livré à différents supplices à Nicée, ville de Bythinie. Le pri ce Anastase, apaisa le peuple par des distributions de pièces de monnaie, frappées à son effigie, que les romains appellent des "Teruncius" et les Grecs des "Follars".

A.C 499 *Ind. VII, sous le consulat de Joannis Gibbus.*

Aristus chef de l'armée d'Illyrie, s'avança à la tête de 15.000 hommes en armes et de 520 chariots, chargés de matériel de guerres nécessaire au combat, contre les Bulgares qui dévastaient la Thrace. Une guerre fut engagée près du fleuve Zurta où plus de 4.000 des notres furent soit mis en fuite, ou périrent noyés dans le fleuve.

En Illyrie, le moral de la troupe tomba à Zéro, après la disparition de leurs comtes Nicostratus, Innocentius et Aquilinus.

Cette année là, un immense tremblement de terre secoua la province du Pont.

A.C 500 *Ind. VIII, sous les consuls Patricius et Hypatius*

Symmaque nommé 49ème pape de l'église Romaine, vécut encore 15 années (après sa désignation). L'empereur Anastas fit procéder à des distribution d'argent aux soldats d'Illyrie, par le "tribunus notariorum".

A.C 501 *Ind. IX, sous les consuls Pompeius et Avienus*

Alors que Constantius préfet de la ville assistait au milieu de la journée

à des jeux théâtraux; au cours du spectacle, le parti de Cérès s'en prit au parti adverse de la "mer", et entassa des épées et des pierres dans des vases de terre, ces armes furent rassemblées sur des arbres fruitiers, sous le portiques du théâtre, comme avaient l'habitude de la faire les marchands. En présence de Constantius, alors que les voix des citoyens retentissaient comme de coutume, les armes furent extraites (de leurs cachettes) sans être vues ni entendues, des pierres furent lancées à l'instar d'embruns contre citoyens qui ne s'y attendaient pas et des épées brillantes, souillées du sang des amis et des voisins, se déchainèrent contre les agresseurs. La loge des spectateurs du théâtres vascilla et retentit sous le piétinément de ceux qui fuyaient de tous les côtés et déplora ses morts souillés de sang. La ville auguste eut à déplorer la perte de plus de 3.000 citoyens disparus du fait des jets de pierres, des coups de glaive des compressions et des noyades dans les eaux du devant de la scène.

A.C 502 *Ind. X, sous le consulat de Probus et d'Avienus*

La race des Bulgares dévasta, comme elle en avait l'habitude la Thrace qui avait été souvent pillée, sans rencontrer aucune résistance de la part des Romains. Le roi des Perses, Choadis fit irruption dans la très riche ville d'Amida, trahie par ses moines, au bout de 5 mois de siège, et il massacra les moines traitres.

A.C 503 *Ind. XI, sous le consulat de Dexicrates et de Volusianus.*

Trois généraux romains Patricius, Hypatius et Aerobinda, qui avaient été autrefois envoyés se battre contre les Perses à la tête de 15.000 hommes armés se heurtèrent à ces Perses, sans fermeté à proximité de la place forte de Syficum.

Plusieurs chefs militaires qui fuyaient le combat, furent taillés en pièces. Ensuite, nos chefs rachetèrent à prix d'or, aux ennemis, la cité d'Amida qui avait été prise et vidée de ses biens, suite à l'envoi en renfort du maitre des offices Celar, à la tête de 2.000 hommes armés.

A.C 504 *Ind. XII, Cethegus seul consul*

Pendant ce temps, le maitre des offices Celer à la tête d'une soldatesque armée; se mettait en route, pour dévaster les territoires des Perses passant par la ville de Mésopotomie Callinicum, tuant de nombreux paysans qui cultivaient leurs champs, à la manière de bêtes de somme, emmenant avec eux des gardiens de troupeaux, et une grande quantité de bêtes, assiégeant des places fortes en briques de bourbe, il s'avança jusqu'au Pont dit de Fer, en dévastant tout sur son passage, pour rentrer ensuite au quartier général

Ne vit on par ce même Huneric donner ordre de couper la langue d'un adolescent catholique, qui depuis sa naissance n'avait jamais fait de sermon, et celui-ci même devenu muet, se mit à discourir, avec sa langue coupée, sur ce qu'il avait appris, par la foi dans le Christ, sans l'avoir entendu, et les premiers mots de sa voix furent retrouvée pour chanter la gloire de Dieu.

Depuis lors, j'ai vu à Byzance, quelques hommes très religieux appartenant à cette communauté de fidèles, parler d'une voix normale la langue et les mains coupées. Cette cruauté des Ariens, contre les fidèles du Christ, commença à sévir, au mois de février, sous les consuls susnommés.

A.C 485 *Ind. VIII, Symmachus seul consul.*
Longinus frère de Zénon auguste, vint à Constantinople, à l'appel de son germain, 10 ans après la détention qu'illus lui avait infligée en Isaurie.

A.C 486 *Ind. IX, sous le consulat unique de Longinus*
Jean prêtre de la paroisse d'Antioche, aincien grammairien, écrivit contre ceux qui affirmait qu'il faut adorer dans le Christ, une seule substance, et ne reconnaissent pas que 2 natures doivent être reconnues dans le Christ.

A.C 487 *Ind. X, Boetius seul consul.*
Théodoric, roi des Goths, insatisfait des largesses de Zénon auguste se dirigea à la tête de sa grande armée en direction de la cité royale, et atteignit la place forte de Mekintias après avoir incendié la plupart des lieux, il s'en retourna d'où il était venu vers la ville de Mési Novas.

A.C 488 *Ind. XI, sous le consulat de Dinamius et Sifidius.*
Entre temps; le roi Léontius et le tyran Illus furent faits prisonniers au chateau de Papyrius d'Isaurie et décapités. Leurs t^tes furent promenées à Constantinople, et se décomposèrent au bout de piques. La mêmes année, le roi Théodoric, roi des Goths, se rendit en Italie, entouré de tous les siens.

A.C 489 *Ind. XII, sous les consuls Eusebius et Probinus*
Le même Théodoric roi des Goths, occupa l'Italie qu'il convoitait. Au même moment, Odoacre, roi des Goths, que Théodoric terrorisait faisait son entrée à Ravenne; ensuite, il tomba dans le piège des faux serments du même Théodoric et fut tué.

A.C 490 *Ind. XIII, sous le 2ème consulat de Longinus et celui de Faustus.*

L'empereur Zénon donna ordre d'étrangler par le lacet, Pélagius, dans l'Ile dénommée Panorme.

A.C 491 *Ind. XIV, sous le consulat unique d'Olybrius.*
Zénon auguste perdit la vie, après avoir comptabilisé autant d'années de règne que le tyran Basiliscus n'avait compté de mois, à savoir 17 années et 6 mois.

Anastase ancien silentiaire fut nommé ampereur. Une insurrection populaire éclata chez les Byzantins et un quartier important de la ville et le cirque furent détruits par le feu.

A.C 492 *Ind. XV, sous les consuls Anastase auguste et Rufus*
A cette époque, on préparait la guerre d'Isaurie, et les Isauriens qui essayaient de revendiquer l'empire, affluèrent venant de partout en Phrygie, à proximité de la ville de Cotyaeum et là, Lilingis qui était un fantassin nonchaland, mais un cavalier très rude au combat fut tué le premier au combat, par les Romains, et tous les Isauriens prirent la fuite en même temps, et regagnèrent l'Isaurie, à travers les montagnes et régions arides. Cette guerre d'Isaurie traina durant 6 ans.

A.C 493 *Ind. I, sous le 2ème consulat d'Eusebius et d'Albinus.*
Des guerres civiles éclatèrent contre le régime d'Anastase à constantinople. Des statues du roi et de la reine, liées avec des cordes furent traînées à travers la ville. Le maitre de l'armée (magister militiae) Julianus fut tué au cours d'un combat nocturne, en Thrace transpercé par le fer d'un Scythe.

A.C 494 *Ind. II, sous le consulat d'Astérius et de Praesidius.*
L'empereur Anastase entreprit d'encourager des querelles intestines contre la grandeur de la foi des orthodoxes.

Il manifesta la perfidie de son impiété, avec une ingéniosité sacrilège essentiellement contre l'évêque de la ville, Eusemius qu'opposa une vigoureuse résistance pour la défense de la foi orthodoxe.

Laodicée, Hiérapolis, Tripolis et Agathicum furent détruites en même temps par un tramblement de terre. Gélase fut nommé 47ème pape de l'église romaine, et survécut 4 ans (à sa désignation).

A.C 495 *Ind. III, sous le consulat unique de Viator.*
Eusemius, pontife de la ville auguste, dont il a été fait mention plus haut, fut accusé à tort par le prince Anastasius et condamné à l'exil. Macedonius occupa la place d'Eusemius.

II

CHRONIQUE DE MARCELLINUS COMES

(suite)

Traduction Latine de Mme Nelly ARIDJ

A.C 476 *Ind. XIV, sous les consuls Basiliscus et Armatus.*

Le tyran Basiliscus, nomma césar son fils Marcus et essaya de se dresser contre la foi catholique, parce qu'il était un adepte de l'hérésie Nestorienne, et fit beaucoup de bruit avant de se repentir.

Il fut envoyé en exil, avec son fils et son épouse Zenonida, avec le retour de Zénon à l'empire et mourut de faim dans une place forte du nom de Leminis dans la province de Cappadoce. Le roi des Goths Odoacre, prit Rome, tua Oreste, sur le champ et condamna à la peine de l'exil Augustulus, fils d'Oreste, dans la forteresse de Lucullanum en Campanie.

L'empire Romain d'occident, qu'Octavianus Auguste, premier des augustes avait pris en main, la 709ème année de la fondation de Rome, disparut avec cet Augustulus, après 522 années de règne des empereurs successifs, et les rois Goths établirent leur domination sur Rome, à partir de ce moment.

A.C 477 *Ind. XV, sans consuls.*

Le roi Odoacre tua à Ravenne le comte Bracila.

A.C 478 *Ind. I, Illus seul consul.*

Le prêtre Théodores se rendit célèbre en Coélé-syrie en écrivant de nombreuse œuvres.

A.C 479 *Ind. II, sous le 3ème consulat de Zénon Auguste.*

Le grand Sabinianus, fut nommé chef de l'une et l'autre armée d'Illyrie tantôt, il favorisa la fragile assemblée, et le juste impôt de la république, tombé en désuétude, en le redoutant; tantôt il s'en préserva, en le suspendant.

En outre, il fut celui qui a le mieux rétabli et maintenu la discipline militaire, de sorte qu'on pourrait le comparer aux anciens chefs romains. Ce même Sabinianus dissuada le roi Théodoric qui se déchainait en grèce, plus par son habileté que par son courage.

A.C 481 *Ind. III, sous le consulat unique de Basilius.*

La ville royale fut secouée pendant quarante jours continus par un grand tremblement de terre et détruite, elle pleura longtemps ses morts. Deux portiques de la Troade s'écroulèrent, quelques églises furent soit lézardées, soit démolies; la statue de Théodose le grand, qui reposait sur une colonne en spirale, sur le forum du Taurus, s'effondra, deux de ses voutes s'écroulèrent. Les Byzantins célèbrent le souvenir de ce jour effroyable, le 8 des Calendes d'Octobre. Sous ces consuls, Népos qu'Oreste avait dépouillé du pouvoir, naguère, fut tué dans sa demeure, non loin de Salone, suite aux intrigues de ses comtes Viator et Ovida.

A.C 481 *Ind. IV, sous le consulat unique de Placidus.*

Théodoric fils de Triarius, roi des Goths, arriva avec ses hommes armés à proximité d'Anaplum à 4 milliaires de la ville; cependant il fit demi tour, immédiatement sans avoir nui à aucun romain.

Ensuite, sur la route d'Illyrie, alors qu'il avançait au milieu de ses chariots en marche, il périt transpercé par la pointe d'un javelot jeté par-dessus un attelage, et heurté par son cheval effrayé.

La mort qui est imminente pour chaque pêcheur, emporta de ce monde le grand Sabinianus avant qu'il ait pu apporter une aide effective à la république exsangue.

A.C 482 *Ind. V, sous le consuls Trocondus et Severinus.*

Félix, nommé 46ème pape de l'Eglise Romaine, survécut 12 ans à sa désignation.

Théodoric, surnommé Valamer ravagea à tour de rôle, la Macédoine et la Théssalie, et pilla aussi la métropole de Larissa.

A.C 483 *Ind. VI, sous le consulat de Faustus.*

Ce même Théodoric, roi des Goths, amadoué complètement par les largesses de Zénon auguste, fut fait chef de l'armée en place et il occupa avec ses soldats, une partie de la Dacie Ripuaire, et de la Mésie supérieure qui lui fut confiée pour un temps.

A.C 484 *Ind. VII, sous les consuls Théodoric et Venantius.*

Illus, Isaurien d'origine, maitre des offices à la cour, qui avait été amputé d'une oreille, envahit l'orient, plein d'hostilité contre Zénon, ensuite, il instaura un régime tyrannique avec Léontius.

Le cruel roi des vandales Huneric entreprit de persécuter nos catholiques à travers toute l'Afrique; plus de 333 évêques orthodoxes furent exilés soumis à des supplices variées subisent le bienheureux martyre.

Cette œuvre ne se limita pas aux environs des villes uniquement, en effet les morisques contribuèrent avec le reste de la population a la mise en valeur des terres de la Mitidja et des collines du Sahel.

Au delà de l'activité agricole proprement dite, la contribution des morisques s'etendit à l'artisanat qui s'organisait en petits ateliers regroupés par type. A cet effet, la ville de Borchok était réputée pour ses tissus, Cherchel et Coléa pour leurs velours et leur soie, Alger grâce a quelques familles morisques, comme Bonatéro, était connue pour ses chéchias de qualité faites à base de laine traitée d'une manière spécifique.

Le textile morisque lié à la teinturerie était répondu à Blida et Dellys plus qu'ailleurs, aidé par les plantations de viermés et l'abondance des sources d'eau.

La couture, le brocart, l'orfévrie l'ébénisterie, la fabrication d'armes, de munitions, de savon et d'essences ainsi que le traitement du cuivre et de métaux et la production de céramique et de poterie étaient, entre autres, des spécialités des excellents artisans morisques.

Le troisième et dernier point dans ma communication touche à la vie sociale des morisques dont le mode de vie et le statut social permettront de distinguer trois classes distinctes de morisques :

– La hadars (citadins) qui habitaient les villes,

– Les baharines ou maraîchers qui exploitaient les jardins aux environs des villes;

– Les fallahines (agriculteurs) répartis dans la plaine de la Mitidja, les collines du Sahel et les piémonts de l'Atlas.

La communauté morisque était fière de ses origines, peu encline à se mêler au reste de la population, des documents des archives algériennes montrent que certains morisques se considéraient en terre de refuge provisoire.

La spécificité des relations sociales dans l'Algérois confirme l'influence profonde des morisques qui se porte aussi sur les traditions, la langue et le mode de vie (cuisine, habillement, habitations).

En ce qui conserne les traditions, il suffit de remarquer que les fêtes morisques religieuses ou mondaines (comme El-Mawlid, El-Aïd El-Kebir et Saghir, Achoura, mariage, fiancaille... etc) étaient célébrées par des chansons, madihs ou mouachahat ponctuées par des

battement de tambours et des sons de Iorna sur le ton de Dani-Dani.

Dans le domaine du vêtement la communauté morisque imposa ses goûts au reste de la population notamment l'habillement et la parure de la femme.

Sur ce plan linguistique, les morisques introduisirent, le dialècte dit d'origine grenade dont les traces se retrouvent dans le parler de Cherchel qui se distingue toujours des dialectes bédouins du reste de la population. L'arrivée des morisques a contribué aussi à l'arabisation des régions montagneuses berbères de l'Algérie entre Blida et Cherchel, et à propager la langua fraça dominée par le vocabulaire espagnol dans le milieu commercial des villes notamment Alger. En effet au XVIème siècle des familles morisques utilisaient le castillan, et jusqu'au XVIIIème siècle des mots espagnols étaient encore en vigueur comme le notèrent plusieurs voyageurs dont Laugier de Tassy (1725), le Dr Shaw (1732), Condamine (1731) et Vallière (1781).

Enfin ce qui distingue les morisques des autres catégories de la population de la province d'Alger était l'aisance et la richesse résultant du monopole qu'ils excerçaient ses certains métiers rentables (artisanat, commerce, recette d'impôts, prises maritimes....etc); les liens familiaux qui unissaient quelques familles morisques aux gouverneurs et hauts fonctionnaires Turcs induisaient un tranfert des propriétés foncières en ville et dans les campagnes aux mains de richissimes morisques; les archives algériens recèlent une importante quantité d'actes de propriété de morisques.

L'état actuel de notre documentation ne permet pas de préciser les autres aspects de la présence morisque dans la province d'Alger, ou de saisir les facteur amenant la communauté morisque algérois à l'effacement et à l'assimilation à partir de la fin du XVIIème siècle.

A cet effet il est nécessaire à la fin de cette communication de remarquer que notre connaissance sur les morisques est loin de faire de notre exposé une étude exhaustive et complète; nous avons essayé seulement de faire le meilleur usage, de la documentation dont nous disposons espérant que dans d'autres études, nous pourrons traiter la présence morisque en Algérie d'une façon plus générale et plus profonde dans le cadre d'une coopération scientifique fructueuse entre spécialistes et chercheurs de la question morisque.

Cette présence morisque marqua profondément le milieu humain de l'Algérois au point que la vie économique et les relations sociales devinrent dépendantes de la contribution morisque durant le XVI et le XVIIème siècles.

Après que le pouvoir ottoman se stabilisa à Alger, les frères barbarousses (Kheireddine et Arroudj) ainsi que leurs héritiers (Beylarbeys et Pachas d'Alger) contribuèrent grandement à peupler la ville d'Alger et sa province de Morisques.

Il en fut ainsi qu'en l'an 1591 Alger et les villes de la province (Blida, Koléa, Cherchel et Dellys), aient parus se remplir de ces nouveaux arrivants; les premières années du XVI siècle allaient connaitre une poussée plus accentuée du nombre de morisques résultant des décrets d'expulsion de 1609-1614; décrits par l'historien F. Braudel comme une opération chirurgicale.

Cet afflux de morisques permit à la province d'Alger de surmonter des difficultés démographiques caractérisées par une baisse de la population, un appauvrissement des campagnes et une décadence des villes.

Alger acceuillit des refugiés de Castille de Valence et de Grenade (appelée Tagarins), sa population morisque était évaluée à l'époque à environ 25000 âmes soit le quart de la population. Blida devint une ville morisque depuis sa fondation en 1535 par un notable morisque connu sous le nom de Sidi Ahmed El-Kebir encouragé par KheirEddine, la ville de Blida restera majoritairement morisque, du moins dans une proportion de moitié jusqu'à la conquête française (1830). Koléa est la ville morisque par excellence et gardera cet attribut depuis sa fondation par un groupe de mudajers originaires de Castille et de Grenade en l'an 1551.

La communauté morisque appuyait sa légitimité et son autorité sur l'allégeance a un homme de foi portant le nom de Sidi Ali ben M'Bareck, dont la notoriété s'imposait aux tribus de la plaine de la Mitidja voisine.

Dellys et Cherchel aux deux extrémités de la province d'Alger acceuillaient des morisques en tant que centres cotiers fortifiés.

Dellys engloba environ deux mille maisons morisques, Cherchel résurgissait de ses décombres, grâce aux 2000 familles mudajers de Grenade, de Valence et d'Aragon.

Cette emprise humaine et ce poids démographique morisques devaient inévitablement marquer de leur empreinte les activités économiques et les

relations sociales dans la province d'Alger. C'est ce que nous allons essayer d'aborder dans les deux autres points de notre communication.

Le deuxième point conserne la vie économique, nous constatons que le rôle des morisques en agriculture, consistait essentiellement dans ce qu'ils introduisirent comme denrées agricoles et techniques de production.

A cet effet beaucoup de voyageurs ont noté que les méthodes d'exploitation, la qualité des produits et la beauté des paysages ressemblaient à celles qu'on trouvait en Andalousie avant l'expulsion des musulmans. Les fohos d'Alger présentaient une superficie de 10 lieues (environ 30 km) autour de la ville ponctués de maisons et couverts de jardins, les morisques étaient dans ces fohos d'Alger célébres pour leurs produits de légumes et leurs plantations d'arbres fuitiers qu'ils introduisirent dans la province comme le larange, le coins et divers légumes tels la pomme de terre, la tomate, l'aubergine (bitanjel) le safran, le kermès, etc... Les environs de Blida devinrent célèbres pour leurs orangers, citronniers et oliviers, les fohos de Koléa et Cherchel connurent la culture du murier par la production du ver de soie. La région d'Alger était plantée de légumes, de vignes et d'autres arbres fuitiers...

Ces progrès de l'agriculture chez les morisques n'auraient pu être possibles sans le recours à des techniques hydrauliques basées sur une gestion rigoureuse des eaux disponibles dans la province d'Alger; ainsi furent modifiés réservoirs, canalisations, acqueducs et rocias. Ces ouvrages se percevaient dans les environs d'Alger où les artisans morisque, réussirent au 16ème siècle à canaliser les eaux des sources du hamma, du talaoumly, de birtraria, de zeboudja pour l'irrigation et les besions de la ville d'Alger.

Dans les fohos de Blida, les morisques détournèrent le cours de l'Oued Er-Rouman, (qui devint l'Oued Sidi Ahmed El-Kebir) grâce à un canal de 15000m d'un débit de 20.000 litres par jour, utilisés pour dans l'irrigation, l'artisanat et la consommation des habitants. Par ailleurs ils tentèrent d'exploiter les cours d'eau qui descendaient du mont Chéréa pour l'irrigation des plantations d'orangers qui finirents par constituer selon des voyageurs une véritable forêt entourant la ville de Blida.

A Coléa, les morisques utilisaient les eaux des puits de l'Oued mazafran pour irriguer leurs jardins.

A Cherchel l'eau était ramenée en abondance de deux sources situées sur les hauteurs nord est, par le moyen de canalisations, en terre cuite.

"LES MORISQUES (ANDALOUS) DANS L'ALGEROIS "DAR-ES-SOLTAN" AUX XVI ET XVII SIÈCLES" (1).

Dr Saïdouni Nacereddine

Ma communication intitulée " les morisques dans l'Algérois "Dar-Es-Soltan" aux XVI et XVII siècles" s'interesse essentiellement au rôle important de l'élément morisque dans la société algéroise, dans le but de savoir les traits généraux de l'entité morisque et sa contribution à la vie économique et sociale dans l'Algérois au XVI et XVII ème siècles.

C'est dans cette optique que j'articulerai ma brève participation en trois points; le premier évoquera l'aspect humain de la présence morisque dans la province d'Alger, le second montrera le rôle des morisques dans les activités économiques, le troisième leur rôle dans la vie sociale.

En ce qui conserne le premier point, en peut constater que la présence andalouse connut globalement trois phases distinctes, la première correspond approximativement aux premiers stocks de l'expansion islamique du 8 au 11 ème siècles, caractérisée par la contribution des andalous à la création de nombreux établissements, humains tels Oran, Tenès, Honaïm, etc... La deuxième phase couvre la période de almoravide, almohade et zianide, du 12 au 15ème siècles qui connut une récrudescence des flux d'andalous vers le maghreb avec la chute des grandes villes musulmanes andalouses (Cordoue, Valence, Murcie, Jaen, Jéville), la majorité des arrivants au maghreb central étaient des hommes de science et de notoriété qui s'installèrent dans les villes notamment Tlemcen et Béjaïa. La troisième phase de la présence andalouse correspond à des arrivées massives de morisques expulsés en vertu des décrets de christianisation (forcée et d'expulsions collectives au début du XVIème siècle. Un nombre impressionnant d'agriculteurs, d'artisans et de commerçants s'installa dans la province d'Alger.

---

(1) Resume d'une communication presentée a l'occasion du 380 aniversari de l'expulsio dels moriscos port dels alfacs. Congres International 5.9 Décembre 1990 Saint Carles de la Ràpita, Tarragona, Espagne.

Ministère de l'Enseignement et de l'Education

Institut d'Histoire

Revue des Etudes Historiques



Périodique de l'Institut d'Histoire

N° 7

PRIX : 50 DA